دار الثقافة الجديدة

على فراش فرويد

نهلة كرم

على فِراش فرويد

نهلة كرم

الطبعة الأولى ٢٠١٤ م

الناشر

دار الثقافة الجديدة

" شركة ذات مسئولية محدودة "

٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس: ٢٣٩٢٢٨٨٠

e-mail: elguindimohamed93@gmail.com

http://www.facebook.com/Dar.Elthaqafa.Elgedeeda

الغلاف: تصميم **مصطفى سليم** عن لوحة للفنان

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٩٩٤٧

الترقيم الدولي: 9 - 189- 221 – 977 – 978

نهلة كرم

على فِراش فرويد

رواية



دار الثقافة الجديدة

إهـــداء

إلى نورا

التي سمحت لي بالبوح

وإلى اللواتي يخفين ما يكتبنه أسفل فراشهن

الفصل الأول

"أوصلني حديثي معه إلى فراشه"

وصلتني تلك الرسالة من مريم في وقت كانت يدي اليمنى لا تتوقف عن الكتابة، ويدي اليسرى تمسك بالهاتف لأعرف كم أحتاج من الوقت، قبل أن أقوم وأقلب شريط المسجل على الوجه الآخر، والموضوع أمام نساء لا تتوقف أصواتهن عن التداخل، رغم أمر مُنى ــ مديرة الجلسةــ إليهن أكثر من مرة ألا يقاطعن بعضهن بعضًا.

فتحت الرسالة، قرأت كلماتها في عجلة، واصلت الكتابة كأن شيئًا لم يحدث.

أغلقت الهاتف دون أن أدري، أأغلقته على سعادة، أم أغلقته على حزن، فالفراش كلمة مضللة، تحمل سعادتنا أحيانا، وتحمل أحزاننا أحيانا أخرى، والشيطان يكمن في التفاصيل كما يقال، ومريم لم تذكر في رسالتها أية تفاصيل، وحتما كانت ستتصل في أي وقت لتخبرني أي شعور كان يحمله الفراش، لذلك أغلقت الهاتف حينها لكي أوفر بطاريته للتفاصيل بعد أن أنهي العمل... أو ينهيني.

لم أعرف كم مر من الوقت منذ بداية اليوم، حتى نزلت من الشركة، فلم أعد أهتم بتتبع عقارب الساعة إلا لإنهاء طعامًا بين عملين، أو لقلب وجه شريط أو استبداله بآخر، أو لمعرفة مدى الغضب الذي عليَّ مواجهته من أهلي بسبب تأخري في العمل. لم تعد ساعتي تصلح إلا لتلك الأمور، إمّا أن تذكرني عقاربها بأن هناك حياة يجب ألا تمر من دون استثمارها، أو يذكرني توقفها فجأة بأن حياتي يمكن أن تتوقف يومًا دون مبرر، وأيضًا دون أن أترك شيئا يدعو الناس لتتذكرني كأني فعل لم يكن، فهذا لا يحدث أو لم يعد يحدث.

بالطبع لم يكن هناك مجال وقتها ــ حين خرجت من الشركة ــ لتلك الحالة الشعرية التي تنتابني أمامك، كل ما كان برأسي وقتها صداع، وأسماء "البامبرز" وأنواعه المختلفة التي ظلت النساء يرددنها طوال اليوم، حتى صارت أسماء حفاضات الأطفال تمر برأسي دون توقف إلى نهاية اليوم .

كأن بيدي خريطة، غير معلومة الملامح، بعد أن تلوثت الحبر الأزرق. الذي لم أهتم حتى بغسلها منه بعد الانتهاء من العمل.

عبرت الشارع الضيق الذي يفصل بين الشركة والكوبري الصغير، وقفت على الكوبري أنتظر سيارة أجرة تذهب بي للإسعاف أو للجيزة، فليس هناك شيء يذهب مباشرة من المعادي إلى الكيت كات، الانتظار طال وغلق مريم لهاتفها طال أيضًا، فوقفت أواجه وحدي هدوء المعادي الكاذب، ونيلها الملثم بالمطاعم والكافيهات.

*****

من أين نبدأ الحكايات!؟ أن أقول لك مثلا أن مريم اتصلت بي صباح اليوم التالي لتقابلني؟ أكره تقليدية البدايات التي تشعرني أنني أحكي بالشوكة والسكين، كما أكره احتمالية النهايات أو فجائيتها، أحب وسطية الأشياء، الفراش دائمًا ما يتوسط الحجرات... دعنا نبدأ من الفراش، من حيث عرفَت مريم أنه إذا كان هناك أسرّة للأفراح وهناك أسرّة للأحزان، فإنه ليس ثمة فراش للنسيان.

ذلك أننا حين نحاول أن نقنع ذاتنا بشيء ما، يجب أن نعلم أننا نسير في الخط الموازي لهذا الشيء، فحين نحاول أن نقنع أنفسنا مثلاً بأننا نسير في خط النسيان، نجد أنفسنا نسير دون أن ندري في خط الذكرى الموازي له. وهذا ما فعلته مريم.

ظننت أنها يمكن أن تستبدل رجلاً اشتهت جسده عبر الهاتف، برجل أحبت صوته عبر شاشة التلفاز، متناسية أن العشق كخزانات البنوك لا يمكن فيه استبدال بصمة صوت حبيب بصوت رجل آخر.

أعلم أنك تريد أن تسمع حكاية الفراش، ماذا في ظنك يمكن أن يحدث فوق الفراش إذا ما اجتمع فوقه رجل وفتاة وكانت ثالثتهما الشهوة ورابعتهم الرغبة في النسيان؟ أو العكس: ثالثتهما الرغبة في النسيان ورابعتهم الرغبة من أجل الرغبة؟ يمكنك استبدال الثالثة بالرابعة أو الرابعة بالثالثة حسب درجة الرغبة لدى كل منهما، ولأني منحازة إلى مريم يمكنني القول بأن الرغبة في النسيان تفوق أية رغبة.

أنا أيضًا أرغب في نسيان تلك القصة التي روتها لي مريم، والتي أنهتها بسؤال: "أنا شرموطة؟"

هو في الحقيقة لم يكن سؤالاً بل كان رجاءً بأن تحمل الإجابة نفيًا قاطعًا، لم أكن في حاجة لدموعها لأجيب بالنفي، ربما تأخُر إجابتي الذي واجه مزيدًا من دموعها وتكرارها للسؤال أكثر من مرة لم يكن بسبب القصة نفسها، ولكن بسبب هذا السؤال، أو يمكنك القول بسبب الاثنين معًا، القصة والسؤال، فالسؤال يختزل القصة كلها. حين كنت صغيرة كنت أتقزز من تلك الألفاظ دون أن أعرف معناها، وحين كبرت أكثر وعرفت معناها زاد تقززي، ولكن حين انفتح أمامي العالم أكثر من سنوات عمري، صارت تلك الألفاظ تقال أمامي بصورة عادية من أقرب صديقاتي، لذلك يمكنني اختزال القصة كلها في تلك الكلمة.

حين كنت صغيرة، كانوا يقسمون الفصل إلى صف يجلس فيه الأولاد، وصف آخر للفتيات، وكان هناك فراغ يفصل بينهما، كان هذا الفراغ يمر منه المدرسون، وكان اختلاط الفتيات بالأولاد محرم، حتى أنني أذكر وأنا في مرحلة الحضانة أنني أخطأت في شيء، على ما أتذكر أنني تكلمت فكان عقابي أن أجلس بجوار أحد الأولاد في صفهم!

لا أعرف حقـًا أي عقاب هذا ولكن يمكنني الحصول على مزيد من دهشتك حين أخبرك أنني لم أكفّ عن البكاء منذ أن جلست بجوار هذا الطفل وحتى انتهى اليوم الدراسي.

يمكنك طبعا تخيل ماذا كانوا يضعون في رؤوسنا تجاه الجنس الآخر، حتى يكون عقابنا أن نجلس بجوارهم.

ستقول لي ما علاقة تلك القصة بمريم، سأقول لك عد إلى أول جملة: "حين كنت صغيرة"، أما حين أضيف إلى عمري هذا خمس سنوات أخرى أو أكثر قليلاً، في تلك المرحلة التي ننتظر فيها كلمة حب، نملأ من أجلها الدنيا سعادة أو نصفع من قالها لنا، وذلك كان متوقفًا حينها على نوعية الأفلام التي كنا نتابعها، أهي أفلام تربوية تعلمنا أن نصفع رغباتنا المكبوتة بمجرد أن تتمثل في كلمة، أم أفلام تخبرنا أن الحب لا يعلن عن نفسه إلا بقبلة.

المشكلة أنني كنت متابعة جيدة للنوعين حتى اختلطت عليَّ الأمور، يوم أن وضع طفل في مثل عمري وقتها جوابًا في حقيبتي. كان الفصل كله في حالة فوضى بعد انتهائنا من الفسحة، ورائحة العرق الطفولي الناتج عن اللعب تملأ المكان، أشعر أنني أشمها الآن، كنت أجلس وأتكلم مع من خلفي، حين نظرت بالصدفة لأجد طفلاً- لا أزال أذكر اسمه وشكله حتى الآن- فاتحا حقيبتي يفتشها.

- ماذا تفعل بحقيبتي؟ سألته...

أجابني وهو يكمل بحثه، متجاهلاً نظرات الدهشة التي وجهتها إليه: محمد وضع في حقيبتك جوابًا يقول لك فيه إنه يحبك!

كلما تذكرت تلك القصة لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك، وأسأل نفسي ماذا كنت فاعلة إذا كان عقلي في عمري الحالي يستبدل بعقلي الذي كان وقتها؟ حتما كان رد الفعل سيختلف، كنت على الأقل سأسأله: إذا كان هو وضع جوابًا، فماذا تفعل أنت بحقيبتي؟!...

ولكن رد فعلي كانت طبيعيًا بالنسبة لعمري، فرغم سعادتي ــ بيني وبين نفسي ــ أن أحدهم انتبه أخيرًا إلى وجودي وترك لي جوابًا، مثلما يحدث في الأفلام، إلا أنني تصنعت الغضب، وأخذ أصدقائي في تهدئتي، حتى دخل مدرس الفصل وصمتنا جميعًا .

ظللت في أثناء شرح المدَّرسة أنظر بضيق ناحية الصف الذي يجلس به محمد، لم ينظرِ إليَّ ولو مرة واحدة، استفزني أنه لم يعرني اهتمامًا وكأنه لم يفعل شيئًا، فزاد غضبي تجاهه ورغبت في فضحه.

انتظرت وحدي اللحظة التي أتخذ فيها رد فعل أقوى على تلك الورقة والتي لم تظهرــ بالمناسبة ــ لأنني بحثت عنها في كل جزء من الحقيبة مع هذا الطفل الذي لم يستأذنني في فتحها، دون أن أجدها، ربما كان الموضوع كله كذبة من محمد، ربما ادعى أنه وضعها ليبين لأصدقائه أنه صار أرشد منهم، وتجرأ ليعبر عن مشاعر لم نكن نراها في تلك المرحلة إلا في الأفلام، وربما أيضًا كان الموضوع حقيقيًا ولكنه بعد أن سرب الخبر تراجع عن جرأته خوفــًا من العقاب الذي يتمثل في المدرس في ذلك الوقت.

جاءت اللحظة المناسبة من وجهة نظري حين جاء والد محمد، ليسأل مدرسة الفصل عن أخبار ابنه في الدراسة، فقمت لأخبره بما فعله ابنه لأثبت للجميع أنني فتاة محترمة لا توافق على تلك التصرفات، ضحك والده ومدرس الفصل وداعبني بأنه لو كان مكانه لفعل نفس الشيء لأنني جميلة، زادت فرحتي بعدها وذهبت في خجل أروي لأصدقائي أهم ما حدث:" أنني فتاة جميلة".

لا أتذكر كيف أصبح تعاملي مع محمد بعدها، ربما أفاق محمد من تخيلاته، وعرف أن الفيلم الذي أشار عليه بفعل ذلك كان خادعًا، وربما أيضًا أوحى إليه فيلم آخر بأن الحب لا يكون في حضرة الكتب والسبورة

والطباشير، ولكنه من الأفضل أن يكون عبر نافذة المنزل، فذهب يبحث في منازل الجيران عن مقصده .

وحين كنت في الثانية عشرة، هذا العمر الذي يسمى بسن المراهقة، رغم أنني أكره تلك التسمية التي تثير في ذاكرتي ماضيًا لا أحبه، ليس مُهمًّا الآن أن أروي لك ذلك لأنه مترتب على حادثة ليست لطيفة.

في هذا العمر كان موعد الفصل، هناك مدارس للفتية وأخرى للفتيات، فما داعي أن يبقيا معًا في مدرسة واحدة، إذا كانت هناك فرصة لتقليل خطر تجمعهما؟ انفصلت الأشياء المنفصلة، صار الالتقاء شيئًا تستنكره الوجوه التي منعتها الأسباب- أية أسباب- من لقاء مثله.

اشتهرت في هذا الوقت ظاهرة أن تحب فتاة الإعدادي سائق ميكروباص يحرص على إخلاء المكان المجاور له دائمًا لحبيبته طالبة الإعدادي، صديقتي "هاجر" وقعت في حب سائق لأنه استبدل شريط عمرو دياب وأغنيته المشهورة وقتها "علمني هواك" بشريط لأحد الدعاة الدينيين، وكان يمنحها بعد كل توصيلة مجانية شريطًا هدية، بينما كنت أنا أجلس على الكرسي الأخير وأنظر بضيق لما يحدث، وكما باعدت بيننا الكراسي، باعدت بيننا الأفكار أيضًا، وانطويت أنا على نفسي أراقب ما تفعله صديقتي والفتيات من حولي باستنكار، وربما أيضًا بغيرة لأنني ليس لدي جرأة على أن أفعل مثلهن وأخرج من شرنقة الطفولة، ربما لذلك داريت شراسة الرغبة والخيال وقتها خلف نافذة...

فحين ذهبت إلى مدرستي الجديدة، لم يكن هناك شيء يربطني بها في البداية، حتى انتبهت ذات يوم إلى وجودي بجوار نافذة تطل على شارع. فصرت أرى عالماً جديداً عليّ، بعد أن كانت النوافذ في مدرستي القديمة تطل على فناء المدرسة فقط.

لفت نظري ذات يوم وأنا أنظر من النافذة ــ في الوقت الذي يفصل بين حصة وأخرى ــ رجل يقف فوق الرصيف المواجه للمدرسة،

يمسك بعضوه ويذهب ويجيء ويده عليه، اتسعت عيناي من الدهشة وأنا لا أفهم ما يفعله هذا الرجل.

لم أكن وعيت بعد ما يسمي بالعادة السرية رغم أني كنت أمارسها قبل ذلك بعام، ولكن هناك فرقــًا بين أن تفعل شيئًا بفطرة وأن تفعله عن وعي به، وهكذا كنت أفعلها بفطرة دون أن أدري أن ما أفعله يسمى عادة سرية، كنت أعرف أنني افعل شيئًا خاطئًا، لأنني لا أستطيع ممارسته أمام أحد، كما أن الأمر كان يتعلق بملامسة عضو محرم لمسه أو الإشارة إلى وجوده حتى ولو من خلال جلسة أفتح فيها رجلي لأكون على راحتي، فأفاجأ بصرخة من والدتي لأن تلك الجلسة عيب، لم تكن تشرح لي، لماذا يجلس والدي وأخي نفس الجلسة ويكون شيئًا عاديًا، بينما يقتصر العيب على فقط.

لهذا أيضًا لم يكن من السهل على تخيل أن هذا الشيء الغريب الذي أفعله في الخفاء، يعرفه ويمارسه أحد غيري، فلم أفهم ما يفعله الرجل، ولكنه نبهني إلى وجود عالم آخر على بعد من النافذة، أبعد من عالم السيارات الذي ظننته بعيدًا. وجدت لذة في مراقبة هذا الرجل بين كل حصة وأخرى والرجل يمارس عادته بشغف دون أن يرفع رأسه إلى نوافذ المدرسة، فهو يعرف أن هناك عيونــًا تراقب ما يفعله ولا داعي لاصطدام فضول رغباتها ـ المختبئ خلف نظرات استنكارية ـ بنظرة إلى أعلي من جانبه، ربما تؤدي إلى ارتباك العيون وابتعادها تمامًا عن المشهد الذي صنعه.

كنت أظن أنني وحدي من يختلس تلك النظرات إلى هذا الرجل ولكنني فوجئت ذات يوم بمجموعة من صديقاتي يجلسن مكاني ويخطفن نظرات سريعة ويختبئن أسفل زجاج النافذة وهن يضحكن، حين نظرت إلى ما كن ينظرن إليه، عرفت أن سري لم يعد سرًا.

" ما الذي يفعله هذا الرجل" سألت وأنا حقـًا أريد إجابةً، ضحكن جميعًا عدا واحدة نظرت إليّ في استنكار:"ألا تعرفين حقـًا ما يفعله الرجل"؟

أقسمت لها أنني لا افهم، فأخبرتني أنه يعمل (قلة أدب) ولكنها لم تذكر العادة السرية، كان الموقف إشارة لنا فقط لنبدأ في الأحاديث الجنسية وتكون شغلنا الشاغل، أصبحت متعتنا أن يتغيب أحد مدرسي الفصل، لنستغل الفرصة ونجلس في حلقة ونتكلم في الجنس، أكثر شيء معلق في ذاكرتي من حكايتهنّ أن الرجل يطيل ظفره الصغير ليفتح به زوجته ليلة الدخلة، كان شيئًا جديدًا على ومقرفـًا وموجعًا أيضًا. صرت أنظر من بعدها إلى أظافر الرجال، من أجد ظفره الصغير طويلاً أخشاه وأحتقره، ومن لا أجد ظفره طويلاً، أسحب عنه نظرات الاحتقار ولكني لا اطمئن إليه أيضًا.

لأنني في تلك السن كنت أكره كل الرجال خصوصًا بعد الذي حدث لي في مدرستي القديمة، لا لن أروي لك تلك القصة الآن، أخبرتك قبل ذلك أنني أكرهها، دعها وشأنها، المهم أن موضوع أظافر الرجال صار يشغلني بصورة كبيرة وخصوصًا الرجال الكبار الذين يضعون دبلة في يدهم اليسرى تدل على أنهم متزوجون ومع ذلك يحتفظون بأظافرهم طويلة.

كنت أسأل نفسي إذا كانوا متزوجين فما حاجتهم للأظافر، وكانت إجابتي أنهم حتمًا مجرمون يدبرون لجريمة اغتصاب في أي وقت، كما كنت أفكر أيضًا في تلك الليلة الدامية التي سأقضيها والتي يسمونها ليلة العمر. كيف تكون ليلة العمر وفي نهايتها تنهش عذرية جسد بأظافر وحشية. وصرت أتساءل: أي طول ستكون أظافر زوجي؟ هل متوسطة الطول؟ أم طويلة إلى حد الاشمئزاز؟ وماذا لو كسرت أظافره بداخلي!

سيطرت تلك المشاعر عليّ لأنني لم أكن أفقت بعدها من صدمة عرفتها من صديقاتي في مدرستي القديمة في جلسات فسحتنا، كنت لأول مرة أعرف أن البنت في تلك السن يجب أن يقتطع جزء من مكمنها فيما يسمى عملية الختان.

حين حكت لي إحدى الفتيات عن تجربتها مع الختان وضعت يدي على مكمني وأنا أصرخ، بعدما تخيلت الألم الشديد الذي يمكن أن يحدثه مشرط أو مقص جائر بذلك المكان الحساس الذي يمنع بعض الأهالي بناتهن من ركوب الدراجات منعا للاحتكاك به،. ظننت أن الفتاة تكذب أو تؤلف حكاية، ولكنني اكتشفت أن جميع الجالسات يعرفن تلك العادة، وأن من بينهن من ينتظرها مشرط في إجازة العام الدراسي ليقعدها طريحة فراش من المفترض أن تنام فوقه بسلام!

كنت أتألم في داخلي وأنا أستمع إلى حكاياتهن، وأتشبث أكثر بمكمني وكأنني أخشى إن أنا أبعدت يدي عنه، أن يقترب مني أحدهم ويفعل بي ما يروونه، خصوصًا بعد أن أكدت لي إحداهن بثقة أن كل الأهالي يفعلون ذلك في بناتهم ولا يمكن لفتاة في العالم أن تفلت من تلك العادة، لأن الفتاة التي لا تختتن يركبها زوجها ليلة الدخلة.

شهقت خلف كلماتها: (يا لهوي، الفتاة التي لا تختتن يركبها زوجها ليلة الدخلة؟).

أريد أن أضحك بعد أن تذكرت تلك الحكاية معك الآن، يا لسذاجة الأطفال! وما الكارثة في أن يركب الزوج زوجته ليلة الدخلة؟ إذا كان هذا سينجيها من عملية بتر لعضو لم ترتكب ذنبًا لتخلق به؟

وما الغريب في أن يركب الزوج زوجته أساسًا، فتلك كلمة إباحية مرادفة للمعنى الألطف الذي نخفي فيه وقاحتنا الغريزية فنقول الجماع أو مضاجعة الزوج لزوجته، أما في أحاديثنا الحقيقية نقول (ينام معها

أو...) المشكلة أننا لا نعرف تلك الأشياء إلا بعد أن تكون نصف طفولتنا دُمرت بفعل تلك الحكايات الكاذبة.

بعد أن عرفت هذا الأمر، صرت أخشى أبي وأمي إلى حد الكرهِ، أنظر إلى يد أمي بين لحظة وأخرى لأطمئن أنها لا تحمل مشرطـــا، وأراقب جلوسها مع أبي وأحاول سماع كلماتهم الخفية خشية أن تتضمن اتفاقا على تقطيع جسدي.

مرت أجازة واثنتان وثلاث، وتركت مدرستي القديمة ودخلت مدرستي الجديدة في العجوزة وتعرفت على عالم آخر تتجمع فيه البيئات المختلفة، بنات يقطن في العجوزة وأخريات في الزمالك وأخريات في شبرا ومن جميع المناطق، عكس مدرستي القديمة التي اقتصرت على أبناء " الكيت كات " من الجنسين، واقتصرت أيضًا على ثقافة البتر، أما في المدرسة الجديدة فكان هناك ثقافات مختلفة نبهتني على الأقل إلى أنه ليسِ من المؤكد أن أمي تخفي عني مشرطـــاً حادًا، وأننا يمكننا أن نـــصنف من ضمنِ الأهالي الأكثر تحضرًا، الذين لا يقتلون طفولة بناتهن بمشرط، فعلاً (تحتاج إلى ثقافة أخرى كي تكتشف أن نصف بديهياتك حماقات) كما يقول إلياس خوري.

حين دخلت الثانوية العامة لم يكن لي هم سوى الحصول على مجموع كبير لأدخل إحدى كليات القمة، لذلك قضيت تلك الفترة بينِ الكتب، الشخص الوحيد الذي سرقني للحظات من المذاكرة كان بائعاً وسيماً في سوبر ماركت أسفل منزلنا، كنت ألاحظ حين أذهب لشراء أي شيء منه، أنه يؤجلني للنهاية وحين أبديت ضيقي المصطنع، والذي يخفي فرحتي لاهتمامه ونظراته التي كنت أفهمها، أخبرني أنه يتعمد ذلك لاهتمامه بي ودخلنا في نقاش عرفت منه أنه يحب اللغة الفرنسية ويريد أن يتعلمها بعد أن انقطع عن الدراسة منذ سنوات، أخرجت من حقيبتي

كتاب اللغة الفرنسية وقطعت آخر صفحاته التي تحوي كلمات بالفرنسية وترجمتها وأعطيتها له وطلبت منه أن يذاكرها.

خرجت من عنده أشعر أنني ارتكبت جرمًا لأنني تكلمت مع شاب، إضافة إلى أنه بائع، ولكنني أقنعت نفسي بالدِّين... بأنني عملت خيرًا:"خيركم من تعلم العلم وعلمه"، وقلت لنفسي أنني أعطيته فقط بعض الأوراق ولم أعلمه بنفسي، لم أكن أريد هذا الشاب بمعنى "المصاحبة" ولكنه كان مثيرًا لتخيلات فراشي.

بعدها صرت أتحجج لكي أشتري الأشياء من هذا المحل وقتما يكون موجودًا، كما أنه أخبرني بالأوقات التي يتواجد فيها خلال كلامه معي، ولكن لم تطل تلك المدة كثيرًا بعدما قال لي أن عينيَّ جميلتان وهو يعطيني ورقة، طلب مني قراءتها.

أخذتها في سعادة، وذهبت بها إلى المنزل، أقرأها وأعيد قراءتها بين الكتب خفية، حينها تأكدت مما توقعته عن حبه لي، سعدت قليلاً، ثم تضايقت وشعرت أن عليّ إنهاء الأمر، ولم أكن أعرف كيف أنهيه بعد أن اكتشفت أنني كنت أسعى إليه من أجل اعتراف فقط، وبعدها أنهي القصة.

ومن أجل إنهائها من دون أن يوجعني ضميري، رويت لأقرب صديقاتي وقتها والتي كانت تشاركني الحزم نفسه تجاه العلاقات بالجنس الآخر – ولكن ربما كانت أكثر صدقـًا مني- رويت لها القصة كاملة ولكن حذفت منها التفاصيل التي تكشف لها أنني رميت له الحبل الذي صعد به إليّ، كي أبرىء موقفي، وتساعدني هي على التخلص منه دون إدخال المشاعر في الأمر، قالت لي إن على القيام بشيء واحد، أن آخذ الأوراق التي منحتها له منه، وأمنحه ورقته.

لم أجادلها، ذهبت للمحل، ووقفت أمام الشاب وتجهمت، ومنحته الجواب وهو لا يفهم ماذا حدث بين الأمس واليوم، ثم طلبت منه

صفحات الكتاب، أخبرني أنها ليست معه وأنها فيِ بلدته، نظرت إليه من فوق إلى تحت ثم تركته، ولم أعد لأشتري شيئا من هذا المحل مرة أخرى.

ابتسامة ساخرة منك تكفي لرد الإهانة لهذا الشاب الذي لم يعرف في أي شيء أخطأ، ليواجه رد فعل كهذا مني، حتى أنا لم يأت في ذهني تفسير منطقي لما فعلته وقتها، ولكني الآن يمكنني أن أشاركك هوايتك وأحلل الموقف.

لم تكن ساديتي فقط التي شاركت في صنع تلك القصة بل كان غيظي أيضًا، ففي تلك الفترة من حياتي، لم أكن أفعل شيئًا سوى المذاكرة كما أخبرتك، وكان جميع الفتيات من حولي يستمتعن بحياتهن، يخرجن مع أصدقائهن، يذهبن للنادي، يشاهدن التلفاز. وحدي كنت أغرق في الحفظ، وأمني نفسي بأن أحلى سنوات عمري ستكون في الجامعة، ويجب أن أدخل إحدى كليات القمة لأثبت للجميع أنني قادرة على ذلك، ولأتخلص من عقدة اتهام الملتحقين بالقسم الأدبي بالغباء والفشل.

كنت أذاكر فقط، وأنا أنظر إلى البنات من حولي وما يفعلن، وتملؤني غيرة من علاقاتهن بالأولاد الذين ينتظرونهن خارج المدرسة ليذهبن معهم إلى الدروس أو يتحججن لأهلهن بالدروس ويقضين الوقت معهم، بينما أنا لا أعرف سوى الكتاب، حتى أنهن كن يسخرن مني أحيانـــًا لأنني لا أهتم بمظهري، فأبين لا مبالاتي لكلامهن وأخبرهن أن المذاكرة أهم عندي في هذا الوقت، ورغم أنني كنت أظهر أنني غير مهتمة بسخريتهن، إلا أن كلامهن كان يحرقني ويضايقني في داخلي.

قبل أعياد الحب كن يجلسن ليتشاورن عما سيشترين، وأنا أجلس بينهن أقترح فقط ولا تنال اقتراحاتي إعجابهن لأنها تقليدية، أو لأنني لا أفهم معنى عيد الحب الذي وعيت وجوده فجأة من أحاديثهن، كل الأشياء

التي كانت غريبة بالنسبة إليّ كانت بالنسبة إليهن عادية، ما المشكلة في أن تتعرف البنت على شاب معها في أثناء أحد الدروس. أو تلميذ في مدرسة الصنايع التي تقع خلف مدرستنا.

المشكلة الحقيقية هي أن نظرتي لتلك الأمور في ذلك الوقت، كانت مقتصرة على هؤلاء البنات من حولي، اللائي يقصرن كل علاقاتهن بالشباب على عيد حب، ويطلقن على تلك العلاقات(مصاحبة)، لم يراعين أنني سأفهم(المصاحبة) بالصداقة، وأنهن حين يشرحن لي أن المصاحبة تعني الحب، ستختلط على الأمور، لأنظر في النهاية إلى تلك العلاقات باعتبارها " بيئة" ،لأنها كانت تذكرني بعلاقة صديقتي في الإعدادية بسائق الميكروباص.

حين جاءت لي الفرصة لأقلدهن من خلال ذلك البائع الذي شجعتني نظراته على شيء جديد يحدث في حياتي، وضعت لنفسي حدًا أقف عنده حتى من دون أن أدري متى سيأتي هذا الحد، لذلك توقفت عند ذلك الجواب لأنني لم أكن أريد منه سوى إشباع تلك الرغبة، الشعور بأنني فتاة مرغوب فيها مثل صديقاتي، ولكني في الوقت نفسه لست مثلهن، لأنني حسمت موقفي واتخذت رد فعل قاسٍ ضد من حاول الاقتراب مني، لأكون بذلك حققت الرغبة الأخرى وهي الشعور بالتفوق في الأخلاق عليهن.

غير تلك القصة لم أورط نفسي في علاقة مع أي شاب، حتى دخلت الجامعة، وكانت الصدمة بالنسبة إليّ أن العلاقات بين الشباب والبنات ليست كلها علاقة سائق ميكروباص، أو علاقة طالبة بتلميذ في مدرسة الصنايع، وليست كلها علاقات لوكال "بيئة" ولكن العلاقة بين الجنسين لها أشكال أخرى.

كنت مطالبة بعد ١٦ عامًا من التعامل الحذر مع الجنس الآخر، واعتبار الكلام معه "تابو" لا يجوز الاقتراب منه، بالتعامل بكل بساطة

مع أبناء كليتي، المشكلة أن صديقاتي كن جميعهن يتعاملن مع الأولاد طوال حياتهن بصورة عادية لأنهم كانوا معهم في مدارس لغات مشتركة، أو لأنهم أصدقاؤهم منذ الطفولة ويشاركونهم في جميع الدروس الخصوصية. كنت الوحيدة بينهن التي أخجل من الكلام مع أي ولد، وأرفض الجلوس معهن إذا ما كان بالجلسة أولاد، كن يسخرن مني ويخبرنني بأننا لسنا في مدرسة، لكني كنت أتجاهلهن.

كنت أكره تلك اللحظات التي يخرجون فيها معًا ويتركوني أجلس وحدي في انتظار عودتهم على سلالم الكلية، حتى أقنعوني يومًا بأن أخرج معهن خارج أسوار الجامعة لنتناول الطعام في أحد المطاعم الموجودة في شارع الجامعة، وبينما قضوا الوقت في تناول الطعام والضحك والكلام، قضيته أنا في التلفت حولي خوفـًا من قدوم أخي في أية لحظة.

كسرت مرحلة الجامعة بداخلي هذا الحاجز الذي صنعته بيني وبين الرجال، حتى نسيت تمامًا تلك المرحلة التي كنت أحتقر فيها الرجال بسبب إطالة ظفرهم الصغير، وصار لي أصدقاء كثيرون منهم، وكسر هذا الحاجز ساعدني في كسر الحاجز الآخر، وهو اصطناع الأخلاق بشكل زائد ينفر من حولي كل صديقاتي، فلا يمكنك أن تشعر الآخرين بالنقص وتنتظر منهم أن يصدقوا على كمالك. تعلمت ذلك في وقت متأخر جدًا، بعد أن فقدت الكثير، لأتعلمه من حكايات مَن حولي الذين كنت أصدر لهم حكمًا مسبقـًا بخطئهم قبل أنَ أسمع حكاياتهم للنهاية.

صار لارتباط الشاب بالفتاة معنى مختلف لديّ، بدأت القصص والحكايات تختلف باختلاف الأشخاص وثقافاتهم، لم يعد غريبًا على أن أسمع من فتاة أن حبيبها قبلها، لأني سمعت من أخرى أنها ذهبت إلى شقة الشاب الذي تحبه، وإذا كنت أحتقر من يقولون ألفاظا خارجة، فكيف

أبدي اعتراضي وصديقاتي من مجتمعات راقية جدًّا ينطقونها في لحظات غضبهن- وفي لحظات سفالتنا أيضا- ونضحك بعدها.

***

ربما لذلك كان من المفترض أن أتقبل كلمة مريم بصورة عادية، بعد هذا التحول في حياتي.

- كل تلك الحكاية الطويلة حتى تبرري موقفك من عدم انتقاد مريم على أفعالها؟

- لا، ليس الأمر كذلك.

ربما جزء منه هكذا، لكن صدقني الموضوع كله أثار ذاكرتي، أنا نفسي لم أكن أتخيل أن أروي لك كل تلك الذكريات منذ البداية، لكن الماضي مثل بكرة خيط، إذا ما جذبنا أحد أطرافه، نفاجأ أننا نجذب معه الطرف الآخر، مرورًا بكل العقد التي تقابلنا في المنتصف، سواء تلك التي نستطيع تفكيكها، فيرتاح البال منها، أو تلك التي تقف عثرة أمامنا كلما أردنا التسكع في الماضي حينًا.

- وما تلك العقدة التي يصعب عليك تفكيكها حتى الآن، وتكتفين بالهروب كلما تعثرت بها؟

- ليس الآن، أشعر بالضيق، أريد أن أروي لك قصة مريم.

- إذن ماذا حدث لمريم؟

- فُتحت مريم من الخلف.

- يبدو أن هذا الأمر أكثر ما يضايقك في تلك القصة، لذلك ألقيت به سريعًا في وجهي حتى تتخلصي منه، ما الذي يضايقك في أمر كهذا؟

- كلما وضعت نفسي مكانها، أشعر بألم، كيف يمكن لشيء أن يدخلني من الخلف، فيقسمني إلى نصفين، كل منهما يحمل جزءًا من رذيلة.

- هذا شعور طبيعي بالنسبة إليك، لأنك تحملين بداخلك رواسب خوف من قطع مَكمن ودموية أظافر، لكنها ستذهب تدريجيا حين تتزوجين.

- لا أريد أن أتزوج.

- لماذا؟ ألهذا الأمر علاقة بالعقدة التي لا تريدين تفكيكها!

- كيف عرفت؟

- في حياة كل منا أسرار كبرى يخشى البوح بها، وكلما فُتح حديث يذكره بها، تجنب الخوض فيه خشية أن يُفتضح سره، دون أن يعلم أن كثرة الهروب من السؤال يعري الإجابة.

أريد أن أحكي قصة مريم، يمكن أن أستدعي لك ذاكرتي مع العمل الصحفي لمدة عامين في أثناء دراستي في الجامعة، وأصنع لك خبرًا من أربعة عناصر (متى، أين، من، ماذا)، تلك العناصر التي تعلمنا منها كيفية صناعة الخبر.

متى: الزمان لا يجاوز الثالثة عصرًا.

أين: فراش يتوسط حجرة كأية حجرة لها أربعة جدران، ولكن مريم لم تتمكن إلا من رؤية حائط واحد مواجه لصدمتها.

ماذا: محاولة بسيطة لنسيان رجلاً أحبته، أودت بها إلى فراش رجل لا تعرفه، فضل أن يحتضنها من الخلف ليحصل على متعته كما تعود عليها من سواها، فقبلت عرضه دون تفكير لتنسى حب رجل آخر، من المحتمل وجوده في نفس التوقيت على فراش امرأة ثانية ولكن لسبب آخر غير النسيان.

من: لا يمكنني إعطاء إجابة قاطعة على هذا السؤال. "من" تعود على فاعل الحدث، والفاعل هنا مجهول الهوية، هل هو إلهامي الذي تخلى عن مريم في اللحظة التي كانت كل الفرضيات تؤدي إلى نتيجة واحدة هي يقينية بقائه إلى جوارها، أم مريم هي الفاعل لأنها لم تدرك

منذ البداية أنه ليس ثمة فراش للنسيان، أم كان الفاعل هذا الرجل الذي أراد أن يتحرر من وقاره أمام الشاشة بفوضويته خلف أجساد النساء؟ أعتقد أنه الفاعل الواضح في تلك القصة الذي يمكننا أن ندينه، لأنه الوحيد الذي ترك جرحًا ماديًا في جسد مريم، أما إلهامي فلم تكن جريمته سوى جروح في القلب، وشروخ في الروح وكسر للكرامة، وأنت تعرف أن تلك الأمور التافهة ـ من وجهة نظر من لا يتعرض لها ـ لا تكفي أدلة جريمة، أو إدانة متهمًا.

القصة مكتملة إذن، فتاة في الخامسة والعشرين من العمر، تتعرف إلى رجل من خلال التلفاز، تعشق طريقته في الحديث ومبادئه التي لا تعرف الطرق الملتوية، تتمنى مقابلته ويصير حلمًا بالنسبة إليها أن يتكلم إليها وحدها بهذا الوقار الذي يبدو به على الشاشة، وظنت أنها إذا قابلته سيعيد بناء ما هدمته الخيانة بها من مبادئ، وحين جاءت الفرصة لتقابله من خلال أحد الصحفيين الذي طلب منها الذهاب معه إلى هذا الكاتب ليحاوره، وتقوم هي بعملها وتلتقط له صورًا صحفية من أجل الحوار، حينها ظنت أنها منحة القدر فلم تتردد لحظة في الذهاب.

فرحت حين تبادلت معه الحديث، متجاهلة ضيق الصحفي باعتدائها على عمله، وفرحت أكثر حين بادلها الحديث والابتسام ونظرات الإعجاب وكأنها هي الصحافية، بعد أن انتهى الوقت، ذهب الصحفي بينما ظلت مريم واقفة بين طريقين وعليها أن تختار، إما أن تذهب معه إلى منزله، أو أن تفارقه.

لم تُرد أن تفارقه ولكنها في الوقت ذاته لم تذهب يومًا إلى بيت رجل، حتى إلهامي ـ الذي امتد عمر حبها له ست سنوات ـ لم تذهب إلى بيته يومًا. كانت مترددة ولم تعرف ماذا تفعل. طلبت منه أن يهديها اسمه فوق كتاب له، قرأته عشرات المرات ولكنها تظاهرت أمامه بأنها

لم تسمع به من قبل، لتمنحه فرصة أن يعرض عليها الذهاب إلى منزله ليمنحها الكتاب، وتعطي لنفسها مبررًا للذهاب معه.

قبل أن تذهب مريم للقاء هذا الكاتب الشهير الذي يدعى"محسن فهمي"، أرادت أن تسلح نفسها بأشياء أخرى غير جسدها الفاجر في أنوثته، والذي يلتفت إليه كل الرجال محاولين السير عبر كل الطرق المؤدية إليه، لكن مريم تخيب ظنهم وتسد عليهم الطريق من بدايته.

يمكنك التعرف على الرجل التافه بسهولة، هذا الذي تتوازى نظراته مع كامل جسدك، لأن حيوانيته تمنعه من مخاطبة عقلك" هكذا تقول مريم دائمًا كلما تعرضت لموقف مشابه.

المشكلة أنها حين حاولت أن تؤمن نفسها بأسلحة أخرى غير جسدها، اختارت نفس سلاح الرجل الذي يظهر به قويًا أمام الآخرين، اختارت الكلمات، أرادت أن تغطي نفسها بكلمات تشعر الرجل أنها تقف على أرض واحدة في القوة معه حتى لا ينظر إليها من منطلق جسدها فقط، فاختارت كلمات تعريها أكثر، وتجعله يتأكد أن جسدها يحمل بداخله عاهرة تحترف التأوه فوق الفراش، كما تحترف التعري في كلمات ليست كلماتها، أشعر بالغيظ من مريم الآن كلما تذكرت هذا.

- ألأنها أخذت قصائدك وادعت أنها لها؟

- ليست المشكلة في الكذب للمرة الثانية، بعد أن فعلت ذلك مع إلهامي "أحبك أكثر حين تكتبين الشعر" قال إلهامي ذلك لمريم، فاقتنعت بأنها كلما تعرت أكثر كلما أحبها أكثر، لذلك حين كنت أكتب شيئًا يعري رغباتي، كانت تمنحها له على أنها رغباتها.

لكن المشكلة في الغباء، الغباء الذي جعلها تظن أنه بإمكانها أن تفعل الأمر نفسه مع محسن الذي لم يقابلها من قبل، لم تكتف بأن تعبر عن أنوثتها ورغباتها في لوحات جسدية عارية بل أخذت قصائدي ونسبتها إلى نفسها من وراء ظهري، ظنت أن الكلمات الجنسية المتنكرة

في ثياب أدبية، يمكنها أن تجعل رجلاً عابرًا يتذوق القصيدة دون التفكير في تذوق جسد صاحبتها، أو جسد من توهم أنها صاحبتها.

ماذا يمكن أن يفهم رجل غريب يقابل فتاة للمرة الأولى فتمنحه ورقة مكتوب فيها:

(أقر أنا بنت التاسعة عشر
أنني أعشق خطوط العمر في وجهك
وأعشق تلك الخصلات البيضاء
في شعرك
ولن أبكي يومًا إذا ما أَحلتنِي
من فتاة إلى امرأة في حضنك
وهذا ندائي الأخير)

أعترف أنني كنت أكتب قصائد جنسية تأثرًا بنزار قباني، لكني تعلمت إخفاءها حتى لا تتعرى رغباتي أمام الآخرين، ولو كان ذلك من خلال جسد ليس لي.

- لكنك لم تفعلي ذلك حين حدث نفس الشيء مع إلهامي؟

هناك فرق بين إلهامي وبين "محسن فهمي"، فإلهامي لم يتعامل يومًا مع أنوثة مريم باعتبارها مجرد جسد عليه اقتحامه، ولكن محسن لم يكن أمامه سوى ذلك، فهو لم يعرف من مريم سوى جسد يشتهيه أي رجل .

كما أن إلهامي التفت إلى جملة "بنت التاسعة عشر" وسأل مريم عن معناها إذ كان عمرها في ذلك الوقت ٢٢ عامًا، فأجابته بنفس الجملة التي كذبت أنا بها عليها حين سألتني السؤال نفسه: "لأنني أحببتك في التاسعة عشر"، ثم أضافت من عندها "هذا يوم مولدي".

إلهامي التفت إلى ملاحظة صغيرة كتلك لأنه يعرف أن القصيدة كانت له، بكل ما جاء فيها، كما كان يعرف أن مريم له، أما محسن فكان يعرف أن القصيدة كتبت من أجل رجل آخر، وهذا لا يهمه، كل ما كان

يهمه تلك الرغبة التي تشير الكلمات إلى امتلاك جسد مريم لها إضافة إلى مؤخرة تسع متعته.

قالت لي مريم: إذا أردت معرفة رجل حقــاً، فاستدرجيه إلى أقرب فراش، حينها يمكنك الكشف عما يخفيه أسفل ثياب وقاره.

كان عليها الرحيل من البداية ، منذ أن اقترب منها في المصعد ليقبلها، كانت تلك اللحظة المناسبة لتكتشف أنه رجل عادى، ليس وقورًا وسيمتنع عنها لأن مبادئه على الشاشة لا تتجزأ عما يتبعه من مبادئ في حياته الشخصية كما ظنت، أو أنه سيمتنع عنها لأن عشرين عامًا تقف حائلاً بينهما، أو أنه سيمتنع عنها لأنها تريد ذلك وتنتظره منه حتى يذكرها بتمنع إلهامي عنها أحيانــا.

كثير من النساء يقنعن أنفسهن بإمكانية نسيان هزيمتهن على يد رجل أحببنه بالدخول في علاقة جديدة مع غيره، ولكنهن ما إن يبدأن في تلك العلاقة حتى يكون أول شيء يفعلنه أن يبحثن في الرجل الجديد عن الأشياء التي تذكرهن بحبيبهن، وأن ينتظرن منه أن يتكلم عن الأشياء نفسها ويقوم بنفس الحركات ويتنفس بنفس الطريقة التي كان يتنفس بها حبيبهن السابق، فإذا بهن يدخلن في علاقة جديدة لا من أجل نسيان ماضٍ ولكن لإنعاش هذا الماضي في جسد جديد.

أن تكتشف أنك تسير في الطريق الخطأ فإن هذا لا يعني أنك ستعيد تصحيح طريقك، فبعض الناس يفضلون إكمال الطريق- مهما كان توصيفه- عن الرجوع إلى نقطة البداية والتردد بين طرق أخرى عليهم اختيارها، ومريم كانت تخشى الرجوع إلى البداية، لذلك تغاضت عن شعورها بأن ما جمعها بهذا الرجل داخل المصعد لن يختلف عما سيجمعهما داخل شقته.

لا أتذكر طعم القبلة، لكني أعرف أن شفتي رجل غريب تلمس شفتيّ، تستلزم عمرًا من الصمت .

- *لم تذكري لي من قبل أن أحدًا قام بتقبيلك.*

- لأنني لا أحب تلك الذكرى، كما أنها كانت مَرةً واحدة فقط في حياتي.

- *ماذا كان اتفاقنا منذ البداية؟*

- أعرف أن الشرط الأول في العلاج أن أقول كل شيء يخطر ببالي حتى ولو كان ذلك أليمًا بالنسبة إليّ، أو بدا لي عديم الأهمية أو عديم المعنى، أو عديم الصلة بالموضوع، لكني سأكمل قصة مريم الآن.

"احتضني" كسرت مريم الصمت الذي أعقب القبلة أسرع مما يجب، ظنت أنها بذلك يمكنها احتواء الموقف، بينما تأكد هو أن شعوره ناحيتها كان صحيحًا، وأنها راغبة في الجنس وتخفي رغباتها في أحضانه حتى لا تتعرى دفعة واحدة.

"حاولت أن أجد بين أحضانه شيئًا من إلهامي، وحين لم أجد ذكّرت نفسي بأنني جئت لأنسى معه رجلا آخر، لا لأبحث عن ذلك الآخر بداخله" قالت مريم مُحاولة منع دموعها.

الخادم كان موجودًا حين دخلا إلى الشقة، كما أخبرها محسن، كانت واثقة أنها ستجده لأنه لم يكن في حاجة إلى الكذب لاستدراجها إلى فراشه، الرجل يكذب فقط حين يريد شيئًا يصعب نيله، أما مع مريم فلم يكن في حاجة إلى الكذب، فامرأة تعري نفسها في كلمات هي من وجهة نظر رجل شرقي أقدر على التعري في فراشه خصوصًا بعد أن يقبلها فلا تبدي اعتراضًا سوى في إبدال القبلة بحضن.

اثنان وعشرون عامًا هي عمري، ولكن ست سنوات فقط هي عمر خبرتي بالرجال، منذ أن بدأت في التعامل معهم مباشرة في أثناء سنوات الجامعة، رغم أنها ست سنوات لا أكثر، إلا أنني اكتشفت أن الرجل الشرقي لا يختلف كثيرًا إذا كان مثقفًا عن جاهلٍ حين يتعامل مع

المرأة، لا يفرق بين امرأة تتعامل مع الرغبة عبر الكلمات، وامرأة تتقاضى الأموال عبر الرغبة.

لم تلتفت مريم إلى وجودها معه داخل شقته وحدها بعد رحيل الخادم، إلا حين جلس محسن بجوارها على الكنبة، ورفعها فوق فخذيه، محركًا مؤخرتها كما تشاء له متعته، حين شعرت أن الثياب التي يرتديها كل منهما لا يمكنها الفصل بينهما كما ظنت، خصوصًا بعد أن أحست بذلك الجزء الحاد من جسده يكاد يشطرها إلى نصفين بعد قطع سروالها، حينها بدأت تدرك بعضًا من الموقف، أنها فوق جسد رجل لا تحبه وربما تكون في طريقها إلى فض بكارتها.

"أيمكنك أن تحبني؟"

سألته مريم وهي تعرف أن الإجابة إذا كانت بنعم ستكون حتمًا كاذبة، لأنها وإن كانت تعرفه منذ سنوات بسبب عموده الأسبوعي في إحدى الجرائد وفي برنامجه التليفزيوني الذي أصبح شهيرًا أخيرًا، فإنه في النهاية لم يعرفها سوى من ساعات قليلة، ولكن مريم رغم ذلك أرادت أن يجيب بـــ "نعم" لتمنح نفسها مبررًا يسهل وجودها فوق جسد هذا الرجل.

كانت إجابته أذكى من سؤالها: الحب له ألف معنى، فجملة I love you، تختلف كثيراً عن I'm in love with you ... .

هكذا يمكننا الهروب دائمًا من سؤال لا يعجبنا بلغة تحمل الكثير من المعاني، حتى اللغات يمكن أن تجعل للكذب معنى آخر، وتمنحنا- ببضع كلمات- ممرات آمنة للهروب من مأزق يقف أمام رغباتنا.

"لا تقتربي من رجل لا يتوقف لسانه عن ذكر المصطلحات الكبيرة لأن أمور الحب الصغيرة لن تعنيه" قالت مريم بعد أن توقفت عند تلك النقطة من الحكي لترتشف بعضًا من القهوة بعد خيبتها.

أتعرف كم هو مهينـــًا أن يسأل أحد شخصًا ما إن كان يحبه، وهو يعرف أن هذا مستحيل، ذلك لأن الحب لا يُطلب، الحب الحقيقي يأتي بدون طلب، بدون استجداء، وبدون مبررات أيضًا، لذلك حينٍ يطلب أحد ذلك فإنه لا يطلب الحب، إنما هو في الحقيقة يعذب نفسه بذل الاستجداء، عقابًا لها أنها أوصلته إلى تلك المرحلة من الضعف.

كانت مريم ضعيفة إلى الحد الذي طلبت فيه من "محسن" أن يحبها. وحين راوغها في الإجابة، ولم تجد مبررًا يستر عجزها عن الاعتراف بالسبب الحقيقي لوجودها معه، قدمت العرض الثاني.

" هل يمكن أن أكون لبؤتك؟"

هذا هو العرض الثاني، عرضته مريم بفجاجة امرأة يمثل لها الجنس في الحياة كما يمثل الطعام واجبًا للعيش، لم يكن العرض الأول مغريًا له ولكن هذا الأخير أراحه فابتسم وقبِل العرض.

" هل ستتحملين أن تصبحي لبؤتي؟"

طالما فتحت الباب بيدك، فلا تتذمر من شدة الرياح، وطالما قَبلتْ مريم أن تقدم عرضًا كهذا، فعليها تحمل ما سيجلبه عليها، وهي فهمت ذلك من إجابته، فهمت اللعبة.

"لا يمكن لشخص يحترف الكلام في السياسة ويحترف فن المراوغة أن يقبل أن يراوغه أحد، وأنا راوغته في مسألة طلب الحب منه، وبعدها شعرت بسذاجتي فاعتذرت بتقديمي العرض الأكثر قابلية للتصديق، أن أكون عاهرة واعترافي بذلك أمامه يجعلني صادقة أكثر في نظره لأنه يراني كذلك، وأنا أرى نفسي كذلك بعد أن تركني إلهامي، فلأكن العاهرة التي صنعها إلهامي لرجل غيره.

لماذا يصنع رجل من حبيبته عاهرة ثم يتركها ليستمتع بها غيره من الرجال!، سؤال لم أجد إجابة عنه، إذن فلأكمل الطريق حتى نهايته ولأكن تلك العاهرة، وإذا لم يكن لي سبيل لنسيان إلهامي من خلال حب

آخر، فليكن سبيلي إلى ذلك أن ألوث جسدي بآثار رجل غيره، أن أصل بجسدي إلى قمة الذل والمهانة، لأنه منح نفسه لرجل لم يف له، ألم يكن هذا الجسد مشتهاه الذي امتلكه دون أن يملكه، إذن لألوث أَحد ممتلكاته" هكذا فكرت مريم في داخلها.

ولكنها أيضًا لم تكن كل الحقيقة، تلك التي ذكرتها لي، كنت واثقة أنها تكمل الطريق لأنها ظنت أنه يمكنها أن تفعل ذلك وهي تتخيل أن إلهامي هو الذي يفعل بها ذلك وليس محسن، وأنه يمكنها أن تغمض عينيها وتسرح للحظات في أنها تمارس هذا مع من تمنت ولم يحقق لها رغبتها.

اعترفت بذلك بقولها: "لا يمكن أن تستبدلي بآثار رجل عشقتِ جسده إلى حد التماهي به بدون تلامس حقيقي، بآثار رجل لم تحبيه، لأنَ وشم العشق الروحي لا يمكن أن تزيله نار الشهوة".

***

مشكلة مريم لم تكن في تخلي محسن عن وقاره أمامها، ولم تكن مشكلتها مع الحلال والحرام والعيب لأنها تخطتها منذ فترة طويلة، ولكن مشكلتها كانت في طريقة ممارسة الأمر.

"المشكلة ليست في فعل الجنس، المشكلة في طريقة ممارسته، أن يمارس رجل مع امرأة – ليست زوجِته– الجنس فهذا أمر غير مهين في حد ذاته، إلا إذا سلبها حقها في أن تُعامل بُرقي، وتَعامَل معها كأنها من ضمن أملاكه بدون أن يمنحها فرصة اختيار الطريقة التي يحدث بها ذلك وكأنها عاهرة، أتعرفين أن الزوجة نفسها ستحس بنفس الأمر وستشعر بأنها رخيصة إذا فعل معها زوجها هذا دون أن تشعر برضاء، لماذا لا يسأل الرجل المرأة عن الوضع الذي تحبه، هل لأن العرف جرى على أن تستسلم المرأة للرجل حتى وإن خلع جزءًا من سروالها، ووضع كريمًا على مؤخرتها تمهيدا لاختراقها؟"

اعترضت مريم حينها بمجرد أن شعرت بأصابعه تدهن الكريم.

" هذا أمر ممتع"... قال محسن.

- هذا شيء مقرف.

- ستعتادينه.

- لا أريد أن أعتادَ أمرًا كهذا.

نظرت له لترجوه بألا يفعل، فوجدت في عينيه شيئًا جامدًا لن يلين، يأمرها أن تنفذ كلامه.

"كم شعرت بخوف وقتها، شعرت أنني عاهرة تقاضت مقدمًا أجرها، وأن عليها الآن أن تستجيب لرغبة من دَفَـعَ، كان يمكنني أن أذكرّ نفسي بأنني لست كذلك، وأنه مجرد مشهد ألعب فيه هذا الدور من أجل النسيان، كان يمكنني أن أصفعه وأقول له "من تظن نفسك؟!" وكان يمكنني أيضًا أن أرتدي ثيابي وأخبره أن اللعبة انتهت عند ذلك الحد، ولكني استسلمت له بتعب، استسلمت بهزيمة، شعرت وقتها أنني أريد الانتقام".

رغبت مريم الانتقام من كل شيء، من إلهامي الذي تركها بعد أن علمها كيف تكون عاهرته المخلصة له، ومن هذا الرجل الذي يتعامل معها بسادية دون أن يسألها إذا كانت ستتقبلها منه أم لا. ورغم أنها كانت خائفة لأن سادية إلهامي كانت تتوقف عند حدود الإهانة اللفظية ولم تتجاوزها إلى حدود الإهانة البدنية التي شعرت أن "محسن" من الممكن أن يفعلها بها، إلا أنها تابعت الأمر ولم تبال، ولأنها أضعف من أن تنتقم من الآخرين، شعرت وقتها أنها تريد الانتقام من نفسها لأنها أوصلتها لتلك المرحلة "كرهت نفسي وقتها وأردت أن أذلها أكثر فتركته يذلني كما يشاء".

أن تسعى نحو الانتقام فهذا يعني أنك صرت ضعيفًا لدرجة أنك لا تملك وسيلة أخرى لتطفئ بها النار التي تشتعل بداخلك بسبب شعورك

أنك ظلمت، وأن توجه شعورك بالانتقام إلى نفسك بدلا من الشخص الذي ظلمك فهذا يعني أنك وصلت لأدنى مراحل الضعف والذل.

***

رضخت مريم لأمره، أعطت وجهها للحائط وظهرها له، بعد أن خلعت نصف ملابسها، ليس فقط لأن الرغبة تشتعل أكثر بنصف ثياب ونصف عرى، ولكن لأنها كانت تشعر بخجل أن يرى محسن شعر عانتها. تعجبت حين أخبرتني بذلك، لم أتعجب لأنها خجلت من هذا ولم تخجل من خلع ثيابها أمامه، لكني تعجبت لأنها أخبرتني من قبل أنها أرسلت إلى إلهامي صورة لها وهي عارية بعد أن أصرّ على ذلك، ولم تكن أزالت شعر إبطها وعانتها.

قالت لي: "نحن لا نخجل إذا ما رأى حبيبنا شعرًا لم يزل بجسدنا، بقدر ما نخجل من هؤلاء الذين لا نبادلهم ولا يبادلوننا أي حب.. فنتعرى أمامهم ونظن أنهم ربما يذكرون هذا أمام أخريات كنوع من التسلية".

بدأ الأمر، اكتشفت أن تلك الطريقة هي الأفضل لأنها لن تضطر إلى أن تنظر إليه، ستكتفي بالنظر إلى الحائط والاستمتاع اللحظي باللذة، تركت جسدها يشعر بما يريد، وأغمضت عينيها لعل النوم يأخذ روحها بعيدًا عن هذا المشهد، أوهمت نفسها أنها داخل حلم، استراحت لهذا الشعور، واسترخت تمامًا، ولكن بعد لحظات استفاقت على صرخة جاءت من أعماقها، يبدو أنه كان يدخل عضوه تدريجيا بداخلها، وحين فقد الإثارة أراد استعادتها بإدخاله دفعة واحدة، ففتح جزءًا فيها.

صرخت مريم، وشعرت أن الحلم تحول فجأة إلى كابوس، ابتعدت عنه فلم يضمها ليعتذر عما سببه لها من إيلام جسدي ولكنه اكتفي بتحذيرها بألا تقترب أكثر من حافة الفراش حتى لا تقع، لأنه كان هناك مسافة بين الفراش والحائط، لم تركز في كلماته، فقط وضعت أصابعها مكان الألم لتعرف هل نتج عن هذا نزول دم أم لا.

لم تجد أثرًا لدم، زال خوفها ولكن لم يزل الألم، قربها محسن مرة أخرى، فأرادت أن يضمها إليه لتبكي بين أحضانه وتخبره بأنها ليست عاهرة وأنها لا تعرف ما الذي جعلها تتحمل كل تلك المذلة، ربما يشعر بمدى ألمها ويضمها بحنان ويعتذر لها عن سوء ظنه بها، خصوصًا بعد أن اكتشف أن عضوه لم يدخل بسهولة فيها، وأنه أول من سبب لها كل هذا الألم.

"There is a slide hair between pain and pleasure"

هناك شعرة بين الألم واللذة، تلك الجملة التي قالها محسن، هي جملة اعتاد الساديون قولها، ولما كان الساديون أشخاصًا يتلذذون بتعذيب الآخرين، وكانت مريم ــ على العكس ــ مازوشية تتلذذ بتعذيب نفسها، فقد أكمل الاثنان الأمر.

أتلك هي اللعنة التي قصدها علاء الديب بقوله "لعنة الجنس الرديء، الجنس الذي يتحول إلى صراع أبكم وينتهي بإرهاق الجسد وفراغ الروح".

ساعات مرت قبل أن تشعر مريم أن الوقت قد تأخر.

"الأذان يؤذن فلنتوقف". طلبت مريم برجاء...

أبتسم " محسن" ووضع بينه وبينها وسادة: " فلنجعلها محرمًا بيننا" قالها في سخرية ،

شعرت مريم بالإهانة "لماذا يضعنا الآخرون في قالب واحد دائمًا؟!"

– "لا تنسي أنك أيضًا وضعتِه في قالب واحد، حين نظرتِ إليه على أنه إنسان لا يخطئ لمجرد دفاعه الدائم عن حقوق الآخرين، لو كنت فكرت للحظة أن هذا الرجل يمكن أن يظهر نصفه الآخر معك فوق الفراش لانصرفتِ مبكرًا جدًّا، ولكنها أحادية النظرة" أجبتها...

****

انتهى الأذان، أخبرته مريم أن عليها الرحيل، لم يمانع، ارتدي كل منهما ملابسه، عرض عليها أن يأكلا شيئًا سويا، وافقت لتجلس معه بعض الوقت ، ظنت أنها بذلك يمكن أن تستعيد من جديد ـــ بعيدًا عن الفراش ـــ شخصيته التي يظهر بها على الشاشة ..

"رز بلبن أم مهلبية؟"

"رز بلبن" أجابته مريم، ثم خرجا معًا من المطبخ، ليجلسا في الصالة، ظلت مريم واقفة، طلب منها أن تجلس وتأكل فطلبت منه أن يأخذها على حجره ويطعمها بيده، ظلت واقفة تنتظر منه جوابًا، ولكنه أجابها بضحكة ساخرة " أكمل طعامي أولا، فكيف أطعمك وأنا آكل"، ابتسمت لتمنع دموعها من النزول.

ليس هناك من ألم أكثر من أن يكون الابتسام وسيلة لإخفاء البكاء، ولا أصعب من تنكر الدموع في زي ابتسامة حتى لا يتم فضحها في حضرة من آلمونا.

"لا أريد أن آكل شيئًا،علي الرحيل" قالت محاولة الاحتفاظ بدموعها بداخلها.

ربما نبهته جملتها ونبرة صوتها إلى أنه أخطأ، فترك ما في يده مضطرًا، والابتسامة لا تفارقه وأشار إليها أن تأتي لينفذ طلبها، شعرت من ضحكته أنه يقول لها:" تعالي لأنفذ لك هذا الأمر التافه الذي تطلبينه".

"يا الله، ألم يكن بإمكانه أن يأتي إليّ ويحملني ليشعرني بعد كل تلك الإهانات أن لي قيمة، حتى وإن كنت عاهرة ولا أستحق الاحترام من وجهة نظره، ألا يمكن أن يحترم آدميتي كما يزعم في كل مقالاته أن الآدمية والإنسانية هي الوسيلة الوحيدة التي يجب أن يعامل بها بعضنا بعضًا، كان يمكنه أن يفعل لي ما أريد ليمنحني أملاً بأنني لست عاهرة".

- ولكنك أردتِ أن تكوني كذلك.

- أن أكون كذلك فوق الفراش شيء، وأن أكون كذلك بعيدًا عن الفراش شيء آخر، لم يكن من الممكن بعد أن فرغنا من الفراش أن يتعامل بنفس الطريقة التي كان يتعامل بها فوقه، أنا فقط أردت أن أكون عاهرة فوق الفراش لأطفئ في جسده الماضي وأنسى جسد إلهامي، لكني بعدها أردته أن يشعرني بأنني طفلة حتى أتطهر من هذا الشعور المدمر.

- لم يكن من السهل على رجل عرفك خلال ساعات قليلة أن يتفهم كل تلك الأمور.

- كنت أظن أن تجاربه قد علمته أن النساء بعد المضاجعة يكنّ في أضعف حالاتهن، وأن طلبي هذا لا يتعلق بكوني عاجزة عن الأكل بمفردي، ولكنه شعور بالضعف، تلك أمور يفهمها أي رجل خصوصًا من عاش تجارب مثله.

* * *

غادرت مريم بعد ذلك، وسارت قليلا في شوارع الزمالك المظلمة قبل أن تصل إلى الشارع الرئيسي حيث ركنت سيارتها في الصباح لتذهب إلى عملها مع الصحفي وتلتقط صورًا لــ" محسن"، ظلام الشوارع الجانبية أصابها بكآبة، ذكرها أنها كانت أحسن حالاً في الصباح، وأنها منذ الصباح حتى مجيء الليل فقدت الكثير من روحها التي لن تعود يومًا كما كانت في الصباح.

أيمكن أن تُحدث بنا ساعات قليلة كل هذا الألم! ظلت مريم تسير في الظلام وكل الأفكار السيئة والأسئلة تدور في عقلها، هل يمكن أن يوصلها هذا الشعور إلى اليأس والذل والمهانة لأن تتحول إلى عاهرة فعلا!، هل العاهرة هي المرأة التي تتقاضى أجرًا مقابل جسدها أم هي أيضًا المرأة التي لديها الحرية الكاملة أن ترفض وتقول لا، ولكنها رغم ذلك تقبل أن يترك رجل لا تحبه على جسدها آثار رجولته؟

هل العهر يبدأ حين تفتح المرأة ساقيها لمن يدفع لها؟!، أم يبدأ حين تشعر المرأة بأنها رخيصة جدًّا إلى درجة أنها ليس من حقها أن ترفض أي رجل، ظلت تلك الأفكار تراود ذهنها في الظلام حتى خلصت إلى نتيجة واحدة: "الجنس بدون حب لا شيء، الجنس بدون حب خطيئة"... قالت مريم لنفسها، تزامن هذا مع وصولها لسيارتها، فتحت الباب وأغلقته بشدة، ثم أدارت السيارة وقادتها بسرعة وكأنها أرادت أن تهرب من هذا المكان.

حين وصلت إلى منزلها، رغبت في الاستحمام لتردم خطيئتها بالتطهر حتى ولو كان تطهرًا كاذبًا، ولكنها حين خلعت ثيابها، فزعت لأنها وجدت بقعة دم على ملابسها الداخلية، وضعت أصابعها على مكان الألم لتتأكد أنه مصدر الدم، وحين تأكدت ظلت حائرة بين سؤالين "كيف يمكن أن توقف هذا الدم، وماذا لو لم يتوقف؟" فكرت أن عليها أن تخبره بذلك لأنه هو الوحيد القادرِ على إجابتها عن أمر كهذا، لأنه ما من أحد غيره يمكن أن تسأله سؤالاً سخيفـــا وفاضحًا كهذا.

كتبت له رسالة تسأله فيها عن كيفية إيقاف الدم، ترددت كثيرًا قبل أن ترسلها، لم تكن تنتظر منه مجرد إجابة على سؤالها، كانت تريد منه أن يتصل بها ليشعرها أنه خائف عليها، وأنه شعر بالذنب لأنه عذبها بتلك الطريقة ولكنه اكتفي برسالة أخبرها فيها بأن عليها ارتداء ملابس قطنية، عند هذه الجملة بدأت وانتهت رسالته، ولكنها إجابة غير مكتملة، يمكن إكمال النقاط الفارغة فيها بـــ "ارتدي ملابس قطنية، ولا تزعجيني مرة أخرى" ، أو "ارتدي ملابس قطنية ويكفيك ما أضعتِ من وقتي"، أو " ارتدي ......، ولا تشغليني بتلك الأمور التافهةً".

"لا يمكن أن أصف شعوري وقتها، كان يوما حافلاً بالمذلة، ولكن كانت رسالته تلك، القشة التي قصمت ظهر البعير، وأحدثت شرخًا لن يستطيع أحد إصلاحه في كرامتي، تأكدت من أنه ينظر إليّ كعاهرة ليس

لها أي حق، وإذا أصابها مكروه لا يمكنها الشكوى، لأن أحدًا لن يهتم لأمرها، الشعور بالعهر يشبه شعور الرجل بكونه لا يستطيع أن يكون رجلاً، لو يعرف الرجال ذلك، لما فكر أي رجل في أن يضع امرأة ما في مكانة العاهرات لمجرد أنها أحبته، أو لمجرد أنها أحبت رجلاً آخر، ولمح في عينيها رغبة في نسيان هذا الآخر وفسرها على أنها رغبة مجردة".

إلى هذا الحد انتهت حكاية مريم،تلك هي تفاصيل القصة، ولكني متعبة جدًا، أريد أن أنام فقط، لا أريد أن أسمع تحليلات منك، فلا شيء يحتاج التحليل اليوم، كل ما أريده أن أنام، فقط أنا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!.................

الفصل الثاني

منذ أن استيقظت وأنا أشعر بحنين نحو الماضي لا أستطيع مقاومته، أشم رائحة الذكريات مع الهواء الذي أتنفسه، ربما يرجع ذلك إلى استيقاظي المبكر على غير العادة، تخيل أنني منذ فترة طويلة لم أستيقظ في الفجر، رغم أن ذلك هو الوقت الذي كنت أفعل فيه كل شيء فيما مضى، ربما لهذا أشعر بحنين يدعوني للبكاء، هواء الفجر معبأ بالذكريات ومختلط برائحة الماضي الذي لن يعود.

كل فترة في حياتنا لها رائحة تميزها في ذاكرتنا، ولكننا في نهاية حياتنا تختلط علينا الروائح فلا نتذكر مع نسمة هواء الصباح، أي نسمة تلك، وأي عمر هو، فتصبح نسمة الهواء كتلة لذكري واحدة، ذكرى العمر الذي تركناه خلفنا، أتساءل هل هذا صحيح، أم يختلف الأمر عند كبار السن!!!

حقـــًا لا أعرف، فحين أكون نائمة إلى جوار جدتي وأستيقظ بالصدفة على صوت سعالها ووقع شبشبها على أرضية السيراميك حين تستيقظ في منتصف نومها لتذهب إلى الحمام، أكون أنا حينها نصف نائمة ونصف مستيقظة، أحاول أن أتقمص دورها، أقول لنفسي إنها تتلكأ في الذهاب لكثرة النسمات التي تختلط عليها في الطريق وتحاول تفسير كل نسمة منها، هل هي نسمة المدرسة؟ وإن كانت، فهل هي حضانة أم ابتدائي أم إعدادي، أم ثانوي، أم جامعة؟ جدتي لم تدخل الجامعة، إذن هناك مرحلة فارغة لن تصادفها في طريقها نسمة لها.

ولكن سيتم استبدالها بنسمات أخرى تتعلق بمرحلة الزواج والأطفال والأحفاد، أتعب كثيرًا حين أضع نفسي مكانها وأحاول تخيل رائحة ذكرياتها، أكاد أختنق وأنا أتنهد تنهيدة ذكرياتها التي وضعت نفسي فيها، أتمنى بيني وبين نفسي أن تنهي حمّامها بسرعة وتعود للنوم، ولكنها

حين تعود وتضع رأسها على المخدة وتنام بجواري في خلال دقائق قليلة، لا أشعر أن أية نسمة قد صادفتها، أشعر أن كل أفكاري مجرد تخيلات من صنعي، فأسأل نفسي هل يرحمنا الله في نهاية أعمارنا من التفكير في ذكرياتنا، لأننا لن نكون وقتها أقوياء بما يكفي لنتحمل شدة الهواء المعبأ بالذكريات، حينها أنظر إلى جدتي فأجد في شخيرها جوابًا.

"يا الله حين تأتيك الذكريات لا تملك حتى اختيار تجنبها، فهي كقطار سريع، إما أن يدهسك وتموت مكلومًا أسفل عجلات الماضي أو يكرمك الله وتبتعد قليلا لتقف بحيادية تستقبل مرغمًا قوة هوائه".

- *لماذا كل هذه الذكريات؟ .*

- أخبرتك أن هواء الفجر يأتيني دائمًا مغبأ بالذكريات.

- *ليس هواء الفجر وحده، ولكنها الليلة السابقة، ما الذي حدث بالأمس وأيقظك مبكرًا لتتنفسي الذكريات؟*

أتعرف أنك على حق، أتذكر"هاجر" تلك الفتاة التي كانت صديقتي في مرحلة الإعدادية، وتركتها لأنها أحبت سائق ميكروباص؟

قابلتها بالأمس، تغيرت كثيرًا، ارتدت الإسدال الأسود، تخرجت مثلي منذ عام، ولكن في كلية التربية، تعمل اليوم معلمة لغة إنجليزية في إحدى المدارس الابتدائية، حين مررت بجوارها ولمحتها كدت أكمل طريقي في البداية لأنني لم أكن متأكدة من كونها هي فعلا، ولكني توقفت حين سمعت اسمي.

"نورا" هذا اسمي والصوت الذي ينطقه ليس غريبًا عليّ، حينها عرفت أن هذا الجسد الملفح بالسواد هو ذاته الذي كنت ألمسه حين كنا نلعب معًا لعبة الاستغماية في فناء المدرسة، توقفت، كدت أبكي من الفرحة والحنين والدهشة، وصلت لمرحلة من اليأس تجعلني أسعى نحو أي شيء من الماضي ليساعدني على الصبر وليذكرني بأن كل شيء حتمًا سيمر، ولا شيء يبقي ثابتـــا على حاله.

هي كانت بالنسبة إليّ ماضيًا بعيدًا، تبادلنا العناق والسلام واستعرضنا آخر أحوالنا، وفي أقل من عشرة دقائق انتهى كل شيء، نفد الكلام منا، لم نجد ما نقوله سوى إعادة السلام والعناق مرة أخرى.

دمعت عيناي بعد أن تركتها، وأخذت أسأل نفسي، هل تلك حقـًا هي الفتاة التي لازمتني لسنوات قبل أن أتركها لأنها كانت على علاقة بسائق ميكروباص، وكنت ساذجة وقتها لدرجة أنني لم أحتمل أن يمر غيري بتجارب لا أجرؤ على المرور بها ،هل هي فعلا صديقتي المقربة التي بكيت على فراقها يومًا بعد أن اتهمتها بأنها تفضل علاقتها بسائق الميكروباص على علاقتنا؟ لماذا إذن حين تقابلنا لم تجد أي منا ما تقوله للأخرى؟! .

حينها فقط اكتشفت الأمر، إننا لا نبكي حين نودع شخصًا نحبه من أجل صعوبة فراقه فحسب، إنما نبكي أيضًا خشية الصدفة التي ربما يهديها لنا القدر بعد سنوات الفراق عبر لقاء عابر يجمعنا به في الطريق، لنقف نحن الاثنين بعد دقائق قليلة من العناق والسلام عاجزين عن إيجاد مجالاً يجمعنا للتحدث فيه.

يفكر كل منا أثناء صمتنا عما يجب أن يقوله للآخر، بينما هذا الآخر لم يعد يعرف عن حياتنا شيئًا بعد أن توقف الكلام بيننا عند آخر محطة للفراق، لهذا نكتفي بعبارات السلام التي نخفي خلفها عمرًا ذهب ولم تتغير فيه ملامحنا فقط، بل تغير فيه كل شيء فينا.

كان حلم "هاجر" ونحن في المدرسة أن تلتحق بكلية الألسن وتدرس الإنجليزية والألمانية، وتعمل مرشدة سياحية بعد أن تتخلص من سيطرة والدتها عليها وتخلع الحجاب.

ماذا صارت "هاجر"؟

التحقت بكلية التربية ونالت تعليمًا لا يؤهلها إلا لأن تكون مدرسة ابتدائي، واستبدلت بحجابها، الذي كان، الإسدال. فلا شيء أسوأ من أن

يراك أحد من الماضي بعد سنوات طويلة على نفس الحال التي تركك عليها، من أن تكون تغيرت للأسوأ.

لننتقل إليّ، ماذا كان حلمي؟؟؟؟؟

لم تكن نورا تحلم بشيء محدد وهي صغيرة، كانت ترغب فقط في أن تكون امرأة مهمة، تسافر وتذهب وتجيء بدون أن يقول لها أحدهم لاااااااا، قلنا لاااااا، كرهت تلك الكلمة لكثرة ما ترددت على مسامعها.

أرادت أن تخرج من تلك الكلمة وغيرها من الكلمات التي تضعها داخل شكل معين (رتبي لي حجرتي يا نورا) يقول أخوها.

"ولماذا لا ترتبها أنت؟"

– لأني أذاكر، كما أن النساء أكثر قدرة على الأعمال المنزلية من الرجال، تلك دراسة علمية.

– أنا أيضًا أذاكر، ومن قال تلك الدراسة هو رجل فاشي بالتأكيد .

– لماذا تريدين دائمًا أن تخالفي ما هو معتاد، أنتِ في النهاية امرأة وستفعلين هذا شئت أم أبيت، إن لم تفعليه الآن ستفعلينه حين تتزوجين، فمهما فعلت ستكون نهايتك الزواج والبيت، أما نحن...

تسد أذنيها عن كلماته، وتركز في مذاكرتها حتى تثبت له، أنها مثلها مثله، ولن يعطلها عن مذاكرتها ترتيب حجرة أو حتى الطبخ، وتقنع نفسها بأن هذا هراء، وأن النساء حتمًا لم يخلقن لذلك. ولكن لأي شيء خلقت هي؟

بدأت تكتب الشعر منذ الثانوية العامة، وكانت تعرض شعرها على أساتذة اللغة العربية ويعجبون بها، قالوا لها إنها موهوبة، فقررت أن تذاكر وتدخل كلية الإعلام حتى تعمل بالصحافة، ظنت أن الصحافة ستساعدها على أن تكون شاعرة، كما ظنت أنها ستكون حرة ومستقلة حينها وبإمكانها أن تتحرر من الحجاب، تلك النقطة السوداء التي تسبب غباءها وتسرعها في اتخاذ قرار ارتدائه.

كانت متأثرة بنزار قباني جدًّا، ومن شدة تأثرها كتبت شعرًا يشبه شعره حتى أنهم أطلقوا عليها "نورا قباني"، تعلمت من نزار أن تكتب ما تريد بدون خجل، وإذا كانت تخفي رغباتها فيما سبق لأنها كانت في الثانوية العامة تعتقد أن هذا عيب، وتمثل دور البريئة، لم يصبح عليها أن تفعل ذلك بعد أن قرأت وعرفت أن هناك عالمًا آخر كبيرًا يحترم الشعراء.

كانت في تلك الفترة جريئة جدًّا، بل كانت أجرأ فترة في حياتها، كانت تكتب وتظهر للناس ما تكتبه، قبل أن تعرف بعد ذلك أن الشباب يقولون وراءها كلامًا سيئًا عما تكتبه ويسخرون منها. حزنت جدًّا لتلك الحقيقة واصطدمت بالواقع، ماذا تفعل بعد أن اكتشفت أن الشباب الذين مثّلوا أمامها أنهم مثقفون ويحترمون المرأة التي تكتب ما تشاء، هم أنفسهم الذين يقولون عنها في غيابها كلامًا لا تتحمله.

بكت كثيرًا وأصرت على أنها لن تريهم شيئًا آخر، وستكتب ما تشاء، حتى ولو كان الأمر يكمن في داخله جزء من عند، فهي تعتبر هؤلاء الرجال مثل أخيها ومثل أي رجل شرقي، هي لن تهتم بهم، ستكتب وستنشر ما تكتبه حتى ولو كان تحت اسم مستعار، ستكتب الشعر والقصة والرواية... ستكتب ولو كان في ذلك حتفها.

جاءتها الفرصة لتتدرب في إحدى الجرائد اليومية ظنت أنها فرصة جيدة لتظهر مواهبها، ولكنها اكتشفت أن الصحافة شيء والأدب شيء آخر، فالصحافة تحتاج إلى وعي كامل بكل شيء يحدث، بينما الأدب يحتاج إلى انعزال تام وصفاء ذهن لا يوفره العمل الصحفي.

أخذت قرارًا بترك الصحافة خصوصًا بعد أن صدمها إلهامي بما قاله، أوَ لم يكن إلهامي يشجع مريم على ما كانت ترسمه وشجعها على ما كانت تكتبه، أو ــ بمعنى أدق ــ شجع نورا على المضي فيما كانت تكتبه، واتهم المجتمع الذي لا يعرف الفن بأنه مجتمع جاهل، ثم ...

- ثم ماذا؟

ثم جاء في لحظة ما وعاد إلى أصوله رغم أنه كان رئيس قسم الثقافة في الجريدة التي كانت نورا ومريم تعملان فيها سويا، أليست الثقافة هي محررة الشعوب من معتقداتهم التي يسلّمون بها ليس عن إيمان ولكن عن تقاليد!، ألم يقل إلهامي هذا كله لمريم ولكنه في النهاية لم يفعل سوى ما أملته عليه تقاليد المجتمع، وهكذا يفعل معظم الناس، لأن الثقافة في الغالب تبدو ثقافة مقيدة داخل كتاب ولا تتعدى إلا فيما ندر غلاف هذا الكتاب.

اكتشفت نورا هذا كله وأصيبت بخيبة أمل، هي لم تكن في هذا الوقت اكتشفت بعد أن إلهامي مثل هؤلاء الذين يقولون شيئًا ويفعلون عكسه، ولم يكن بعد قد أخبر مريم ذات مرة بأن ما ترسمه وتكتبه يمكن أن يدخلها النار، ولكنها اكتشفت ذلك فيما بعد.

في البداية كانت ساذجة، تتعرف إلى أي صحفي فتريه قصائدها معتبرة ذلك دفعة إلى الأمام، إلا أنها اكتشفت أنهم لا يختلفون كثيرًا عن مجتمع الكلية، تركت الصحافة بعد أن قررت أن تعيش حياتها من أجل تحقيق حلمًا واحدًا، أن تكون روائية بعد أن أخبرها كثير من الكتاب أن تركز في القصة والرواية لأنها موهوبة أكثر فيهما من الشعر.

وأخيراً كتبت رواية، كتبتها وأخذت تفكر في كيفية نشرها وهي لا تزال في التاسعة عشر من عمرها، لا تزال صغيرة ولا تزال محكومة بأهلها، وهي أيضًا لا تعرف من سينشرها لها، أخبرها أحد أصدقائها في الصحافة عن دار نشر متخصصة في نشر أعمال الشباب بدون مقابل.

جمعت أوراقها وحملتها إليها وتركتها، بعد أسبوعين كانت واقفة أمام الرجل الذي قرأ الرواية، أخبرها أنه لا يمكنه أن يتحمل مسئولية رواية كتلك لأن بها كثيرًا من الأمور من الصعب أن يتقبلها المجتمع من فتاة عمرها ١٩ عامًا.

- "سأكتبها باسم مستعار" أخبرت نورا الرجل في رجاء...

فأجابها بأن هذا الأمر لا يجدي، وأنه يريدها أن تنشر باسمها هي، لأنها موهوبة ولأنه "يستخسر" موهبتها تلك.

- لماذا تكتبين في الجنس؟ سألها الرجل فاكتفت نورا بالصمت ولم تعرف بما يجب أن تجيبه، أتجيبه بأن كل القصص التي روتها لها صديقاتها، والتي لم تجد نورا شيئًا مع نقص خبرتها في الحياة، أفضل من أن تكتب عنه، غير التي تدور حول الجنس، أم تقول له إن الجنس هو أكثر ممنوعاتها ولذلك فهو أكثر رغباتها فجرًا؟

- أنت موهوبة فعلاً، ولا أريد أن أكسر طموحك، اكتبي شيئًا يمكنني أن أنشره لكِ، وأعدك بأن أنشره في الحال، وحين تبلغين سن الرشد يمكنني أن أنشر لكِ تلك الرواية وتتحملين أنتِ المسئولية الكاملة عنها.

كلمات الرجل صدمتها، أخذت الرواية ووضعتها تحت فراشها، كحال كل كتاباتها وقررت أن تنشرها بعد أن تتم الحادي والعشرين باسم مستعار، وتكون حينها ذهبت إلى عمل يوفر لها أموالاً تنشر بها تلك الرواية ولا تنتظر دعم أحدهم أو تدخل آخر.

بعد أن تخرجت ذهبت لتعمل في إحدى شركات بحوث التسويق، في البداية وضعت لنفسها شرطًا، وهو أنها ستعمل من أجل الأموال ولكن يجب عليها أن تتوقف في لحظة لتعود إلى حلمها، لا يجب أن تستمر في جمع الأموال لفترة طويلة، كذبت على أهلها بشأن أنه عمل مؤقت من أجل الحصول على أموال لتجهيز نفسها كفتاة، لكنها لم تنس أن تذكر نفسها بالحقيقة طوال الوقت، أنها تجهد نفسها في هذا العمل الذي لا تحبه من أجل الحصول على أموال تمكنها من التفرغ يومًا للقراءة والكتابة، ويمكنها حينها أن تنشر أي رواية تكتبها في أي دور نشر تريدها.

أما عن الرواية التي كتبتها فقد صارت بالنسبة إليها تجربة طفولية، لأنها صارت تقرأ كثيرًا الآن، وتعلمت أن الأهم من الكتابة القراءة، ربما لذلك أقنعت نفسها بالعمل في تلك الشركة وقالت لنفسها أن العمل فيها سيمنحها الكثير من المميزات، ستشتري كتبًا كثيرة جدًا، وسيتبقى معها أموال تشعرها بالأمان، دخلت الشركة على هذا الأساس، لكن عجلة الرأسمالية أخذتها ودارت بها إلى أقصى حدٍّ.

الشركة التي ذهبت نورا للعمل فيها كانت متخصصة في إجراء بحوث التسويق، وهذا يعني أنه إذا قل توزيع أحد المنتجات في السوق، وأرادت الشركة المنتجة معرفة أسباب تراجع مبيعات هذا المنتج، فإنها تذهب إلي إحدى شركات بحوث التسويق كالتي تعمل فيها نورا، لتجري لها بحثـًا تسويقيا تعرف من خلاله لماذا قل توزيع هذا المنتج في السوق.

ومن أجل ذلك تقوم شركة بحوث التسويق بإحضار مجموعة من الناس سواء من مستخدمي هذا المنتج أو ممن تراجعوا عن استخدامه، أو الذين لا يستخدمونه من الأساس وتجري حوارًا معهم تقوم فيه مديرة الجلسة والتي تدير الحوار، بطرح أسئلة تخص المنتج وعن أسباب استخدامه أو التراجع عنه، أو عدم استخدامه من الأساس.

ويتم هذا كله في حجرة بها مسجل لتسجيل كلام الحضور، وعلى مساعد الجلسة أن يقوم من وقت لآخر لقلب الشريط، ثم يعود من جديد إلى المكتب الذي يجلس إليه ليكتب كل كلمة يقولها الحاضرون على قدر استطاعته وهذا كان عمل نورا، وذلك ليسهل على الذي يقوم بعملية تفريغ الشرائط مهمته.

بعد تفريغ الشرائط على أوراق، تذهب تلك الأوراق إلى مجموعة من الباحثين العاملين في الشركة للخروج بنتائج تفسر عدم إقبال المستخدمين على منتج ما، ثم يسلمون تلك النتائج للشركة المنتجة

فتستخدمها في تعديل حملتها الإعلانية الجديدة للتأثير على المستهلكين وتغيير نظرتهم تجاه المنتج ودفعهم مرة أخرى لشراء المنتج.

بعد أن عملت نورا في تلك الشركة، فهمت لماذا ذكرت إحدى الحملات الإعلانية لإحدى شركات مستحضرات التجميل، أن الكريم الخاص بها لا يتسبب في إحداث سرطانـًا، فهمت أن الشركة المنتجة لهذا الكريم قامت ببحث تسويقي، عرفت منه أن السيدات تراجعن عن استخدام هذا الكريم لأن الأطباء حذروهن من استخدامه لأنه يحوي إحدى المواد التي تسبب السرطان.

وهكذا أمكن لنورا أن تفهم الحياة الواقعية التي تحمل وجهين كهذين الوجهين اللذين تحملهما المنتجات أيضًا، وجه حقيقي يظهر داخل الغرف المغلقة ووجه آخر يظهر في الإعلانات ولكن بشكل مزيف أكثر أناقة.

تعلمت أن الحياة لا يمكن أن تكون تلك التي كانت تعيشها في أحلامها، وأن هناك حياة أخرى عليها أن تتعلم فن العيش فيها كل يوم. الحياة بوجهين، وعليها إذا أرادت ألا تصبح مثار سخرية لمن حولها، أن تكون هي الأخرى بوجهين، وجه يستقبل العمل بتحمل وصبر على صراخ المدير الدائم في وجهها لأنها حساسة جدًّا في عمل يتطلب منها أن تكون أكثر صلابة، ووجه آخر يبكي في الليل قبل النوم حيث ما من أحد يمكن أن يراه لأنه لا يريد أن يؤكد للمدير صدق حكمه على ضعفها.

تعلمت أن الصواب أن تخفي مشاعرها الحقيقية وليس أن تظهرها بسذاجة ظنـًا منها أن الآخرين سيحترمونها أكثر حين تبين بصراحة ما يجب أن تخفى، فهمت هذا كله ولبست ثوب العمل الجديد، ابتسامة بسيطة لإخفاء ما خلفها من دموع ينهكها الاحتفاظ بها أكثر من أي شيء،فهمت وقتها ماذا كان يقصد فرناندو بيسوا بقوله "عينان منهكتان

ببكاء لم تذرفاه"، إضافة إلى كلمات لطيفة تخفي ما يمكن أن يظهر من غضبها الكامن والذي تحاول كبته طوال الوقت.

وهكذا تمضي الحياة وتمضي نورا معها. وماذا عن الكتابة؟! لا شيء، كيف تتذكر الرواية بعد هذا العمل، فمن كثرة تعاملها مع المنتجات صارت تحمل صفاتها، يوما بعد يوم خمدت مشاعرها وأصبحت تفكر بطريقة مادية.

كانت بجوار عملها كمساعدة في الشركة، تعمل على تفريغ الشرائط، المهنة الأكثر إرهاقا في الشركة والأكثر جلبًا للأموال أيضًا، فتفريغ الشريط وكتابته على الكمبيوتر كان مقابل ١٥٠ جنيهًا.

في البداية كانت تكتفي بتفريغ شريط واحد في الأسبوع، كانت تقسم وقتها بين العمل والقراءة حتى لا تأخذها حياتها الجديدة عن حلمها.

لكن يومًا بعد يوم، تخلت عن القراءة وصارت تستغل الوقت في التفريغ في وقت أقل، وتفكر في أنه بدلاً من أن تفرغ شريطـًا واحدًا خلال أسبوع، يمكنها أن تفرغ اثنين أو ثلاثة، بعد كل شريط كانت تدير الحسابات في ذهنها.

يمكنها بعد سنتين أو ثلاث أن تشتري سيارة، فكرت في هذا كله وأصبح المال يمثل غاية في حد ذاته بالنسبة إليها، بعد أن كان وسيلة لتحقيق حلمها، كانت تعزي نفسها بأن كل من تقابلهم في حياتها الجديدة لا يهتمون لأمر الأدب والكتابة، وفكرت أنها إذا سألت أي شخص ممن تتعامل معهم يوميًا، سواء من زملائها في العمل، أو هؤلاء الذين يجرى معهم البحث التسويقي، عن اسم كتاب أعجبه فلن يهتم، ولكنها إذا سألته عن نوع سيارة، أو أحد المنتجات فحينها سيهتم الجميع، وتلك هي الحياة الحقيقة التي جذبتها وتيقنت لفترة أنها الحياة التي يجب أن تفكر فيها وليست تلك الحياة التي صنعتها في أحلامها وحدها والتي ستصبح مثار سخرية إذا تحدثت عنها أمام من يعملون معها.

مضت أيام وأسابيع وشهور وهي تفكر بتلك الطريقة، جنت الكثير من الأموال كما كانت تريد، كما فرحت لأنها لم تكن تتخيل أن تجني تلك الأموال في تلك الفترة القصيرة، ولكننا نقتل أنفسنا في العمل لنوفر حياة أفضل.. لا نعيشها، وهي لم تكن تشعر بسعادة، لم تكن حزينة ولكنها لم تكن سعيدة أيضًا، وهل يكفي أن نقف في منطقة وسطى بين التعاسة والسعادة حتى نحمد الله أننا نحيا؟ كانت تسأل نفسها هذا السؤال كلما تبقى لها وقت في خلال اليوم لتجلس مع نفسها .

كانت تشعر أن هناك شيئًا ينقصها، ولكنها كانت تهرب من مصارحة نفسها حتى لا تكتشف أن هذا الشيء هو غياب روحها عنها بعد أن تخلت عن حلمها، كانت تهرب من ذلك بتعزية نفسها بأنها صارت تمتلك روحًا أخرى تمنحها إمكانية العيش في حياتها وفي عملها الجديد ولكنها صارحت نفسها في النهاية حين أدركت أن الروح الحقيقية ليست تلك التي تمنح الإنسان فرصة التنفس مرة أخرى، ولكنها تلك التي تجنبه أن يحيا ميتًا في غيبة عن ذاته.

حين واجهت نفسها بتلك الحقيقة، راجعت كل خططها وأحلامها، تذكرت أن هدفها من العمل في تلك الشركة كان الحصول على أموال لتحقيق حلمها، لا أن تصبح الأموال كل حلمها، أغلقت على نفسها باب حجرتها بعد أن استيقظت في الفجر في أحد أيام إجازاتها، لأنها كانت تعلم أن هواء الفجر يعيد روحها الحقيقية إليها، أخذت كتاب النبي لجبران وهي تخبر نفسها بأن هذا الكتاب الذي أوصلها يومًا ما إلى أعماق روحها، يمكنه أن يعيدها إليها.

بدأت تقرأ سطوره، حاولت أن تتماسك وتكذب شعورها بأنها لم تعد تشعر بشيء على الإطلاق، ولكنها في النهاية اكتشفت أنها فعلاً لم تعد تشعر بأي شيء، وأنها فقدت روحها، حاولت مرات ومرات أن تعيد

قراءة سطور من صفحات مختلفة، لعلها تشعر بأي شيء ولكنها فشلت أيضًا.

فكرت أن تترك العمل وتمنح الكتابة كل وقتها ولكنها خافت من عدم قدرتها على لمس روحها مرة أخرى بعد أن أخذتها عجلة الحياة المادية.

فكرت أنها إذا فعلت ذلك، ربما لا تتمكن من الكتابة مرة أخرى وحينها تكون خسرت كل شيء، خسرت موهبتها التي ظنت أنه من السهل استدعاؤها في أي وقت، وخسرت أيضًا العمل الذي يشعرها بأنها لا تحتاج إلى أحد، وإذا خسرت كل شيء فلن يتبقي لها ما تحيا من أجله، لذلك قررت أن تكمل العمل بدلاً من المخاطرة، لأنها أجبن من أن تجازف في شيء لا تعرف نتيجته.

حين وصلت إلى نهاية الأمر، اكتشفت أنه ليس أمامها بديل آخر، سارت في الطريق الذي رسمه لها القدر بدون معاناة لأنها سارت فيه بدون مقاومة.

عند تلك النقطة انتهت قصة نورا، وهكذا تحولت من فتاة حالمة، لا يهمها شيء إلى فتاة مسالمة تجلس خلف مكتب، وأكثر شيء يهمها في الحياة أن تنتبه إلى زر المسجل حين ينطفئ معلنـًا عن انتهاء مساحة أحد وجهي الشريط ، حتى تقوم وتقلب الشريط على وجهه الآخر، محاولة في أثناء ذلك أن تحتفظ بتوازنها حتى لا تنقلب هي الأخرى إلى وجهها الآخر وتنفجر باكية لأنها تحولت إلى شبه آلة يشغلها الروتين اليومي، ويوقفها انتهاء ساعات العمل. يدخل أحدنا مكانـًا لا يحبه بإرادته، فيخرج منه مسلوب الإرادة.

انتهت قصة نورا وانتهت قصتي أيضًا، أشعر بمرارة الآن ليس لها مثيل، حتى أنني أعجز عن التعبير عنها. اكتشفت أن هناك علاقة عكسية بين أحلامنا وأعمارنا، حين كنا صغارًا كانت أحلامنا لا يتسع لها الكون،

كنا نحلم أن نلمس السماء وكنا نظن أننا سنلمسها يومًا ما، ولكن حين كبرنا قليلاً وعرفنا أن السماء البعيدة الكبيرة لا تلمس، صرنا نحلم بأن نكون نحن أنفسنا شيئًا كبيرًا، ما من أحد لم يحلم بأن يكون شيئًا كبيرًا حتى وإن اختلفت نظرة كل منا إلى طبيعة هذا الشيء الكبير.

لكن كلما تقدم بنا العمر واصطدمنا بواقع يحوي المستحيلات، كانت أحلامنا تتراجع أمام هذه المستحيلات، وكلما كبرنا وعرفنا مستحيلات جديدة كانت أحلامنا تتراجع من جديد لتفسح للواقع مكانها، وهكذا بات يقابل التقدم في العمر تراجع في الأحلام حتى يأتي وقت تتضاءل فيه الأحلام التي كانت كبيرة ذات يوم، ويصبح من الصعب رؤيتها حتى بالخيال المجرد من المستحيلات، ويصبح من الصعب أيضًا أن ننتبه لها وسط زحمة الحياة التي صرنا نحياها، لهذا يكون النجاح في الحياة من نصيب هؤلاء الذين يحتفظون رغم تقدمهم في العمر بتلك النظرة الطفولية للأحلام، هؤلاء الذين لا يجدون مستحيلاً في لمس السماء، ولا يجدون في الواقع مبررًا لاستسلامهم. فأين أنا من هذا كله؟

أتعرف ماذا تكون الحسرة؟ الحسرة هي أن تحلم في لحظة وتأمل في كل شيء، ثم تصل في لحظة يأس إلى لا شيء، أدرك الآن جيدًا معنى الحسرة.

- *لماذا حكيتِ عن نفسك وكأنك تتكلمين عن "نورا" أخرى؟*

- لأنني أردتَ أن أصارحك بكل شيء.

- *وما المانع إذا صارحتني وأنت تتكلمين بضمير المتكلم، إذا كنت في النهاية تتكلمين عن نورا الخاصة بك؟*

- ذلك لأننا دائمًا لنا قدرة هائلة على فضح الآخرين متى عرفنا عيوبهم، ولكننا لا نستطيع ذلك مع أنفسنا حتى وإن كنا سنفضحها بيننا وبينها فقط، ففضلت أن أتكلم عنها وكأنني أتكلم عن شخص أخر حتى أستطيع فضحها بدون مقاومة.

- لكنك لم تفضحي شيئًا حتى الآن، أنت لم تتكلمي سوى عن خيبات الأحلام المتعلقة بالعمل، بينما هناك خيبات لأحلام أخرى، اكتفيت بمجرد الإشارة إليها من بعيد، أذكر منها ما أشرت إليه من رغبتك في خلع الحجاب، وشعرت أنك تقاومين حتى لا تفضحين ما وراء تلك الرغبة من رغبات أخرى.

- لا ، إنه مجرد حلم قديم.

- ولكنه حلم وعلى أية حال فإنه يحمل رغبة، وبالنسبة إلى وصفك له بأنه قديم، فلا أظن، هو رغبة مشتعلة في داخلك حتى الآن، ولو كان غير ذلك ما كنت قاومت التحدث عنه، ومع ذلك سأتركك تتحدثين عن هذا الأمر وقت أن تشائين، أنا فقط أثرت الأمر لأتأكد من حقيقة شعوري الذي راودني طوال كلامك، والآن بعد أن تأكدت سأتركك تقررين بنفسك ما عليك فعله.

أنا الآن أريد أن أنام، لدي عمل في التاسعة صباحًا، المُنتَج الذي سنجري عليه بحثـًا تسويقيًا غدًا هو السمن، لذلك يجب أن أنام لأستعد لثرثرة ربات البيوت الذين سيأتون غدًا ليتكلمن عن السمن واللاتي لن يكتفين بذكر عيوب ذلك السمن الذي دفعت به شركته المنتجة إلى شركتنا لتجري له حملة إعلانية جديدة تؤثر على ربات البيوت وتدفعهم لشراء السمن، حتمًا لن يتكلموا عن عيوب ذلك السمن ولا مميزاته أيضًا، سيتكلمون كثيرًا في أمور الطبخ والطعام ولن يضيعوا فرصة لتتباهى كل واحدة منهن أمام الأخرى بقدرتها على صناعة كل أنواع الطعام واستخدام أغلى أنواع السمن. لمجرد تخيلي كل ما سيحدث غدًا أشعر بملل لا حد له.

لدي ٤ جروبات غدًا، آخر جروب سينتهي معه عملي سيكون في التاسعة مساء، اثنتا عشرة ساعة أقضيها في داخل مكان مغلق، كفيلة بأن تقتل مشاعر وشعور أي شخص .

كيف لي أنا أن أحتمل هذا اليوم الطويل في أحداثه المملة، وكيف أحتمل الصداع الذي يصيبني في تلك الأيام التي يكون لدي فيها أكثر من جروب وتكون مهمتي فيها أن أستمع إلى ثمانية أشخاص يتكلم اثنان منهم على الأقل في وقت واحد حتى يثبت أن رأيه هو الصواب، وأكتب بعدهم أنا كل رأي يقولونه ربما لأثبت لهم بدون أن أتكلم أن في مهنتنا تلك ــ أو بمعنى آخر يجب أن يكون في العموم ــ ما من رأي يستحق أن يدون وآخر لا يستحق، كل الآراء تبدو مهمة من وجهة نظر الشركة المنتجة حتى لا تفوت مستهلكـــاً بدون التأثير عليه، أفعل ذلك وكأنني أوجه لهم، في صمت، غضبي من عدم احترامهم لمن يجلس خلف مكتب ويصاب بالانزعاج من محاولاتهم إثبات آراءهم بالقوة ولو على حساب عمله.

خصوصًا حين تتداخل أصوات كثيرة ولا أفهم ماذا على أن أكتب منها، وإذا لم أكتب أي شيء، وإذا لم أفرغ أنا بِنفسي هذا الشريط ، سيشكو الذي يفرغه من بعدي لأنني لم أكتب شيئًا يوضح له ما قيل، وسيوبخني مديري لأنني مهملة وأشرد خلال العمل .

غدًا من الأيام التي يكثر فيها هؤلاء وتزداد أصواتهم وتتداخل كلماتهم، حتى تصبح الدنيا في نهاية اليوم داخل رأسي أشبه بمسجلات تعمل كلها في وقت واحد.

حين يقتحم الروتين حياتنا بشكل يدعو للجنون، لا يوجد مأوى لنا سوى النوم، فهو يحمل معه كل يوم حلمًا جديدًا.

أشعر أنني عدت لمرضي القديم وبدأت أتفلسف، الآن فعلاً حان موعد النوم، حين أتحول إلى شيء وسط أشياء، حولها أشياء، محاطة بأشياء تسير في العتمة.......

****

الفصل الثالث

اليوم تعرضت لموقف خرجت منه نصف سعيدة ونصف حزينة، كنت كالعادة جالسة خلف هذا المكتب أدون ما تقوله النساء اللائي جئن من أجل إبداء رأيهن في منتج جديد للأطفال، وكن جميعهن بالطبع أمهات لأطفال رضع.

من وقت إلى آخر كان يأتي إحداهن مكالمة فتذهب خارج الحجرة لترد عليها وتعود متوترة لأن والدتها - التي تركت لديها ابنها- اتصلت بها وأخبرتها أن الطفل استيقظ ويبكي وكانت تسأل متى ستنتهي الجلسة؟ وحدث نفس الموقف مع أخرى وعادت متوترة لأن طفلها المريض ارتفعت درجة حرارته وهي تريد أن تغادر، أخبرتهن "مُنى" مديرة اللقاء بأن الجلسة لن تمتد كثيرًا وأن عليهن الانتظار.

خرجت " مُنى" لبضع دقائق حتى تتحدث مع مندوب الشركة المنتجة الذي يجلس في حجرة مجاورة لنا ويراقب حجرتنا من خلف نافذة سوداء يرانا منها دون أن نراه، حتى يمكنه متابعة الحوار واستدعاء مُنى بإرسال رسالة لها علي جهاز الحاسب الموضوع أمامها متى أراد أن يضيف إلى الحوار سؤالاً جديدًا أو أن يذكرها بشيء نسيت أن تسأل عنه السيدات في الأوراق التي تسأل منها.

حين خرجت "مُنى" نظرت إلي السيدة التي كانت متوترة، لأن ابنها مريض، وأعادت سؤالها لي:

" متى ستنتهي الجلسة"؟

أشفقت عليها من توترها وقلقها على ابنها وأخبرتها بأن ما تبقى من الوقت ليس كثيرًا ولن يتعدى نصف ساعة أخرى، فابتسمت حتى تخفي توترها الذي استمر رغم ذلك، ثم قالت لي وكأنها تعتذر عن أسئلتها الكثيرة:

- حين تكونين أُمًا ستعرفين هذا الشعور القاسي، الأمهات يقلقن على أطفالهن من أقل الأشياء.

شاركها الجميع الرأي وهززن رؤوسهن، بينما أنا وبدون تفكير أخبرتهن أنني أم، ولا أعرف لماذا قلت ذلك.

- هل تمنيتِ أن تصبحي أمًّا لأنهن جميعًا أمهات؟ هل شعرتِ بغيرة من كونهن أمَهات وأنتِ لست كذلك؟

- ربما، لكني لا أعتقدَ ذلك، لأنهن حين أبدين اندهاشهن من أن شكلي صغير جدًّا على كوني متزوجة، شعرت بسعادة لأنهن يرونني صغيرة ثم أكملت الكذبة بأن لدي ثلاثة أطفال، زاد اندهاشهن، فبادرت إحداهن وأخبرتني أنني أكذب لأنني لا أرتدي أية دبلة كما أن شكلي يبدو عليه أنني لا أزال بنتًا، وأخبرتني أنها إذا قابلتني في الشارع ستظن أنني عائدة لتوي من المدرسة، سعدت أكثر لأنها لم تصدقني، ولكن أخرى قاطعتها بقولها أن هناك كثيرًا من الفتيات لا يبدو عليهن أبدًا أثر للزواج رغم كونهن أمهات لأكثر من طفل، تجادلن فيما بينهن بينما كنت أنا أستمتع بكذبتي، ومستمتعة بفكرة أن أكون زوجة وأمًّا لأطفال ثلاثة ولو للحظات بدون أن أكون كذلك فعلاً .

أنهيت جدالهن بإخبارهن أنني كنت أمزح فظهرت على معظمهن ملامح الراحة خصوصًا ممن لم يصدقن كلامي، فرحت لأني لا زلت في نظر الآخرين طفلة ولم أكبر بعد أن صرت أشعر بأني في الأربعين من عمري، ولكن بعد أن أنهيت العمل، أخذت سيارة أجرة واسترجعت أحداث اليوم ناظرة من النافذة، تذكرت نظرة النساء وهن ينفين صحة كلامي بشأن أن أكون فتاة متزوجة ولدي أطفال، شعرت بالحزن، شعرت أن تلك النظرة ليست مجرد عدم تصديق لكلامي ولكنها نظرة استنكار بل استكثار، إنهم يستكثرون عليّ أن أكون أمًّا لأنني في نظرهن مجرد طفلة.

- *وما الشيء الذي يضايقك في أمر كهذا؟ إذا كانت نظرة الناس لك على أنك طفلة صغيرة تسعدك وتنفي عنك إحساسك الداخلي الذي توهمين به نفسك طوال الوقت بأنك صرت امرأة في الأربعين من عمرها.*

- تلك النظرة جيدة حين تتعلق بثناء على وجهي الطفولي وجسدي الصغير اللذين لا يجعلان العمر يظهر علي مهما تقدم بي.

أما تلك النظرة فكما أخبرتك، أنني شعرت أن بها استنكارا لأن أكون شيئًا آخر غير تلك الطفلة.

- *أي شيء بالتحديد؟*

- أن أكون أنثى مثلاً.

- *ألا ترين نفسك أنثى؟*

- أنا أخبرك بما يظنه الآخرون، لا بما أظنه أنا.

- *الإنسان هو ما يشعر به من داخله قبل أن يكون ما يظنه به الآخرون.*

أنا لم أعد أعرف من أنا، حين كنت صغيرة كانوا يقولون أنني طفلة وكان هذا أمرًا طبيعيًا بالنسبة إلى عمري، لكن بعد أن كبرت حينها صار عمري شيئًا نسبيًا يحدد ماهيته قوانين مطاطية من صنع أهلي، أبي وأمي وأخي الذي يكبرني بخمسة أعوام.

جميع من حولي يملكون ساعة لعمري، يؤخرون عقاربها للخلف إذا أردت شيئًا يشعرهم أنني استخدم حقي كفتاة في أن تشعر بنفسها وبجسدها وبمراهقتها وبأنوثتها، فيخبروني حينها أنني لا أزال طفلة صغيرة على أمر كهذا، وحين أطلب شيئًا يتناسب مع طفولتي الصغيرة التي وصفوني بها فإنهم في تلك الحالة يقدمون عقارب ساعة عمري إلى الأمام كثيرًا حتى يخبروني بأن طلبي مرفوض لأنني كبرت على ذلك.

في تلك الشيزوفرنيا أحيا منذ أن بدأت أشعر بجسدي، كنت في الثانية عشرة، حين شعرت ببعض آلام في البطن، اشتكيت لوالدتي، كنا حينها عند جدتي وكانت خالتي موجودة أيضًا، بعد أن دخلت إلى الحجرة المجاورة سمعت خالتي وأمي يتهامسان.

" ربما تكون جاءتها الدورة" قالت خالتي لأمي.

أخبرتها والدتي أنني لازلت صغيرة جدًّا، فأخبرتها خالتي بأن هذا هو السن الذي تبلغ فيه الفتيات وتكبر، وأنه يجب عليها أن تخبرني بأمر الدورة حتى لا أصاب بذعر إذا جاءتني فجأة وأنا في المدرسة، ضحكت وقتها حين سمعت كلامهن لأنني كنت أعرف الدورة قبل ذلك بأعوام.

لكني شعرت بلذة لأن أذهب وأجلس معهن وعلى وجهي براءة من لا تعرف في الدنيا سوى اللعب بعرائسها الصغيرة، وهولت من شكوتي ومن شعوري بوجع بطني لمدة أيام حتى أستمتع بتلك النظرة المترددة لوالدتي بين إخباري بشيء يسمى الدورة يأتي لكل الفتيات، وبين تجاهل الأمر لأنها تشعر بالخجل من إخبار ابنتها الصغيرة بشيء عيب، لا أعرف ما هو العيب في أمر كهذا، ولكن هناك شيئًا معيبًا والسلام، شيء يشير إلى تراجع الطفولة لدى الفتاة وتقدم مرحلة الأنوثة.

بينما يفضل الأمهات والآباء طفولة فتياتهم لأن تلك الطفولة مريحة، فلا شيء يخيف في مرحلة الطفولة، فطالما أن الفتاة طفلة فهي كالفتى، لا يكون لها نهدان يبرزان أمامها وينبهان من حولها إلى وجودها، وهي أيضًا "الطفلة" لن تلتفت إلى جسدها، ولن يكون لها من رغبات سوى اللعب.

لذلك كانا مستريحين جدًّا قبل أن يأتيني هذا الوجع الذي استمر معي لأيام دون أن أشكو من نزول دم من أسفلي، وبعدها بعدة أشهرٍ جاءتني الدورة فأخبرت والدتي بقدومها وأنا أبتسم خجلاً وكنت فعلاً أشعر بالخجل، لأني أعرف أن في الأمر شيئا معيبًا، اندهشت والدتي من

معرفتي بها، ولكنها لم تطل الموقف، صار الأمر عادة في كل شهر، لم يعد الأمر مخجلاً طالما أنه تحول إلى عادة وطالما أن والدتي في سؤالها لي كل شهر في موعد قدوم الدورة عما إذا كانت أتتني أم لا، استبدلت كلمة "البتاعة" بالــ "الدورة".

ظننت أنني كبرت وقتها كما قالت خالتي لأمي حين أخبرتها أن هذا السن هو السن الذي تكبر فيه الفتاة وتبلغ، ظننت أنني كبرت لأنني بلغت.

" أريد أن أرتدي حمالة الصدر لأن هاجر صديقتي أخبرتني أن نهديَّ يهتزان حينما أسير"

قلت لوالدتي ذلك وأنا أشعر بزهو الفتيات الكبيرات، اللاتي تخترن وتنتقين حمالات صدورهن، فكرت حينها أنه يمكنني أن أرتدي حمالة صدر سوداء، كتلك التي كانت ترتديها "سعاد حسني" في أحد أفلامها، وحينها يمكنني أن أتخيل بحرية، وجودي فوق الفراش في حضن رشدي أباظة أو صلاح ذو الفقار، فما المانع طالما أنني أرتدي ثيابًا داخلية مثيرة، بدلاً من تلك التي تشتريها لي والدتي وعليها رسومات طفولية.

"ما زلتِ صغيرة على ارتداء حمالة الصدر" أجابتني أمي...

- إذا كنت صغيرة، فلماذا إذن لا أشتري الفستان الذي قسته الأسبوع الماضي.

- لأنه قصير ويظهر ساقيك.

- ولكني لازلت صغيرة، فلماذا لا أرتدي ملابس من في مثل سني؟

- صرتِ كبيرة .

- إذن أريد أن أرتدي هذا الفستان الطويل مع حذاء بكعب.

- هذا لن يناسبكِ.

- لماذا ؟

- لأنك صغيرة وجسدك صغير، ستبدين وكأنك استلفتِ هذا الفستان.

***

هل هذا هو الجنون، أم أنه التناقض الذي يدفع إلى الجنون؟ حقـًا لا أعرف لكني أنا الأخرى صرت أحمل بعضًا من هذا التناقض، صرت لا أعرف هل أنا طفلة من حقها أن تتصرف بتلقائية ولا تخجل من شيء وترتدي ما تشاء، أم أنا أنثى لها رغبات يجب أن تُشبع وإلا انفجرت بداخلها محدثة جروحًا لا يدركها ولا يشعر بحسرتها سواي، أنا لا أعرف من أكون، خصوصًا أن ساعة عمري التي بمعصم أهلي امتدت لتشمل كل الأشياء.

حين كان أبي يوصلني إلى أحد الدروس، كان ينتظر معي حتى يأتي المدرس، وأحيانـًا كان ينتظرني حتى أنهي الدرس، ذات يوم وكنت وقتها في الثالثة عشر من عمري، وبعد أن انتهيت من أحد الدروس، نزلت مع أصدقائي من الفتيات والفتية، حين مزح فتي معي وسار إلى جواري، تكلمت معه بتلقائية، لم أخشَ أن يراني والدي الذي كنت أعرف أنه ينتظرني لأنني لم أشعر أن في الأمر عيبًا، لكن والدي حين رآني كذلك تجهم في وجهي وفي وجه الولد الذي تقدم ليسلم على والدي، وبعد أن سرنا بعيدا عن الفتى، سألني والدي في استنكار كيف أسمح لنفسي أن أتكلم وأسير هكذا مع "ولد" غريب.

حين أخبرته أنه زميلي في الدرس، وأني كنت أكلم الأولاد وألعب معهم في مدرستي القديمة، أخبرني بأني كنت صغيرة وقتها وأنني الآن كبرت ويجب ألا أتحدث مع ولد خارج الدرس، لأن الفتيات المحترمات لا يتكلمن مع الأولاد.

اعترضت "ولماذا إذن تتصل بـــ "عمرو" فتيات كثيرات ويجيبهن؟"

- هؤلاء فتيات لسن محترمات وليس لهن أهل يربيهن.

- ولماذا يكلم أخي فتيات غير محترمات؟

- هو ولد كبير مسئول عن تصرفاته، أما أنت فمازلت فتاة صغيرة.

أنا صغيرة إذن، تلك كانت آخر كلمة نطق بها والدي، فتمسكت بها باعتبارها ساعتي العمرية التي لا أملكها رغم أنها تخصني، ولم يمر سوى أسبوعين على تأخير أبي لساعةِ عمري، وجاء فرح ابنة خالتي، وكان من المفترض أن اشتري فستانـــًا سواريه لأرتديه في الفرح.

حين خرجت مع والدتي لأشتري الثياب، أعجبني فستان سواريه يغطي الركبة، ويغطي كتفيه العاريتين شال.

اعترضت والدتي لأنه عاري الكتفين وحين أخبرتها أن هذا الشال سيحل تلك المشكلة، وجدت اعتراضًا آخر وهو أنه لا يغطي قدميَّ، نفس مشكلة كل مرة، رغم أنني رجوتها أن توافق هذه المرة لأننا سنكون في فرح، وفي الأفراح ترتدي كل الفتيات حتى من يكبرنني في العمر فساتين عارية، ولكنني لم أفلح في إقناعها، وانتهى الأمر إلى عدم شرائي أي فستان سواء قصيرًا أو طويلا.

اشتريت بنطلونًا وعليه بلوزة من أعلى تغطي أكثر من نصفي، وذهبت إلى الفرح وشعرت بالحسرة حين وجدت أنني الفتاة الوحيدة التي لا ترتدي فستان والتي تبدو وكأنها شحتت ثيابها من جارة أو قريبة لها تكبرها في العمر.

ومن وقتها وأنا أكره الأفراح لأنني لا أكون فيها مثل كل الفتيات، لأنني مهما تقدمت في العمر ظل جسدي باقيًا على طفولته ولا يحتمل أنوثة الفساتين الطويلة، وأمي كلما تقدم بي العمر تشددت أكثر مع كل ما يخص ثيابي.

كما أن الأمر ازداد سوءًا بعد أن ارتديت الحجاب، كنت وقتها في أواخر الثالثة عشر من عمري، أذكر أنها السنة التي بدأ الحجاب يظهر

على استحياء، شعرت أنني أريد أن أجرب هذا الأمر الذي لم يكن منتشرًا وقتها، أردت أن أفعل أي شيء يجعلني متميزة عمن حولي .

حين أثرت الموضوع في المنزل أخبروني وقتها أنني لا أزال صغيرة على قرار كهذا ولكنني صممت، بدا لي رفضهم أمرًا مثيرًا لأتمسك أنا الأخرى برأيي وأنفذه لأشعر في النهاية أنني حرة في اتخاذ أي قرار يخصني، حتى وإن كان هذا القرار سيفقدني جزءا من حريتي وسيجبرني على تغطية شعري طوال الوقت وأنا خارج المنزل وأمام الغرباء، لم أفكر في كل هذا، فكرت فقط في متعة أن أكون حرة في اتخاذ قرارًا يخصني وفي التصميم عليه، وكلما واجه رفضًا أكثر من جانبهم كلما شعرت بلذة ومتعة للتمسك برأيي أكثر.

ولكنهم على أية حال لم يبدوا هذا الاعتراض الذي انتظرته، وبعد أشهر قليلة من ارتدائي الحجاب وفقداني جزءًا من إثارته كشيء مختلف بعد أن صار الحجاب منتشرا ولم يعد في ارتدائه شيء يميزني عمن حولي، اكتشفت أنني فقدت جزءًا من حريتي التي كان أكثرها مفقودًا بلا داعي، مجرد شعور لحظي بالرغبة في فعل شيء ليس أكثر ولا أقل.

"أريد أن أخلع الحجاب" فاتحت والدتي في الأمر...

اعترضت والدتي بشدة وأخبرتني أنني أجمل مع الحجاب، وأنني تحجبت بإرادتي ولم يجبرني أحد على ارتدائه، وأنني إذا خلعته لن أسلم من ألسنة الناس لأننا في منطقة شعبية.

حاولت إقناعها بأني لازلت صغيرة وأنه ما من أحد من الجيران سيلتفت إليّ إذا فعلت، وأنني لم أكبر فجأة عما كنت عليه منذ ثلاثة أشهر، لكنها قاطعتني بجملة واحدة "مستحيل... انسِ الأمر".

توقفت عن الجدال وبداخلي أمل أن هذا ليس نهاية الأمر، وأنه بإمكاني في وقت آخر إقناعها، ولكن هذا الوقت لم يأت، بل كلما مر الوقت كانت والدتي تجد مبررات أكثر مثل "أن الحجاب صار منتشرًا

وكل البنات في عمرك وأصغرٍ منك ترتدينه" أو أن الأمر محرم دينيًّا وأنني يجب أن أكون أكثر تدينــًا من ذلك.

تحول الأمر من كونه ظاهرة منتشرة تحرص والدتي على أن أكون في داخلها ولا أنشز عنها، إلى "حرام" صارت تصوبه إلى وجهي كلما فاتحتها في الأمر، لأنها وجدت أن كلمة حرام لها تأثير أقوى، ويجعلني أصمت عن الجدال بعدها، وهكذا وضعت نفسي بسبب تسرعي وعدم خبرتي في أمر لم أفكر فيه حين قررته، من جانب كونه عادة أو من جانب كونه عبادة، وصار في داخلي شعور بكبت رهيب ظل يزداد كلما فقدت الأمل في خلع الحجاب.

- عوامل الكبت تخلق في الإنسان روح التمرد والانفعال والثورة على قانون الحياة ما يؤدي إلى الانهيار التام فالانتحار ***

لم أثر ولم أصل بعد إلى مرحلة الانتحار، ولكن المشكلة أنني أصبت في تلك الفترة باكتئاب شديد، وكان الكبت الذي أعانيه يحرك معظم أفعالي، صرت أتصرف وكأنني واحدة أخرى غير نورا التي كانت بالأمس، كنت أفعل شيئًا رغمًا عنى، أرتدي حجابًا لا أشعر به ولا أريده، فأنظر بغيرة إلى الفتيات اللاتي يتمتعن بحرية تصفيف شعورهن كما يشأن، يتركونه حرا، أو يصنعون ضفيرة تشبع رغبة لديهن في العودة إلى الطفولة ولو للحظات، كم كنت أود أن أخلع حجابي كلما رأيت فتاة بشعرها، كم كنت أود لو أكون مكانها.

وكلما شعرت بصعوبة تنفيذ الأمر أكثر، كلما زادت بداخلي رغبة لأن تتحجب كل الفتيات حتى لا أشعر بالعجز عن تحقيق رغبتي المتخفية في داخلي كلما صادفت فتاة لا ترتدي حجابًا. وحتى لا تأكلني الغيرة من الفتيات الجميلات اللاتي لا يشوه الحجاب هيئتهن مثلي.

حتى أنني ضبطت نفسي أكثر من مرة أقنع فتيات بأن يتحجبن في لحظات تقوى تأتيني على غير عادة، كانت لحظات تقوى حقيقية فعلا،

ولكنها تقوى العجز عن فعل ما أريد، أو يمكنني وصفها بتعبير أروع لنجيب محفوظ "وما أكثر العفة المتولدة عن العجز".

حين كانت إحدى الفتيات تقتنع بكلامي وتتخذ قرارها بالحجاب؛ أصبح سعيدة جدًّا، لم أكن سعيدة بحجابها أو بما سآخذه من حسنات من وراء هذا الأمر، لكني كنت أسعد لأنها بحجابها ستقلل من شعوري بالعجز عن تحقيق ما أريد، وسيقل عدد من أغار منهن واحدة. ولكنها لحظات ثم أصاب بغم شديد، لأن تلك الفتاة ليس لديها مشكلة في أن تتخلى عن الحجاب متى تضيق به لأن أهلها لا يتدخلون في قراراتها وليست مثلي على أية حال، حين أتذكر أنني كنت كذلك، أشعر أنني شريرة وسيئة جدًّا، وأحس أنني أحمل مشاعر متناقضة جدًّا.

*- هذا طبيعي لأنك الآن تخرجين ما ترسب في لا شعورك، وتذكري أني أخبرتك سابقـًـا أن اللاشعور يتميز بالجمع بين المتناقضات بدون حرج ***.*

تحول الحجاب معي إلى رمز للتحكم، صرت أشعر أنني في تحد دائم مع قطعة قماش، ينشأ بداخلي شعور جميل تجاهها حين أسمع درسًا دينيًا يحض على التقوى وعلى ضرورة التزام الفتاة الزي الإسلامي، ويمتد بي هذا الشعور إلى الإحساس بالذنب تجاهها ويزيد من رغبتي في الالتزام بملابسي أكثر لأكفر عن شعوري تجاه الحجاب بالكره أحيانـًـا.

بينما في أحيان أخرى حين أرى فتاة ترتدي ما تشاء وتسير بحرية مع شعرها المتطاير خلفها أو أمامها تبعا لحركة الهواء، يعود إليّ من جديد شعوري بالكره تجاه تلك القطعة من القماش التي تغطي شعري وتجعلني أنظر إلى فتاة غيري نظرة غيرة، فعجزنا يصنع غيرة في داخلنا من هؤلاء الذين استطاعوا ألا يعجزوا.

ويصبح وقتها كل همي في الحياة أن أزيل تلك القطعة من فوقي بدون انتظار عقابًا، أي عقاب سواء من جانب أهلي برفضهم، أو عقاب

المجتمع بنظراته التي لا ترحم، أو عقاب الله الذي فرض على شيئا لم أعد صافية النفس بعدُ لأتقبله بدون تذمر يفقدني ثواب ارتدائه، لأن الله عكس الناس يحاسب بالنوايا ويعرف أني أكره الحجاب .

تعبت أكثر حين استقريت على الخيار الأمثل، الخيار الأسهل، خيار العاجزين... الاستسلام.

كنت أتساءل وقتها في لحظات الصراع في داخلي بين المتناقضات، هل أنا تافهة إلى هذا الحد؟ هل صار كل همي في الحياة أن أتخلى عن قطعة قماش؟ هل صار كل حلمي أن أتحرر من مجرد شيء مادي أوصلني تسرعي في اتخاذ قرارًا بارتدائه إلى كل هذا الصراع، أليس الأجدر بي أن أتحرر من الأشياء السيئة بداخلي؟ أليس من الأجدر أن أتحرر من المشاعر السلبية كالحقد والغيرة والشعور بالذنب الناتج من سعيي الدائم في خيالي فقط إلى التمتع بحريتي بأن أشعر بالأنوثة.

أقسم لك أن كل تلك الأسئلة والأفكار كانت تأتيني ولكني لم أستطع التحكم في نفسي، لم أستطع أن أطرد تلك الأفكار من مخيلتي، ولم أتمكن من وقف هذا الصراع حتى وصلت إلى مرحلة صرت معها أظهر عكس ما أبطن، صرت منافقة، أبين للناس أنني مقتنعة بحجابي ربما يخفف هذا من ثقل شعوري بالذنب لأنني لم أستطع أن أحب الحجاب، وربما أيضًا كنت أفعل ذلك حتى ينتقل إليّ، ما أحاول إقناع الناس به من شعوري أن الحجاب شيء لطيف بالنسبة إليّ، وأشعر بذلك فعلاً بصورة حقيقية.

لكن حين كنت أجلس مع نفسي وأصارحها، أبكي لأنني أكتشف أن هذا ليس حقيقيًا وأنني تحولت إلى منافقة.

- كل إنسانٍ يجبر على الحياة باستمرار داخل نطاق المفاهيم الاجتماعية، وطبقًا لمعايير المجتمع التي لا تعبر عن ميوله الغريزية، وبذلك يحيا بالمعنى السيكولوجي فوق مستوى إمكانياته، حتى يمكن

*وصفه موضوعيًا بأنه منافق، سواء كان يعلم أو لا يعلم أن حياته الظاهرة خلاف حقيقته الباطنة *** .*

- أخشى أنني قد تحولت إلى هذا فعلاً في تلك الفترة من حياتي، التي لا أستطيع محو تأثيرها أبدًا من داخلي، ولكني في النهاية وبعد تفكير وجدت جوابًا لسؤالي، هل أنا تافهة لكي أفكر بتلك الطريقة في شيء من المفترض أن يضيف إليّ النفس شعورًا بالروحانية، ولا يخلق كل هذا الصراع؟

أخبرت نفسي بأنني لم أكن تافهة إلى درجة أن أجعل من الاستغناء عن الحجاب غاية أحلامي، على العكس أريد أن أخلعه ليسكن الصراع في داخلي ولأتخلص من مشاعر الغيرة والشعور بالعجز والنقص، وأتفرغ إلى ما هو أهم من ذلك، كنت أريد أن أخلق أحلامًا وطموحات أخرى، وأفكر وأعمل على تحقيقها، كنت أريد أن أتحرر من أول عقبة في طريق حريتي، فالوسيلة حين يتعذر الوصول إليها تصبح غاية، وخلع الحجاب كان وسيلة صعب الوصول إليها، فلماذا أحتفظ بكل ما يتسبب لي في أذى؟

"لماذا" هذا هو السؤال الأصعب والذي يجعلنا عراة تمامًا أمام أنفسنا، لماذا نُجبر على فعل أشياء لا نريدها لمجرد أن نظهر بالصورة التي يرغب الآخرون رؤيتنا عليها، دون أن نفكر فيمن هم هؤلاء الآخرون، وما هي رغباتهم الخفية التي يرغبون فيها ولا يظهرونها أمامنا ومن الجائز جدًّا أنهم يشبعونها في الخفاء بدون أن نعلم نحن عنها أي شيء.

والسؤال الأهم من ذلك: "هل يستطيع هؤلاء الآخرون أن يأتوا معنا إلى الداخل، إلى أعماق ذاتنا ليروا ما هي نتيجة محاولة إرضاءهم على حساب أنفسنا، هل يستطيعون رؤية الشروخ التي أحدثتها كلمة "نعم" في داخلنا حينما كانت كلمة "لا" كفيلة بأن تعيد إلى أرواحنا سلامتها".

"لماذا؟" فليتعرَ المرء أمام نفسه ويكاشفها، ويخبرها بأنه أخطأ في حقها حين حاول إرضاء الآخرين على حسابها.

- وماذا فعلتِ بعد تلك الإجابة؟

لا شيء، فقط فكرت في تلك الأمور، أوصلني إلى تلك الإجابة قراءة الأدب وعلم النفس، ويمكنني القول أن القراءة التي قرأتها رغم أنها أضرتني كثيرًا لأنها جعلتني كثيرة التفكير رغم عجزي عن تحويل الأفكار إلى فعل حقيقي، إلا أنها علمتني أنه يمكنني إخراج ما لدي من طاقة يسيطر عليها الكبت من خلال الكتابة.

صرت أكتب وأكتب وأكتب كلما جاءتني رغبة في فعل شيئًا أعجز عنه، لذلك وجدت السير على خطى نزار قباني هي الأقرب إلى قلبي في بداية تعرفي على هذا العالم.

- معنى كلامك أنك استبدلتِ الكتابة برغبتكِ خلع الحجاب.

- ربما.

- هذا مؤكد، فالحجاب كان بالنسبة إليك مجرد قيد على حريتك في أن تشعري بأنوثتك الطبيعية بدون قيود على الملابس أو أية قيود أخرى، وحين لم تستطعين التخلص منها استسلمتِ للأمر الواقع باعتباره الحل الأسهل، ولكن ترسبت رغبتك تلك في عقلك الباطن، حتى نسيتِها، وصارت تتخفى في رغبات أخرى حتى تتمكن من عبور " لا شعورك" إلى الشعور، ويتم التنفيس عنها، فاستبدلت بها رغبتك في الكتابة، وكلما كتبتِ عن أشياء ممنوعة أو يراها المجتمع بوصفها "تابو"، كلما سعدت أكثر، لأن ذلك يشعرك بالحرية والشجاعة وينسيكِ شعورك بالعجز.

- لم أفكر في ذلك أبدًا.

*- ولكنها الحقيقة، وهذا يسمى أيضًا بالاستعلاء أو التسامي ****

- تقصد أن الكتابة لدي نوع من التسامي؟

*- بالضبط، الكتابة أو الرسم أو أي فرع من أنواع الفنون الأخرى، يمكنها أن تحقق هذا التسامي، الذي يعد طريقة من طرق الدفاع عن النفس ضد الألم، باستخدام المتاح من وظائف الجهاز النفسي بصرف الطاقة إلى مجالات أخرى وبتوجيه الغرائز وجهات لا تصادم بينها وبين العالم الخارجي، أي بالتسامي لها****

لكني رغم أنني كنت أمتلك تلك الموهبة في فترة من فترات حياتي وساعدتني جدًّا على إخراج الكثير من الطاقات السلبية من داخلي مثل الغيرة والشعور بالعجز، وأشياء أخرى كنت أتغلب على الشعور بها حين أكتب قصيدة أو قصة جديدة، إلا أنني في النهاية لم أحصل على شعور كامل بالرضا، وأحيانًا كان شعوري بالرضا لا يلبث أن يختفي سريعًا.

*- ذلك لأنه ليس هناك ما يضمن حماية المتسامي حماية مطلقة من المعاناة، ويفشل المتسامي عادة عندما يتحول جسمه إلى مصدر من مصادر شكواه، وهو يعرف أن الأوهام أوهام، ولكن معرفته هذه لم تحرمه اللذة التي يحصلها بالتوهم، وهو يستمد أوهامه من عالم الخيال، هذا العالم الذي لم يدخل اختبار الواقع وقت أن كان إحساسه بالواقع يتطور، فكان استثناؤه من اختبار الواقع وما يتطلبه الاختبار، لأنه كان يحتاج إلى إشباع رغباته التي لن يتيسر له إشباعها بدون أن يتخيل ويتوهم ***.*

- اكتشفت الآن من كلامي معك شيئًا .

- ما هو؟

اكتشفت أن المشكلة الأساسية التي صرت أعاني منها بجوار مشكلتي في العمل في مجال لا أحبه، وفي توقف حلمي من ناحية أن أكون كاتبة، اكتشفت أن لهذا الحلم وجهًا آخر، لم يكن مجرد حلم كما تخيلت، كان فيه جزء من إشباع رغبة كما أخبرتني أنت، لذلك حين

توقف هذا الإشباع، ولم تجد الرغبة منفذا لها، تحولت أنا الأخرى إلى ...، أخجل من ذكر هذا...

- *لا تخجلي منى، تخيلي أنني لست موجودًا أو إنكِ تتحدثين إلى نفسك.*

تحولت إلى فتاة شهوانية لم أعتدها في من قبل، لقد صرت أمارس الاستمناء أضعاف أضعاف ما كنت أفعل أيام مراهقتي، رغم أنني وقتها لم أكن أعرف أنه مضر، واليوم بعد أن كبرت وعرفت من صديقاتي أن كثرة المداومة على الاستمناء يجعل المرأة تعتاد الحصول على لذتها بنفسها ما يفقدها الشعور بالمتعة مع زوجها لأنها تكون قد اعتادت على ممارسة الفعل الجنسي بدون شريك، ورغم كل ما عرفته صرت أمارسه بعنف، وكأني أعاند نفسي، أو أنتقم منها على شيء لا أعرفه ولا أفهمه.

- *ولماذا لا تعودين إلى الكتابة، اكتبي طالما أن هذا الأمر يفرغ طاقاتك.*

- لم أعد موهوبة.

- *هذا وَهْمٌ من صُنعك، إذا تخلصتِ من الخوف، وأخرجتِ الطاقة الكامنة في داخلك، ستكتشفين أنك لازلتِ موهوبة إذا كنتِ مقتنعة بموهبتك من الأساس.*

أنا لم أعد مقتنعة بأي شيء، يكفيني أنني لا أجد نفسي في داخلي، فكيف أكتب!

ما في داخلي الآن يشبه جملة قرأتها لعلاء الديب وأتعبتني جدًّا "من يقدر الآن على الطهارة التي تتطلبها الكتابة، طهارة تحتاج إلى وضوء، وصلاة وجلباب أبيض نظيف، وجسد مغسول وروح حرة، وهي تحتاج إلى قدرة واحتشاد ويقين.... أين كل هذا مني الآن؟!".

قابلت منذ يومين، صديقة لي اسمها "مروة" تعرفت إليها منذ أربع سنوات في ساقية الصاوي، كانت تشاركني هواية الكتابة، كانت موهوبة

جدًّا، ولكنها رغم ذلك كانت تتخذ من كتابتها مجرد هواية ولم تكن تنوي احترافها، وكان حلمها الأساسي أن تتخرج في كليتها وتصبح سيدة أعمال، هذا علي الجانب العملي، أما على الجانب العاطفي فكان حلمها أن تتزوج رجلاً يستطيع استيعاب أنوثتها واحتياجاتها التي لم تكن تجدها سوى عند الرجال اللبنانيين الذين عرفت أكثر من واحد منهم من خلال مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت، وأحبت منهم اثنين.

كانت تقول لي دائمًا إن الرجل اللبناني يعرف كيف يشعر المرأة التي معه بأنوثتها مقارنة بالرجل المصري الذي يقلل في الغالب من قيمة المرأة التي معه حتى يشعر بقيمته،لأن معظم الرجال المصريين لم يعد لديهم ثقة في أنفسهم، كانت تردد دائمًا هذا الكلام حتى أنني تأثرت بكلامها في وقت ما وتحمست جدًّا لفكرة أن أتزوج من رجل لبناني، لكن ما أوقفني حينها أنني لا أعرف أي لبناني ولا يمكنني أن أجازف وأدخل في علاقة بالإنترنت.

خصوصًا أن اللذين الذين أحبتهما مروة تخليا عنها في النهاية، ما جعلني أتراجع نهائيًا عن الفكرة التي لم تتعدَ خيالي، حتى أنني لم أبح بها ولو إلى مروة نفسها.

المهم أنها ظلت على أحلامها، وكان صمودها هذا يشجعني على المضي دائمًا صوب أحلامي، ولكن ما إن تخرجنا واصطدمنا بالحياة الواقعية، تراجع كل منا عن أحلامه، ورغم كل ما حكيته لك من عجزي عن تحقيق أحلامي، إلا أنني كنت دائمًا أحتفظ بحلم آخر لنفسي لم أستطع أن أتخلى عنه أو أتخيل فكرة عدم حدوثه، كنت أحلم بأن أقع في حب شخص لدرجة الجنون ليأخذني من تلك الحياة الروتينية ويفتح لي أملاً في حياة جديدة، كان هذا الحلم آخر أمل بالنسبة إليّ كي أحتمل الحياة وأكملها وأنا أنتظر هذا الذي سيعيد إليّ روحي ويشعرني بأنوثتي.

– *ولكنكِ ذكرتِ من قبل أنكِ لا تريدين الزواج؟*

- أنا؟ آااه، كنت منفعلة فقط.

*- لا، لم يكن مجرد انفعال، هناك خلف كلماتك شيء تخشينه من الزواج، ولأن كل خوف يقابل رغبة قديمة هي الآن مكبوتة*** ، تأكدت الآن أن خوفك تجاه الزواج يحمل في الحقيقة رغبة جامحة فيه، فلماذا تخشين الزواج؟*

- أيمكن أن أروي لك تلك القصة أولاً حتى لا أنساها؟

- لكِ هذا، ولكن لن أنسي تلك الملاحظة التي أكدتِ لي عدم جدالك بشأن صحتها.

بدأت أشك أن حلم زواج الحب صار من الممكنِ تحقيقه، لأنني حين قابلت مروة، أخبرتني أن خطبتها بعد شهر، فرحتُ جدًّا من أجلها، ولكني حين سألتها عن خطيبها، لمحت في عينيها حزنًا، سألتها عن إحساسي بأنها ليست سعيدة، فأكدت كلامي وأخبرتني أنها لا تحبه. سألتها عن سبب رضائها بأمرٍ كهذا فصدمتني إجابتها.

- كبرت يا نورا، عمري ٢٤ عامًا، أخشى إن انتظرت آخر غيره ألا يأتي، أمامي فتيات كثيرات لا يجدن من يتقدم إليهن، أخشى أن أضيع الفرصة.

- منذ متى وأنتِ تفكرين هكذا؟ أين نفسك من كل هذا؟ أين أحلامك؟

- انسي هذا الأمر، في النهاية مهما عملت، لن يتبقى لي سوى زوجي وأولادي، أنتِ نفسك ماذا صنعتِ بأحلامك، هل حققت شيئًا منها؟

أصابني سؤالها بالحزن، وعجزتُ عن الرد، فأكملت كلامها: كان اعتراضي على "حاتم" خطيبي، أنه ليس مثقفًا ولا يقرأ، وحين جلست معه وطلبت منه أن يقرأ حتى يتفهم ما أحتاجه، اتهمني بأنني أنظر إلى الأمور بسطحية وأنه يعمل حتى يوفر لي احتياجاتي كاملة وليس لديه الوقت للقراءة أو كما قال ليس لديه وقت يضيعه.

وحين تكلمت مع والدي وأخبرته بما يضايقني من حاتم، أخبرني أنه يجب على من الآن أن أتعلم كيف أكون ربة منزل، وقال لي "المرأة في البيت سواء كانت وزيرة أو عاملة نظافة كلتيهما يجب أن ترعى زوجها، فحين يطلب منكِ أن تحضّري له ثيابه، فإنك لن تحضّريها من كتاب شعر، وتلك هي الحياة الحقيقية التي يجب أن تتفهميها، فالزواج أمر صعب جدًّا، ليس بسهولة الكلام الذي تقرئينه في الكتب والروايات".

كنت أستمع إلى مروة وأنا أنظر إلى عينيها في انتظار أن ألمح فيهما أي شيء يستنكر هذا الكلام، ولكنها بعد أن انتهت منه أكدت لي موافقتها الكاملة عليه.

"ما الذي سأستفيده إذا نجحت في عملي وحققت ما أتمناه وأنا عانس، وأنتِ ألا تشعرين أنكِ كبرتِ ويجب أن تتزوجي"؟

أفقت على سؤالها الذي وجهته إليّ مروة، بعد أن سرحت مع كلامها في العدم.

- لازلت أشعر أنني صغيرة جدًّا على التفكير بجدية في أمر كهذا.

- كبرنا يا نورا، وأنتِ ما زلت تقنعين نفسك بعكس ذلك، أخشى عليكِ العمر الذي يمر بسرعة لا نشعر بها، أخشى أن تندمي في يوم، وأن تضيعي الفرصة.

ظل كلامها الأخير يتردد في داخلي طوال اليوم، وأنا أسأل نفسي "هل كبرت فعلاً إلى هذا الحد؟"، "هل يجب أن أتزوج بسرعة؟"، "هل يجب أن أقبل أي عرض للزواج حتى لا أضيع الفرصة؟"، ولكن أين هي تلك الفرصة، لم يحدث من قبل أن تقدم أحدهم ليطلب يدي، والدتي تقول لي دائمًا أن هذا بسبب شكلي الصغير، وأن أي شاب يراني يخمن أنني في الإعدادية ولا يفكر بيّ.

صارت والدتي تلك الأيام أيضًا تهتم بثيابي أكثر من اللازم، وتقول لي: أريدك أن ترتدي ما يناسب سنك، أريد أن أشعر أنك آنسة كبيرة، لقد صرتِ عروسة".

أستمع إلى كلام والدتي في صمت وأنا لا أعلم كيف أرتدي ما يناسبني، فأنا أرتدي دائمًا ما يناسب طبيعة المنطقة التي أعيش فيها، وأرتدي ما يحفظني من نظرة الناس إليّ على أنني متبرجة...، وأرتدي ما يصلح لحجابي وما لا تعترض عليه والدتي أو أخي أو أبي، فكيف أرتدي بعد كل هذا ما يناسبني أنا، ليس شرطــًا أن يكون ما يناسبنا مخالفــًا لما يناسب المجتمع من حولنا ولكن إذا حدث ذلك فماذا علينا أن نفعل إذا كان ليس لنا من طريقة لإقناع من حولنا بمقولة جبران: "إن الاحتشام درع يقيكم من نظرات أهل الدنس، فإذا ذهب الدنس فلن يكون هناك معنى للاحتشام".

أتذكر تلك المقولة في صمت وأنا أسأل نفسي في يأس "متى يذهب الدنس؟"

كيف أحقق لأمي رغبتها وأنا أرتدي بالفعل ملابس تكبِّرني، أرتدي ثيابًا طويلة وبنطلونات واسعة، ثم أضع فوقها حجابًا، فأضع فوق عمري عمرًا، ماذا تريدني أن أفعل بعد أن فقدت الرغبة في الجدال بشأن حقي في ارتداء ما يشعرني بأنوثتي.

أشعر أن والدتي وأخي وأبي غير مقتنعين بوجود أنثى في البيت، هم يحاولون دائمًا إخفائي بأية طريقة، أحيانــًا أفكر أن أكتب لافتة مكتوب عليها "في بيتنا أنثى" وأعلقها أمام حجرتي حتى يتذكروا هذا.

والدتي تحرص دائمًا على إخفائي في ثياب فضفاضة، ووالدي يعترض على المكياج إذا وضعته ويسألني لماذا أضع أحمر شفاه، في تلك اللحظات النادرة التي أتذكر أنني أنثى وأهتم بشكلي.

وأخي الذي لا يخرج من حجرته إلا نادرًا، يخرج على رائحة عطري ويسألني لماذا أضع عطرًا؟

كنت في السابق أجادله وأبدل بسؤاله سؤالاً أنا الأخرى "ولماذا تضع أنت عطرًا؟"

فيجيبني حينها بأن هناك فرقـــًا بين الرجل والمرأة، ثم يعرض على الحديث: "أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها، فهي زانية".

كنت أجادل وأجادل حينها ولكنني في النهاية كنت أقف عاجزة عن أن أقول له رأيي بأن للنساء أيضًا شهوة مثلهن... مثل أي رجل، وأن الرجال حين يضعون عطورًا يثيرون في النساء تلك الشهوة، ولكني لم أجرؤ يومًا على قول هذا، وفي النهاية تراجعت عن وضع العطر الخاص بي، لأنني لم أعد أشعر بأية خصوصية تجاه نفسي.

حتى خصوصية جسدي لا أشعر بها، قبل أن أنزل من البيت أشعر أن هذا الجسد ليس ملكي، من يقابلني قبل نزولي يجب أن يقولها لي "استديري.. هذا ضيق"،"استديري.. هذا قصير"، "استديري.. غيري تلك الملابس" كم أكره تلك الكلمة، تشعرني أنني لا أملك سوى مؤخرة يجب إخفاؤها.

و أكثر ما يستفزني حين أكون نائمة ويدخل والدي ليأخذ شيئًا من حجرتي، المفتوحة دائمًا بسبب أن بابها "بايظ" لا يغلق أبدًا، يستنكر جسدي الذي تحرر من ثيابه في الحر، وينبه على والدتي أن تخبرني بألا أنام بهذا العُري.

أسأل نفسي أحياناً، هل تعود لي خصوصيتي إذا تزوجت؟ أم أن التغيير الوحيد أنني سأتحول من فتاة إلى امرأة؟ أريد شيئًا واحدًا فقط، أن أتزوج رجلاً يحبني وينفذ لي رغبة يتهمني الجميع بسببها بالجنون، حين أذكرها أمام أقاربنا تتضايق والدتي وتعاتبني بشدة بعدها، وتقول لي

بأنني أعرضها للحرج أمام أقاربنا، وأن كلامي هذا يجعل نساء العائلة يرونني "هبلة" ولن تفكر أي ممن لديها ولد في تزويجه بيٍ.

هذا كله لأنني أقول أنني لا أريد أن أنجب أطفالاً، لكني أريد أن أكفلهم، لم أكن أجد داعيًا للإنجاب، خصوصًا كلما رِأيت أطفال الشوارع، فلماذا ننجب مزيدًا من الأطفال، إذا كان العالم مليئًا باليتامى؟

كنت أذكر هذا وأنا أتمنى بداخلي أن أجد من يحقق لي حلمي، لكني واثقة أنه لا يوجد رجل يتحمل تلك الأفكار، ولن يوجد.

****

- من المؤكد أنٍ هذا ليس السبب الأساسي لخوفكِ من الزواج؟

- ألا تنسى شيئًا أبدًا؟

- ذلك هو عملي، ألا أنسى تلك التفاصيل الصغيرة التي يفضح تناقضها تلك الرغبات المكبوتة التي يخفيها الخوف والقلق- من شيء ما- في أعماقك، وهذا ما أود معرفته منك، ما الذي يخيفك بالتحديد من فكرة الزواج وتحاولين بذل أقصى جهدك لإخفائه؟

كنت في الثامنة من عمري حين ذهبت في رحلة مدرسية إلى إحدى الحدائق العامة، وبينما كنت أتزحلق في حديقة الألعاب، رأيت من فوق الزحليقة اثنتين من صديقاتي تقفان مع رجل، وكان يفصل بينهما وبين هذا الرجل سور حديدي، لم تستطع كل الألعاب الموجودة أن تصرف فضولي الطفولي عن الذهاب للوقوف معهما.

حين ذهبت، طلب مني الرجل أن أفتح فمي، وبعد أن فتحته بتلقائية، شعرت بلسانه يدخل إلى داخل فمي، لن أنسى تلك اللحظة أبدًا، لم أفهم ما الذي يفعله الرجل، ولكني شعرت بقرف، عدت إلى الخلف بعيدًا عن السور، طلب مني أن أقترب وأفتح فمي مرة أخرى، لكني رفضت، وغمزت لي صديقتاي ـــ اللتان حدث معهما قبل مجيئي نفس ما حدث لي- كي نذهب ، فتركناه وذهبنا بعيدًا.

حاولت كل منا أن تؤكد أن قبلتها كانت الأقصر، وأن الرجل لم ينل من لسانها سوى القليل، كانت كل منا تحاول إقناع الأخريات بأنها بخير حتى تقتنع.

- لم يقبلني سوى مرة واحدة
- لا قبلك مرتين...

أول شيء فعلناه أن ذهبنا إلى الحمام لنغسل فمنا، ظللنا طوال اليوم نشرب مياه ثم نبصقها مرة أخرى، بفطرة طفولية أشعرتنا أننا بذلك نتطهر من الدنس العالق بفمنا والأهم من ذلك حتى لا نصاب بسوء.

- *وما هو السوء الذي ظننتن أنكن ستصبن به؟*
- لا أتذكر ما الذي كان بذهن صديقتي الأخريين، لكني ما كان بذهني أنا أنني أصبت بشيئين.
- *ما هما؟*

كنت صغيرة جدًا وقتها، لم أكن أعرف شيئًا عن غشاء البكارة، لكني كنت أعرف من الأفلام التي أشاهدها، أن هناك أشياء تحدث بين الرجل والمرأة في الغرف المغلقة البعيدة عن الكاميرا، تجعل الممثلة تبكي وتصرخ بعدها، بأنها لم تعد بنتـًا، كنت أدرك أن تلك الأشياء ليست قبلة، لأن معظم الممثلين يحدث بينهما قبلات، لكن تلك القبلة التي قبلها لي الرجل كانت مختلفة عن تلك التي أراها على الشاشة، لأنه أدخل لسانه بقوة حتى التحم مع لساني، ظننت وقتها أنني لم أعد بنتـًا بسبب لسانه.

الأمر الآخر الذي ظننته أنني أصبت بالأيدز، لأنني كنت في ذلك الوقت متأثرة بأحد الأفلام التي أصيب فيها البطل وأصدقاؤه بمرض الإيدز، بسبب علاقتهم بفتيات أجنبيات وتقبيلهم لهن، فظننت وقتها بالأمرين، أنني لم أعد بنتـًا، وأنني أصبت بالإيدز.

وحين عدت من الرحلة، كان الشعور المسيطر على وقتها أكثر، هو الخوف بأني صرت مريضة بالأيدز، لأنني كنت أعرف من الفيلم أنه مرض ليس له علاج، وأن من يصاب به يموت بسرعة، لذلك ظللت طوال الأيام التالية لتلك الرحلة أبكي بسبب هذا الأمر لأنني إذا مت لن يهمني إذا كنت سأموت "بنتا" أم لا، أو إن كنت سأتزوج أم لا، لأنني على أية حال لم أكن سأتزوج في تلك السن الصغيرة، وإذا حدث ومت فلن أصل إلى سن الزواج حتى، لذلك كان خوفي من الموت بسبب الأيدز هو المسيطر على كل أعصابي، فظل همي لمدة أيام طويلة أن أشطف فمي بالماء كثيرًا لأزيل آثار قبلة الرجل.

كما حاولت أن أبتعد عن أمي قدر الإمكان حتى لا تقبلني، وإذا ما اضطررت لتلقي قبلاتها الأمومية التلقائية، كنت أظل أبكي طوال الليل لشعوري بالذنب من كوني ربما نقلت إلى أمي في إحدى القبلات عدوى المرض.

ولكن مرت أيام وأسابيع وشهور وامتحانات وإجازات ولم أصب بشيء، ولأني كنت أعرف من الفيلم أن مرض الأيدز يسبب الموت السريع، تأكدت بعد مرور تلك المدة الطويلة أنني سليمة ولم أُصب بأي مرض، وحين تأكدت من ذلك زال خوفي من الموت، ولكن ظهر خوفي ثانية من كوني لست "بنتــًا"، رغم أن هذا الأمر كان قد مضى عليه وقت طويل.

- ذلك لأن الخوف من الموت أعظم خوف يمكن أن يصيب الإنسان، وإذا سيطر هذا الخوف على أي شخص فإنه يزيل معه أي خوف آخر، ولكن ما إن يذهب هذا الخوف حتى تظهر باقي المخاوف المختفية في اللاشعور على سطح التفكير، في حالتك سيطر عليكِ الخوف من الموت بصورة هستيرية جعلتك لا تتوقفين عن غسل فمك رغم أنكِ حتما كنتِ واثقة أن المياه لن تغسل المرض ولكنه فعل قهري،

ولكن ما إن تأكدت من استحالة إصابتك بالأيدز واستحالة موتك، حتى ظهر على سطح مخاوفك الشعور الآخر من أنكِ لست "بنتـــًا".

- نعم.

- *لكني لاحظت شيئًا في كلامك، أن معظم معلوماتك التي تأثرتِ بها في تحليل ما حدث لكِ، كانت من خلال الأفلام.*

لأني في تلك الفترة من العمر، كان التليفزيون بالنسبة إليّ هو وسيلة التسلية الوحيدة، لم أكن أقرأ وقتها، ولم أكن أخرج كثيرًا لأن والديّ تقليديان إلى حد كبير، ومن هواة الجلوس في البيت أمام شاشة التليفزيون، كانا يكتفيان بفسحة واحدة خلال الشهر ربما أيضًا تأتي بالصدفة.

في تلك الفترة بدأ أخي يخرج مع أصدقائه، لكني كنت صغيرة لأخرج أنا الأخرى وحدي مع صديقاتي، فكنت أجلس لفترات طويلة في المنزل ليس أمامي سوى شاشة تعرض الأفلام، وأفكار تراودني وتتطور إلى مخاوف شديدة، لأن الدنيا كانت ضيقة جدًّا من حولي.

في تلك الحياة المملة التي كانت تزداد مللاً في فترات الإجازة التي تطول فيها مدة جلوسي في المنزل، تعلمت شيئًا جديدًا.

في أحد الأيام، كانا، أخي ووالدي، خارج المنزل، بينما أمي نائمة في سريرها وقت العصر، وكنت أنا كالعادة أجلس أمام التليفزيون أشاهد وحدي أحد الأفلام، تمددت على الكنبة لأشاهده بمزيد من الراحة، تمددت على جانبي، شعرت بشيء ممتع لالتصاق فخذيّ، وكلما كنت أضغطهما على هذا الجزء الذي يقع بينهما كانت تزداد متعتي.

شعرت أنه بإمكاني أن أزيد المتعة إذا تحكمت فيها بيدي، أنزلت يدي، وضعتها بين فخذي وزدت من الضغط فشعرتِ بالمتعة، لم تكفني تلك المتعة، فرُحت أحرك أصابعي، شعرت بأن سائلاً يزداد نزوله كلما حركت أصابعي إلى أسفل وإلى أعلى من فوق ملابسي، فكرت في أنه

يمكنني أن أصل إلى أقصى متعة إذا أدخلت أصابعي من أسفل الثياب، لكن حين أدخلت أصابعي قلّت المتعة. أدركت حينها أنني أتلذذ من فعل ذلك من فوق الثياب أكثر.

عدت لأحرك أصابعي من جديد فوق ذلك الجزء الذي أخبرني زملائي في مدرستي القديمة أنه يجب قطعه، حين تذكرت ذلك أخذت في تحريك أصابعي فوقه من أسفل إلى أعلى بصورة أسرع وكأنني أتمسك به داخل جسدي أكثر، أو كأنني أحصل منه على كافة المتعة قبل أن يصبح خارج جسدي "كما كنت أظن أنا وقتها أن هذا ما سيحدث بي قبل أن أنتقل إلى مدرستي الجديدة".

في بداية فعلي ذلك، كانت آهات صغيرة تخرج مني مكتومة حتى لا يصل صوتها إلى داخل حجرة والدتي، ثم تحولت تلك الآهات الصغيرة إلى آهة مشبعة بأقصى درجات اللذة التي لم أعرفها قبل ذلك، زاد على إثرها السائل الذي لم أكن وقتها أعرفِ عنه هو الآخر شيئًا وأغرقني. أبعدت يدي لِلحظات لآخذ نفسًا عميقـًا لأن آهاتي المكتومة كادت تسبب لي اختناقـًا.

بعد أن استعدت أنفاسي، رُحت أكرر الأمر نفسه مرات ومرات، وأنا سعيدة بأنني اكتشفت شيئًا جديدًا لم يعرفه إنسان قبلي كما ظننت، سألت نفسي عما يكون ذلك الشيء، وما هذا الذي فعلته، لكني لم أضع الوقت للحصول على إجابة، استمتعت بلذة اكتشافي وبمتعة ظننت أنه لن يصل إليها أحد غيري ولا يعرفها أحد سواي.

مارستها هذا اليوم لأكثر من ساعة، لم أبالِ بشدة العرق الذي تصبب مني وقتها، لكني حين أردت القِيام شعرتَ بألم في رجلي لا حدود له، أصبت بـــ "شد عضلي" أعجزني عن التحرك بصورة طبيعية، كنت أشعر بالألم كلما فعلت شيئًا، إذا قمت أتوجع وإذا سرت أتوجع، حتى إذا ما جئت لأجلس كنت أتوجع.

لم أكن أعرف أن هذا الألم يسمي "شد عضلٍ"، ويحدث نتيجة القيام بحركة خاطئة بصورة فجائية، لم أكن أعرف شيئًا عن هذا الأمر، لكني استنتجت أن هذا الألم الذي أصابني كان نتيجة هذا الاختراع الذي مارسته قبل قليل فوق الكنبة، والذي ظننت وقتها أنني أول من اكتشفه في العالم.

ولأن الألم كان لا يحتمل، قلت لنفسي إنه عقاب من الله لأنني فعلت شيئًا حرامًا، لأن هذه المنطقة التي تقع بين فخذي الفتاة منطقة محرم عليها لمسها بتلك الطريقة، أخبرت نفسي أن الله غاضب عليّ وأقسمت أنني لن أفعلها مرة أخرى، أقسمت حتى أضمن أنني لن أفعلها لأنني لم أحنث بقسم أبدا.

لكن بعد أن زال الألم ومضت عدة شهور، لم أستطع المقاومة، مقاومة تلك المادة التي سالت من أسفلي بعد أن رأيت في أحد الأفلام مشهدًا غاب فيه البطل والبطلة في قبلة طويلة، وغابت معهما يد البطل إلى الأسفل، أسفل جسد البطلة.

في البداية ركزت الكاميرا على يديه وهي تنزل ببطء ضاغطة على جسدها، ولكن ما إن دخلت يده أسفل "جيبتها"، حتى ارتفعت الكاميرا لتركز على وجهيهما، زاد الانفعال على وجه البطلة، وتعلقت شفتاها أكثر بشفتي البطل.

علمت حينها أن الجزء الأسفل من جسدي مهم، هذا المشهد علمني ذلك، خصوصًا أنني كنت قد ذهبت وقتها إلى مدرستي الجديدة وتعرفت إلى رجل القضيب من نافذة المدرسة، فربطت الأمور ببعضها. قلت لنفسي وقتها أن الرجل أنزل يديه إلى أسفل ربما ليفعل بالبطلة ما فعلته أنا منذ شهور فوق الكنبة.

ربطت بين ذلك وبين كلمات صديقتي فيما مضى"أن المرأة التي لا تختتن يركبها زوجها يوم الدخلة"، صحت في داخلي وكأنني اكتشفت

أمرًا جديدًا، هذا الجزء فعلاً مهم وإلا فما علاقة الختان بركوب الزوج، كلما حدث معي أمر وأنا صغيرة ربطته بهذا أيضًا.

كنت أقف وأنا صغيرة جدًا مع والدتي في أحد الأتوبيسات المزدحمة، حين امتدت يد بين الزحام وقرصتني في مؤخرتي، توجعت لكني لم أستطع تمييز أي يد من الأيادي فعلت ذلك، ولم تأتني الشجاعة لأخبر والدتي بذلك أثناء وجودنا داخل "الأتوبيس"، لكن ظل بداخلي خوف من أن يكون قد أصابني الرجل بمكروه بفعلته تلك، ففضلت أن أخبر والدتي حتى ينزاح من داخلي هذا القلق.

تشجعت وأخبرتها حين كانت تُحممّني، صدمت وأخذت تعيد لي المشهد بيدها لتعرف كيف فعلها الرجل لَتطمئن، تقرصني وتسألني "هل قرصك هنا؟" أتوجع وأنفي، فتعيد التجربة بعد أن تنزل بيدها أكثر وهي تسألني "هنا؟" أتوجع وأقولِ من الخوف "بل فوق أكثر" ظلت تفعل بي هذا عشرات المرات، وبدلاً من أن أطمئن بكلامي معها، خفت أكثر وشعرت أن مكروهًا أصابني وهي تخفيه عني.

ربطت تلك القصة بكلمات صديقتي وبمشهد الفيلم، ودارت الأفكار في رِأسي، فكرت في الزواج، انفجرت باكية فجأة، قلت لنفسي إني لست بنتــًا، وأنني إذا تزوجت سيكتشف زوجي ذلك بسبب ما فعله الرجل بي في الحديقة، بكيت كثيرًا وأنا أفكر في كوني ضحية ظلم، وأن الرجل فعل بي ما فعله وتركني أعيش في حسرة لأنه لا يمكنني الزواج وإذا تزوجت سيكتشف زوجي هذا ويظل يضربني حتى أعترف له بما حدث لي في الحديقة، وإذا أخبرته لن يصدقني، وربما يقول لأمي وأبي وأخي ويضربونني جميعا.

اشتد بكائي حين فكرت في هذه الأفكار فأخبرت نفسي أن هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا، وأنني لا يجب أن أتزوج، وجدت نفسي بدون تفكير أضع أصابعي بين فخذي بلا مبالاة بوجع فخذي الذي أصابني تلك المرة

التي فعلت فيها ذلك، وكلما حركت أصابعي أكثر وكلما انتهيت من لذة ودخلت في أخرى كنت أشعر براحة غريبة، وكأنني أتخلص من ذنب.

- أو لتشعري بذنب؟

- ولماذا أرغب في الشعور بالذنب؟

- هل كنتِ تظنين وأنتِ صغيرة أن الاستمناء يمكن أن يفقد الفتاة عذريتها؟

-نعم، ظننت ذلك.

- متى؟

- ربما حين ذهبت إلى مدرستي الجديدة.

- وعدت لممارسة العادة السرية بعد انقطاع دام لشهور حين ذهبت إلى مدرستك الجديدة، التي شاهدت فيها رجل القضيب، وفي تلك الفترة عرفتِ من صديقاتك أن الرجل يفض بكارة زوجته بظفر أصبعه الصغير.

- هذا ما حدث بالفعل.

- وهل توقفتِ عن ممارسة العادة بعد أن علمتِ بأمر الأظافر؟

- لا، بعد أن عدت إلى ممارستها تلك المرة بعد الانقطاع، لم أتوقف عن ممارستها مطلقـاً، وكنت أمارسها في تلك الفترة بكثرة.

- وهذا يؤكد كلامي من أنكِ كنتِ تفعلينها لتشعري بالذنب.

- لا أفهم كلامك، ما علاقة ممارسة العادة بأني أرغب في الشعور بالذنب.

- يبدو أن رغباتك في تلك الفترة، ظهرت في شكل استمناء كبديل عن الزواج، لم تستطيعي مقاومته، لكنك حين ذهبتِ إلى مدرستك الجديدة وعلمت أن الرجل يفض المرأة من أسفل بأظافره فتفقد عذريتها، فاكتشفتِ بذلك لأول مرة أن فكرتك عن كون البنت تفقد عذريتها بسبب

قبلة كان خاطئًا، وأن هناك مكانـًـا آخر تفقد منه البنت عذريتها يقع في الأسفل.

ربما فرحتِ قليلا لهذا الاكتشاف، ولكن من المؤكد أن سعادتكِ تلك لم تدم حين ربطتِ بين أظافر الرجل التي تفض غشاء المرأة من أسفل فتفقد عذريتها وبين أصابعك التي كانت تعبث في الأسفل، وربما قلتِ لنفسك إنه إذا كانت أصابع الرجل قادرة على فض البكارة، فإن أصابعكِ ربما فعلت نفس الأمر بك.

ربما شعرتِ حينها بالندم لأنكِ مارستِ العادة ظنـًـا منك أنك لن تتزوجي أبدًا بسببِ القبلة التي ظننتِ أنها أفقدتك عذريتك، فإذا بكِ تكتشفين أن تلك القبلة لن تؤثر عليكِ كفتاة، ولكنها العادة التي تفعلينها بأصابعك والمقابلة لأصابع الرجل في ذهنك، ومن هنا جاء شعورك بالندم.

– فعلاً، كنت أشعر بالندم بعد كل مرة أمارسها فيها، لكني لم أستطع التوقف عن فعلها.

*– هذا لأنه زاد يقينك بأنك فقدتِ العذرية وأنه ما من سبيل إلى الزواج، فأردت الحصول على المتعة بنفسك، لأنه حين يصعب وجود شريك في العلاقة الجنسية فإن الطاقة الجنسية المسماة بـــ " اللبيدو" ترتد وتتجه إلى النفس مرة أخرى***.*

– ولكن ما علاقة هذا بكوني أرغب في الشعور بالذنب؟

– حين عجزتِ عن عقاب الرجل الذي قبلكِ في الحديقة، وعن إخراج مشاعرك السلبية تجاهه، ارتدت مشاعرك إلى داخل نفسك، صرتِ تفعلين ما يتعبك، وصار هذا الذي يتعبكِ مريحًا لأنه يحملك الذنب، لأن فكرة وجود مذنب في حقنا بعيد عن متناول أيدينا، فكرة متعبة جدًّا، لذلك حين نعجز عن الوصول للمذنب فإننا نبحث عن شخص نحمله هذا الذنب.

ولما كان هذا عسيرًا لأن الرجل كان بعيدًا، ولم تجدي مذنبًا بديلاً له، فكرة أن تكوني أنت المذنبة أراحتك، ووجدت قبولا من داخلك لأنك كلما تذكرت موقف القبلة، والاستمناء الذي أضاع عذريتك، والذي كنت تشعرين أن الرجل كان سببًا فيه لأنه لو لم يكن قبّلك لكنت شعرت أنك فتاة طبيعية يمكنها الزواج وما كنت ستأخذين الاستمناء بديلاً عن المتعة.

كل تلك الأفكار التي كانت تتعبك، كنت ترتاحين منها بممارسة مزيدًا من الاستمناء يوصلك إلى اللذة التي تفكرين أنها بعيدة جدًّا عنك ولن تحدث من خلال الزواج، وفي نفس الوقت كان الاستمناء يشعرك بالندم بعد الانتهاء منه فترتاحين لهذا الشعور، وكأنك بذلك تعاقبين نفسك بديلا عن معاقبة رجل الحديقة الذي صار من الصعب الوصول إليه والانتقام منه.

- لم أفكر في ذلك أبدًا!

- *هذا طبيعي، كنت في سن صغيرة وقتها.*

لكني بعدما كبرت نسيت تلك الأمور، ولم أعد أتذكرها إلا في حالات نوستالجيا قوية جدًّا تنتابني، وحينها أشعر أن تلك الأمور التي حدثت لي كنت أفكر فيها تفكيرًا طفوليًا جدًّا، لأني بعدما كبرت وصرت أتعامل مع الرجال في الجامعة، وصرت أعرف الكثير من الأمور عن فتيات كن يفعلن الشيء نفسه وتزوجن وحياتهن مرت بصورة طبيعية جدًّا ، نسيت كل شيء عن تلك الذكريات.

- *نسيتها فقط، ولكنها مترسبة في لا شعورك لأنك تحاولين الهروب منها كلما تذكرتيها.*

- أتقصد أنني مازلت أخشاها؟

- *نعم، ولكن ليس بنفس درجة خوفك وأنت صغيرة، لأنك كما ذكرت بنفسك، حين كبرت صرت تتعاملين مع مشاكل أكبر، كما أن خبرتك نضجت، فتراجع خوفك قليلاً واستبدلته بمخاوف أخرى تتعلق*

بالعمل، ولكنه لم يتراجع تمامًا، وكلما زاد اكتئابك في أمر ما وضاقت الدنيا من حولكِ كلما تذكرت تلك الأمور، لأن المكتئب يريد دائمًا أن يشعر بالظلم من جانب الدنيا كلها، لذلك فهو يبحث عن مبررات تدعم شعوره بالظلم، وكلما كانت تلك المبررات تعبر عن أشياء حدثت له بشكل خارج عن إرادته كلما دعم هذا من شعوره بكونه ضحية لتلك الدنيا الظالمة وهذا يخفف من شعوره بالذنب لتقصيره وفشله في أشياء لها علاقة بمستقبله وعمله أو حياته بصفة عامة.

- أشعر على يديك الآن أنني مريضة بكل الأمراض العُصابية.

- *كلنا مرضى، ولكن ما من أحد يمتلك شجاعة الاعتراف.*

- لكني أمتلك تلك الشجاعة، أنسيت أنني اعترفت لك بكل شيء عن حياتي!

- *هناك الكثير من الأشياء التي لا تزالين تخفينها عني.*

- مثل ماذا؟

- *هذا ما يجب أن تخبريني أنتِ به.*

نعم، ربما أكون نسيت بعض الأمور، في خلال تلك الفترة من حياتي، حدث لي اضطراب لأن جميع من حولي كانوا يعاملونني على أنني طفلة بريئة، وكنت بداخلي على عكس ذلك أشعر أنني لست بريئة وأنهم يجب ألا يعاملوني كذلك بعد الذي حدث لي في الحديقة وبعد ما فعلته بنفسي، كنت أقول لنفسي أنني لست بريئة ولست عذراء، وكنت أشعر بالضيق من والدي كلما ذكرا أمامي أنني لازلت طفلة.

كانت كلماتهما تخنقني، ثم ازداد الأمر سوءًا بعد ارتدائي الحجاب خصوصًا أنني ارتديته كما ذكرت لك في مرحلة كنت أشعر فيها بالغيرة من الفتيات من حولي، لأنهن يحببن ويتكلمن مع أصدقائهن الفتيان في الدروس، بينما أنا، كما أخبرتك قبل ذلك، كان محرمًا على هذا الأمر،

لذلك كنت أقول في داخلي إن هؤلاء الفتيات يفعلن ما يشأن ولا يزلن عذراوات.

- وكنتِ بالطبع تقولين في الوقت نفسه "وأنا لا أفعل شيئًا أريده رغم أني فقدتُ عذريتي" أليس هذا صحيحًا؟

- نعم.

- لذلك كنت تدارين هذا الشعور بمحاولتك نقدهم الدائم واحتجاجك على تصرفاتهن لأنكِ لم تستطيعي أن تفعلي مثلهن، فكان في انتقادك لهن عوض لإشباع رغباتك واستبدال عجزك شعورًا بالفضيلة وهذا ما اعترفتِ به أنت نفسك.

- نعم، اعترفت بذلك، ولكن أقسم لك أن هذا كان يحدث بداخلي رغمًا عني، ولم أقصد أبدًا أن أشعر بتلك الأحاسيس، كما أنني تخلصت منها.

- ولكنكِ لم تتخلصي منها كليًّا.

لا أنا توقفت عن نقد الآخرين، ولم أعد أنتقد أحدًا أبدًا، بعد أن كبرت واكتشفت أنه من الصعب جدًّا علينا أن تبدو هيئتنا نظيفة بملابسنا المتسخة إلا إذا كانت ملابس الآخرين أكثر اتساخا لذلك نعمل دائمًا على نقد الآخرين وإظهار عيوبهم بأعلى صوت لدينا حتى نداري على عيوبنا ونصرف نظر الناس عن انتقادنا.

- لكنك فعلتَ ذلك مع مريم، وانتقدتِها بشدة أمامي حين تذكرتِ أنها أخذت قصائدكِ وأعطتها لمحسن على أنها قصائدها، رغم أنكِ لم تجرئي على نقدها وقت أن كانت تروي لك ما حدث.

- فعلت ذلك لأنني أحب مريم وأخاف عليها، فلولا قصائدي ما كان حدث لها ما حدث.

- الأمر كان سيحدث سواء أعطته مريم قصائدك أم لم تعطه، ألم تقولي من قبل إن الرغبة في النسيان أقوى من أية رغبة؟

- بلى.

- إذن أنت واثقة من أن قصائدك كانت وسيلة لا أكثر، وإن لم تكن موجودة لم يكن هذا ليغير في الأمر شيئًا، وربما ضيقك من أن مريم فعلت ذلك نابع من رغبة بداخلك لتفعل ذلك.

- لا أفهم، ولماذا أرغب في أمر كهذا؟

- قصائدك هي رغباتك التي تكتفين بالتعبير عنها بالكلمات، وجسد مريم هو الجسد الذي ينفذ لك رغباتك والذي تتمنين أن تحلي به لكي تجربي المتعة التي تحلمين بها، لذلك كلما مارست مريم الجنس أردت أن تكوني مكانها، ولأنك تعجزين عن نقد مريم كبديل لإشباع رغباتك كما كنت تفعلين في السابق مع الفتيات في المدرسة، فإنك تجدين أخذها لقصائدك ونسبتها إليها حجة قوية لتنقديها بشأنها.

- ما هذا الذي تقوله، أنا أحب مريم جدًّا، ولا أفكر فيها بتلك الطريقة أبدًا.

*- لا، فكرت فيها كذلك، فالحب لا يمنع مشاعر الحقد، وهذا ما نسميه بازدواجية الشعور، وهو الشعور بالحب والكره الشديد لنفس الموضوع***.*

- لا أريد التفكير في ذلك، كما أنني لست بذلك السوء.

- يجب أن تمتلكي الشجاعة لتواجهي نفسك، اهدئي واخبريني بالأمر الآخر الذي تخفينه في علاقتك بمريم.

- لا أخفي شيئًا أبدًا، كما أنني أحب مريم ولا أصدق تفسيرك لعلاقتي بها على هذا النحو، كما أنني لدي عمل في الصباح وأنت أخذت من وقت نومي كثيرًا، سأتركك الآن لأنني لم تعد بي طاقة لأسمع هذا التخريف الذي تقوله، فلتصبح على خير.

***

الفصل الرابع

- تزوجني!
- لكن ...
- اشتر لي فستان أسود حتى أرتديه يوم زفافنا.
- لم يحدث من قبل أن ارتدت عروس الأسود، فهو لون حداد.
- بل لون سعادة، فقد عرفتك في الظلام، وكل لقاء بيننا كان يسبقنا الليل إليه، فلماذا أرتدي لونـــا آخر إذا كان الأسود الأجدر في التعبير عن حالتنا؟

- نحن لا نرتدي ما يعرينا، بل نرتدي كل ما نود أن يخفي بنا شيئًا لا نريد أن يعرفه عنا الآخرون، فالفقراء يرتدون كل ما في خزانة ثيابهم دفعة واحدة حتى يثبتوا غناهم، أما الأغنياء فلا يحتاجون دليلاً على غناهم لذا فهم أقل ارتداءً لكل ما يشير إلى الغنى.
- لكني لا أريد أن أخفيك في ثياب.
- الأشياء التي نخفيها هي الأجمل، فلا أحد يعلن عن حبه أبدًا، لكنهم دائمًا ما يعلنون عن يوم الزفاف.
- ذلك لأن أجمل ما في الحب أن يظل متخفٍ بين أحضان حبيبين لفرط عشقهما، لا يتركان له منفذاً يتسرب منه إلى غيرهما، أما الزواج فهم يعلنون عنه حتى يفضحون حبًّا تأبى أعرافنا أن يظل متخفيًّا عنها، لذلك يحيا الحب في اللا زمن ، بينما الزواج محاصر بساعة يحتفظ بها الجميع فيما عدا الحبيبين .
- ولماذا تريدين فضح حبنا؟!
- ....
- أتعرفين أنني ظننت أنك لن تطلبيها مني أبدًا.
- لماذا؟

- لأنك لم تطلبيها مني مرة واحدة في عمر حبنا الذي جاوز الخمس سنوات، لذلك لم يدهشني شيء سوى تلك الكلمة، لماذا تطلبينها الآن؟

- أخشى ألا تفهمني.

- سأفهمك.

- بالأمس حين بلغت نشوتنا مداها لم تتركني وتشعل بدلا مني سيجارة، لكنك ارتميت بين أحضاني وبكيت بكاءً لم أتوقعه منك.

- وماذا في ذلك؟

- الرجل لا يبكي بين أحضان امرأة إلا إذا صار أسيرها، وأنا لن أرضى لك ذل الأسر، فطلبت منك أن تتزوجني حتى أصبح أسيرتك. فإن لم ترضَ الزواج بي، سيكون في ذلك إهانة تسعدني حتى يعود لك كبرياؤك.

- لكن هناك شيئًا آخر يجعل الرجل يبكي بين أحضان حبيبته.

- ما هو؟

- إذا أراد أن يعتذر لها عن شيء فعله أو سيفعله.

- ولكنك لم تفعل شيئًا يستدعي الاعتذار.

- لكني سأفعل.

- ماذا ستفعل؟

- سأتزوج غدًا.

***

يااااالله، أتساءل وأنا أمسك بتلك الورقة المكتوب فيها هذا الكلام، هل أنا الذي كتبته!!! كدت أنسى تلك القصة التي كتبتها منذ أكثر من عام، كانت آخر ما كتبت قبل أن أبدأ صفحات الرواية الجديدة وأتركها، ولا أتخيل الآن وأنا أقرأها أنني كتبت كلامًا كهذا كأني كنت شخصًا

آخر، كنت في يوم ما أستطيع أن أكتب واليوم لا أستطيع حتى أن أصدق أنني كتبت كلامًا مثل ذلك.

هل تضيع الأشياء حين نفقدها أم حين ننسى أننا كنا نمتلكها!!؟

سأطوي تلك الورقة أيضًا، فلا فائدة من الندم على ضياع شيء لم يعد بإمكاننا امتلاكه مرة أخرى.

- لماذا كتبت تلك القصة؟ أنا متأكد الآن أنك لا تكتبين سوى ما يعبر عن مشاعرك، وأنت لم تروِ لي أن شيئًا كذلك حدث معك.

- لا، تلك المرة لم تكن لي، بل لمريم، وليس الأمر كما تظن.

كتبت ذلك قبل أن يحدث، كتبته قبل أن يتزوج إلهامي، أقسم لك أنني لم أكن أعلم عن أمر زواجه شيئًا، فقط ذهب خيالي بعيدًا جدًّا لأصنع قصة بها مفارقة لا يتوقعها أحد، ربما فعلت ذلك لأشبع ساديتي في تعذيب امرأة أخرى لأنني لم أملك ترف الحب مثلما امتلكت، ولم أملك ترف الوقوع في الخطأ مثلما فعلت حتى ولو كان ذلك مجرد حبر على ورق.

- أو قصة حقيقية. ألم تكن القصة خاصة بمريم؟

- استوحيتها فقط من قصة مريم، لكني كتبتها قبل أن يحدث هذا لمريم.

- أنت تكتبين رغباتك، كنت ترغبين في حدوث ذلك، ترغبين في تعذيب مريم التي تمتلك ترف الحب وترف الوقوع في الخطأ اللذين لا تمتلكينهما.

- بالطبع لا، أنت تقول كلامًا غير معقول، أقسمت لك أنني لم أكن أتوقع حدوث ذلك في الواقع، ولم أكن أتوقع أن يحدث هذا لمريم بالذات، حتى أنني تعجبت من رد فعلها حين قرأتها، لأنني لم أكن أقصد شيئًا من وراء تلك القصة.

"ما تلك القصة المملة، هذا لا يمكن حدوثه في الواقع" قالت مريم في غضب...

- الواقع مليء بتلك القصص.

- لا يمكن، إن رجلا يبكي بين أحضان امرأة لا يمكنه أن يصبح نذلا معها إلى تلك الدرجة، فالرجل الذي يترك امرأة بعد أن يورطها في قصة عشق، لا يتخلى عنها وحدها إنما يتخلى عن رجولته معها.

صمت حينها تقديرًا لحالتها خصوصًا أنها كانت الفترة التي ابتعد فيها إلهامي فجأة عنها بعد ليلة كاملة من العشق الهاتفي، وبعد أن ظل يبكي على شيء لم تفهمه مريم.

كانت القصة تشبه بعض تفاصيل علاقتها مع إلهامي في ذلك الوقت، كانت تشبهها إلى درجة أن مريم خشيت أن تكون نهاية علاقتها معه مشابهة لتلك القصة، فاعترضت بعنف على القصة وكأنها تعترض على ما يمكن حدوثه في الواقع، فبإمكانها التحكم على الأقل في شخصيات ورقية، عكس الناس الحقيقيين الذين لا يمكننا أبدًا التحكم في تصرفاتهم المتناقضة ولا يمكننا معرفة لماذا يتصرفون بجنون ثم يخبروننا بأن هذا هو العقل وتلك هي الحياة.

كم شعرت بضعفها حينها، ضعف ذكرني بهذا الضعف الذي كانت عليه حين تكلمنا لأول مرة.

حين كان عمري ١٩ عامًا، ذهبت لأتدرب في إحدى الجرائد المستقلة، عملت حينها في صفحة المرأة التي لم تكن موضوعاتها في حاجة إلى نزول مصور معي، مجرد موضوعات نسائية، كنت حينها أعرف مريم "من بعيد لبعيد"، أراها تتحرك في المكان بطريقة توحي بثقة زائدة في النفس أو بغرور، كما فسرت أنا الأمر وقلت لنفسي وقتها إنها فتاة مغرورة بجمالها لأنها كانت جميلة جدًّا، شعرها كان يغطي أكثر

من نصف ظهرها وجسدها الطويل يتناسب مع بروز مناطق الأنوثة في جسدها .

في البداية ظننتها محررة مثلي، لكني عرفت بعد ذلك أنها مصورة فوتوغرافية، كانت نظرة الصحفيين في الجريدة إليها لا تختلف عن نظرتي كثيرًا، كانوا يرونها مغرورة لأنها لا تتكلم مع المتواجدين كثيرًا وتكتفي بعملها.

تغيرت نظرتي إلى مريم حين تعاملت معها، بعد أن انتقلت إلى الصفحة الأخيرة التي تعتمد على القصص الإنسانية وتمثل الصورة الفوتوغرافية فيها شيئًا هامًا لا يمكن الاستغناء عنه.

في البداية حين أخذت تصريح التصوير من رئيس القسم، تضايقت حين علمت أن مريم هي التي ستأتي معي، قلت في نفسي كيف سأتعامل مع تلك الفتاة المغرورة طوال الطريق، تضايقت أكثر حين نزلنا من الجريدة وعلمت أننا سنتنقل عبر سيارتها، قلت في نفسي إنها حتمًا ستشبع غرورها حين تشعرني أنها تمتلك سيارة في حين أنني لا أمتلك سيارة مثلها.

لكنها حين فتحت لي باب السيارة وكان على المقعد أشياء تخصها، أخذت في إبعادها وهي تعتذر لي عن فوضى سيارتها، شعرت أنني ظلمتها لأنه ما من أحد مغرور يعتذر عن عدم كمال شيء يمتلكه بل هو دائمًا ما يتعامل مع الأشياء التي يمتلكها باعتبار أنه لا مثيل لها في الدنيا، وأنك إذا ما صادفك حظك واضطررت لاستخدام شيئًا يخصه فإنك يجب أن تقبل يدك باطنـــًا وظهرًا لأنه سمح لك بهذا.

رغم تلك التفصيلة الصغيرة التي كسرت حدتي في التعامل مع مريم بناء على حكم مسبق، إلا أنها ظلت صامتة طوال الطريق، فتجاهلتها أنا الأخرى وأخرجت يدي من النافذة واتجهت ببصري لأتأمل الطريق.

بعد أن أنهينا العمل سألتني عن مكان بيتي لتوصلني إليه، اعتذرت إليها بأنه لا حاجة لذلك، غير أنها أصرت فأكملت الطريق معها. شعرت حينها أنها مجنونة، قلت في نفسي إنها إذا كانت في المرة السابقة ظلت صامتة طوال الطريق، ولم تحاول حتى أن تفتح معي حديثًا يبين لي على الأقل أنها ليست متعالية عليّ بسبب الفارق الطبقي بيننا، فلماذا تلح عليّ كي توصلني إلى منزلي؟

حين ركبت معها تلك المرة، فتحت مُسجل الموسيقى، مرت أغنية واثنتان وأنا أتابع الطريق مستمتعة بانطلاق الهواء مع انطلاق صوت الأغاني قبل أن يختلط معهما صوت آخر، صوت بكاء. نظرت إلى مريم فوجدتها تبكي.

- أنتِ تبكين؟ سألتها مندهشة...

أسرعت مريم لتمسح بأصابعها دموعها في خجل.

- تلك الأغنية تبكيني، هذا كل ما في الأمر.

"أهواك ولي قلب، بغرامك يلتهب، تدنيه فيقترب، تقصيه فيغترب، في الظلمة يكتئب ويهدهده التعب، فيذوب وينسكب كالدمع من المقل. أهواك. أهواك، أهواك بلا أمل".

كانت كلمات الأغنية تتردد بصوت فيروز القوى، وبصوت عالٍ أيضًا، ومعها كانت تزداد دموع مريم ...، حين رأيت ذلك تحركت يدي بصورة تلقائية لتوقف المسجل "لا حاجة بنا لسماع أغنية تحزنكِ هكذا"

- لا تفعلي ذلك مرة أخرى. قالت مريم في عصبية وهي تعيد تشغيل المسجل...

شعرت حينها بالخجل، نظرت ناحية النافذة من جديد متمنية أن ينتهي الطريق بسرعة حتى أتخلص من هذا الموقف الذي أشعرني بإهانة.

غير أني وجدتها فجأة بعد انتهاء الأغنية تعتذر لي، خجلت لأني تضايقت من رد فعل عصبي لفتاة منهارة، رغم أنه كان من المفترض بي أن أتحملها وأحاول التخفيف عنها رغم حدتها معي، لا أن أشيح بوجهي عنها وأتركها تبكي. نظرت إليها وسألتها عما يبكيها مرة أخرى.

- أشعر بضيق شديد، لكني لا أعرف ما سببه، هل لديكِ شيء الآن؟

هززت رأسي نافية، فقالت في رجاء "أريد أن أذهب لأي مكان وليس هناك من أحد يذهب معي، وأشعر أنني لو جلست وحدي وسط الناس سأبكي، هل يمكنك أن تأتي معي؟"

رغم أنني كنت متأخرة على المنزل، لكني وافقت وذهبت معها، كنت أشعر بها ولم أرغب في تركها وحدها في تلك الحالة، فكثيرًا ما كنت أشعر بالضيق والرغبة في البكاء، ولا أجد أحدًا إلى جواري، في تلك اللحظة اضطر للسير وحدي في الشوارع وأحيانًا أبكي رغمًا عني لأن شعوري بالوحدة يضاف إلى مشاعر الضيق فلا أستطيع التحكم في دموعي.

لذلك لم أرغب في ترك مريم هكذا، ذهبت معها إلى أحد الكافيهات في جامعة الدول، سألتني عمّا أود شربه، رفضت طلب أي شيء بعدما تذكرت أنه ليس معي أموال كافية أسدد بها الحساب، ونحن لم نكن أصدقاء إلى الدرجة التي أتركها تسدد حسابي، ولكنها أصرت على أن تعزمني على شيء، صمت بعدها خجلاً من الموقف وصمتت هي أيضًا.

قطع صمتنا انطلاق أغنية "أهواك" في الكافيه، نظرت إليها في ترقب وأنا أبتسم، فضحكت وهي تقول "ما هذا الحظ، تلك الأغنية تذهب خلفي أينما ذهبت"

وجدت تلك الفرصة مناسبة لسؤالها عن سبب بكائها.

صمتت. فقلت: أتحبين؟

لمعت في عينيها بسمة حزينة وهي تسألني: لماذا توقعتِ هذا؟

- كنتِ تبكين على "أهواك بلا أمل".

ابتسمت مريم وهزت رأسها بالإيجاب، فتشجعت لأسألها عمن أوصلها إلى تلك الحالة.

- أتعرفين إلهامي عامر؟

سرت في جسدي قشعريرة حين سمعت اسمه، لم أتوقع أن تحب فتاة في جمال مريم رجلاً كإلهامي يكبرها بـــ ١٥ عامًا، حاولت أن أتدارك ارتباكي بتوجيه سؤالاً إليها حتى وإن كنت أعرف إجابته.

- رئيس قسم الثقافة؟

هزت رأسها بالإيجاب.

- ولكنه يكبرك بكثير من السنوات، أعرف أنه في أواخر الثلاثينيات من عمره، وأنتِ عمرك ...

توقفت حينها لتخبرني عن عمرها.

- عمري ٢٢ عامًا.

- لماذا إذن تورطين نفسك في حب لرجل يكبرك بكل هذا العمر؟

- أنني أحبه.

- وما الذي كان يبكيكِ؟

حين سألتها هذا السؤال، لم أكن أتخيل أن تكون إجابتها هي تلك المرأة التي رأيتها تجلس صباح ذلك اليوم مع إلهامي حين مررت بالصدفة بجوار مكتبه. لم تكن امرأة جميلة على الإطلاق، لم يستطع دخان السجائر التي تشربها بكثافة أن يخفي ملامح وجهها.

- وكيف عرفتِ أنها تدخن بكثافة إذا كنتِ مررتِ بالصدفة؟

- مررت أكثر من مرة، في أوقات مختلفة ووجدتها تدخن، لم يكن الأمر متعمدًا.

لم تكن المرأة جميلة، كما أنها كانت مستفزة، ترتدي بلوزة مفتوحة جدًّا على الصدر بشكل لا يليق مع طبيعة صدرها الكبير أو مع طبيعة تواجدها في جريدة على الأقل.

أخبرت مريم أن هذا الموقف لا يستحق كل هذا البكاء، وأنها أجمل كثيرًا من تلك المرأة.

- لماذا يجلس معها لأكثر من ساعتين، ما الذي كانا يتحدثان فيه كل هذا الوقت، في حين أن آخر مكالمة كانت بيننا منذ يومين، وكلما كلمته وعاتبته يتحجج لي بالعمل، مؤكد أن بينه وبين تلك المرأة علاقة ما!

رغم محاولات كثيرة لإقناع مريم أنها أجمل بكثير من تلك المرأة، وأن تلك المرأة لو وضعت في مقارنة مع مريم فلن تساوي شيئًا، ولكن بعد كل هذا ظلت على موقفها من الشك.

فالحب تعلُق يجعلنا ساذجات إلى درجة أننا نغار على من نحب من ملكة جمال، وفي الوقت ذاته نغار عليه من امرأة قبيحة، لأنه يجعلنا حمقاوات فنتخيل أن من نحب هو الرجل الوحيد على سطح الكرة الأرضية وأن عيون النساء جميعهن تتجه نحوه، رغم أننا أنفسنا لم نكن لننظر إليه لولا قانون المصادفة.

بعد تلك المرة تغيرت نظرتي لمريم تماما، خصوصًا بعدما عرفت منها سبب تجنبها الخوض في الكلام مع الصحفيين في الجريدة، فقد كانت تخشى تكوين صداقات من داخل هذا الوسط الذي لا يكف ليل نهار عن النميمة، لأنها لم تكن تريد أن يتكلم عنها أحد خصوصًا أنها تحب شخصًا في نفس مكان عملها، لذلك بعدت عن صداقة الجميع تجنبًا للمشاكل.

مريم فتاة متحررة إلى حد كبير، الظروف التي نشأت فيها ساعدت في تحررها، كان والدها مصورًا بالإضافة إلى كونه فنانـــا تشكيليًا

واسع الثقافة، كان مؤمنـــًا جدًّا بالحريات، لم يكن يقيد مريم بتلك الأشياء التي قيدتني بها أسرتي، لكنه على العكس كان يصادق زملاءها الفتيان الذين كانوا بدورهم يحبون والدها جدًّا ويعتبرونه أبا لهم، وبالتالي كانت مريم بالنسبة لهم خطا أحمر لا يمكن العبث به.

كما كان والدها يحترم موهبتها جدًّا، منذ أن بدأت في الظهور وهي طفلة ترسم كل ألعابها وكل شيء تحبه، وحين نضجت مريم وبدأت تشعر بأنوثتها ولم تجد وسيلة في الرابعة عشر من عمرها للتعبير عنها سوى في أجساد عارية لم يعترض والدها على ذلك. على العكس، ابتسم حين رأى أول لوحة لها لفتاة عارية تنطق اللوحة برغباتها، وأخبرها ًأنها كبرت.

على العكس كانت والدتها، لم تكن ترغب في أن تصبح مريم مثل أبيها، خصوصًا بعدما رأت أن الفن التشكيلي في مصر لا يعود على صاحبه بشيء، كما أن أغلب الخلافات التي كانت تحدث بينهما، كانت بسبب نقص دخل والد مريم عن احتياجات البيت، ووصلت المشاكل إلى الذروة، فحدث الطلاق بينهما، وانتقل والد مريم للعيش في شقة قديمة كانت لوالدته، ثم مات بعدها بعام، وكان لموته هذا تأثير كبير في حياة مريم التي حمَّلت والدتها ذنبًا كبيرًا لأنها كانت سببًا في أن يعيش والدها آخر سنة من عمره بعيدًا عنها.

رغم أن مريم كانت تشعر بكل ذلك، إلا أنها لم تستطع أن تصارح والدتها به، وكتمت كل تلك المشاعر بداخلها، وانطوت على نفسها وزادت انطوائيتها أكثر حين تزوجت والدتها بمصطفى مدرس الرياضيات الذي كان يعطي مريم درسًا خصوصيًّا في المنزل وانتقلوا بعدها للعيش في منزله في العجوزة بعد أن كانا يعيشان في شقة والدها في شبرا.

ولأن مصطفى كان قد تزوج أكثر من مرة ولم يرزق بأطفال، اتخذ مريم ابنة له، فكان يلبي كل احتياجاتها التي كانت تخجل من طلبها. تكفل بمصاريف كليتها الخاصة، واشترى لها سيارة في سنة دراستها الأولى بالجامعة، لكنه رغم ذلك لم يستطع أن يعوض مريم عن غياب والدها، وكانت هي على الجانب الآخر باردة جدًّا في مشاعرها تجاهه.

كنت أحسد مريم على جمالها وشكلها الأنثوي، قبل أن أعرف أن هذا تحول إلى نقمة على يد والدتها، التي كانت تتعامل مع مريم باعتبارها الفتاة الجميلة الكبيرة "ألا تشعرين أنك كبرت على الجلوس على حجر والدك؟" تعلق والدة مريم بتذمر.

- مازلت صغيرة، أليس كذلك يا أبى؟

- مهما كبرت، ستظلين طفلتي.

كانت والدتها تغتاظ من مثل تلك الأمور، لأنها كانت تحاول دائمًا أن تكبِّرها قبل الأوان، كانت تحلم لها بعريس غني، وحياة مرفهة، لم تكن لها مع والدها، بينما كانت أحلام مريم أكبر من ذلك بكثير.

رغبت مريم في دخول كلية الفنون الجميلة حتى تحقق حلمها في أن تصبح فنانة ناجحة وتعوض أبيها عما أخفق فيه، ورغم كل خلافاتها مع والدتها التي رفضت فكرة أن تكون ابنتها فنانة مثل والدها الفاشل، والتي هددتها أيضًا بألا تمنحها مليما واحدًا من أموال زوجها إذا ما فكرت في الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، ورغم عناد مريم، إلا أنها فكرت أنها تحتاج إلى تلك الأموال حتى لا تنشغل عن حلمها بالبحث عن طريقة لتسديد مصروفاتها، كما أنها فوجئت بعد كل الخلافات التي حدثت بأن مجموعها في الثانوية العامة لا يدخلها الفنون الجميلة ففكرت أن تدخل كلية فنون تطبيقية في جامعة خاصة وتتعلم التصوير مثل والدها وتعمل فيه، لأنه على أيامها صارت هناك جرائد خاصة تدفع كثيرًا للمصورين.

رفضت والدتها في البداية لأنها كانت تريد لابنتها أن تستغل جمالها وتعمل كممثلة تتزوج منتجًا أو مخرجًا مشهورًا، ولكن مريم نجحت في إقناعها بأن عملها كمصورة قد يفتح لها مجال العمل في السينما.

وقبل أن تتخرج مريم بعامين، حين كان عمرها ١٩ عامًا، ذهبت لتعمل في الجريدة التي ذهبت لأتدرب بها، وتعرفت فيها على إلهامي أيضًا.

لم تكن مريم صادقة بالطبع فيما حاولت إقناع والدتها به، من كونها ستعمل مصورة صحفية لأن الصحافة ستفتح لها باب السينما كما تمنت والدتها، ولكنها ذهبت لتعمل فيها من أجل التعرف على عالم الفنانين والرسامين والمثقفين. ولأن إلهامي كان رئيس قسم الثقافة، فهو أول من حاولت التعرف عليه، ولكنِ الأمر انقلب إلى شيء أخر.

رغم ما كان معروفـًا عن إلهامي من كونه زير نساء، إلا أن مريم لم تخشِ التقرب إليه. في بداية علاقتهما حدثت مشاكل كثيرة كتلك التي روتها لي مريم، كانت تغار عليه بشدة، وكان أكثر ما يرهقها أن تكتم الغيرة بداخلها لأنها كانت تشعر أنه ليس من حقها أن تغار عليه، أو بمعنى آخر كان إلهامي يشعرها أنه ليس من حقها ذلك، كان يشعرها أن ما بينهما ليس سوى الجنس الذي علمها ممارسته عبر الهاتف، لم تكن مريم تعرف هذا النوع من الجنس ولم تكن قد جربته من قبل، سواء هذا أو أي نوع آخر، ولكنها رضيت بأن تفعل ذلك مع إلهامي.

لم تكن تتخيل، قبل أن تتعرف إلى إلهامي، أن تسمح لشخص ما أن يسبها وأن يصفها بالعاهرة من أجل أن يحصل على متعته، ولكنها أحبته، وكانت تخشى إن رفضت فعل ذلك معه أن يفعل ذلك مع غيرها.

- أترضين أن تكوني لبؤتي.
- ماذا تعني تلك الكلمة؟
- أن تكوني فتاتي التي استغنى بها عن نساء العالم جميعهن.

- أحقـــًا، ستكون لي وحدي!

- إذا رضيتِ فأنا لك.

وافقت، كانت تفعل ذلك معه في البداية وتشعر بندم بعدها، ولكن شيء فشيء لم تعد تشعر بندم، كانت تشعر بلذة هائلة حين يسبها، وكانت فرحتها لا توصف حين أخبرها أنها أصبحت عاهرته ولبؤته وحبيبته.

انتفضت مريم سعادة حين سمعت كلمة "حبيبتي" من إلهامي، لأنها لم تكن تتخيل أن تسمعها منه في يوم ما، خصوصًا أنه طالما قال لها إنه لا يوجد شيء اسمه الحب، وأنه بعد تعرضه لكثير من خيانات النساء في حياته لم يعد مقتنعًا بأن يقول لأي امرأة كلمات الحب.

سعدت مريم لأن كلمة "حبيبتي" خرجت منه صادقة، لأنه لم يقلها بسهولة ولكن بعد مرورِ عام ونصف من علاقتهما. كانت تشعر بها، وكان شعورها هذا يصبِرها على أي فعل يضايقها منه، ولكنها كانت أجمل حين سمعتها منه، وتأكدت أنه يحبها حقـــًا، لأنه لم يكن مضطرًا لقولها حتى يحصل على ما يريد، فقد كانت مريم تمنحه هذا دون انتظار مقابل.

أصبح من حقها أن تغار عليه، بعد أن تأكدت من أنه يحبها ويضعف أمامها، خصوصًا بعد أن عرف أنها ليست من نوع النساء اللاتي يستخدمن الرجال في حياتهن طريقـــًا لأحلامهن، وزاد تأكده حين كان يعرض عليها كثيرًا من العمل الذي يجلب لها أموالاً أكثر من عملها في الجريدة، وكان يخبرها بأنه يريد مساعدتها لأنه يحبها، وكانت ترفض وتخبره بأنها لا تريد دخول المصلحة في علاقتهما.

- ليست تلك مصالح، أنا أفعل ذلك مع الجميع.

- لكني لست كالجميع، أنا حبيبتك.

- ولأنكِ حبيبتي، أريد أن أقدم لكِ ما في صالحك، فبطريقتك تلك لن تتقدمي خطوة في مستقبلك.

- لا أريد هذا منك أنت بالذات، أرجوك لا تشوه علاقتنا بالمصالح.

- أنتِ ساذجة.

كانت تلك الكلمة تحزن مريم كثيرًا، فتصمت لأن إلهامي لا يتفهم وجهة نظرها من أنها تريد أن تحافظ على علاقتهما بعيدًا عن علاقات المصالح التي تشوه أية علاقة إنسانية، ولكن إلهامي كان يفهم صمتها فيتدارك الموقف "أحبك".

حين كانت تسمع تلك الكلمة، كانت تتأكد من أنها فعلت الصواب حين لم تسمح للمصالح بالدخول في علاقتهما، وأن إلهامي سيظل يحبها طالما أن علاقتهما كانت خالية من أية مصلحة.

لذلك ومنذ اليوم الأول لحبها له، جعلت فكرة الزواج به خارج حساباتها. فالزواج بالنسبة إلى رجل مثل إلهامي، لم يتزوج رغم تقدمه في العمر، علاقة مصالح، ليس لها معنى، وتدمر أي حب. كما أن المرأة من وجهة نظره في سعي دائم نحو الرجل للإيقاع والزواج به، فأخرجت تلك الفكرة من حساباتها وكانت تشعر بإهانة إذا ما راودتها بينها وبين نفسها.

كانت تستمتع بفكرة أن تمارس الجنسٍ معه عبر الهاتف بدون أن تشعر أو تشعره، أنها تنتظر على ذلك مقابلاً... الزواج.

فقد كانت طوال عمرها تشعر أن الزواج عملية بيع، فوالدتها كانت تسعى دائمًا للخروج بها إلى الأماكن التي يذهب إليها الأغنياء وتحرص على مخالطتهم حتى تجد لمريم عريسًا غنيًا يعجب بجمالها. كانت مريم تفهم تصرفات والدتها حين تشتري لها فستانا عاريًا يبرز مفاتنها لتحضر به أحد الأفراح، كانت تتضايق من تلك التصرفات وترفضها، وصارت

تكره شعورها بأن جسدها سلعة تباع بمهر عال، لذلك وجدت مريم ما تريد مع إلهامي، فمن جهة هو يمثل الحب بدون مقابل، الجنس بدون شعور بأنها تمنحه لمن يدفع مهرًا أعلى، ومن جهة أخرى كانت تشعر بأنها تنتقم من والدتها التي تحاول أن تتدخل في حياتها دائمًا.

استمرت علاقة مريم بإلهامي لسنوات، كان حبها له يزيد رغم كل الخلافات التي كانت تنشأ بينهما بسبب طبيعة شخصية إلهامي الذي كان مثل كثير من الرجال، يقترب من امرأته حين تبتعد عنه، وحين يشعر بأنها ملك يديه يبتعد هو عنها. رغم أن مريم فهمت شخصية إلهامي، كانت تحاول أن تتعامل معه بنفس طريقته.

تضغط على نفسها أحيانا ولا تكلمه لفترات طويلة لأنه أهملها ولم يسأل عنها، فلا تجيبه من أول مرة حين يتصل بها حتى تشوقه إليها وتعاقبه على بعده عنها، إلا أنها لم تكن تستطيع الاستمرار في ذلك كثيرًا، ودائمًا ما كان يسقط عنها قناع اللامبالاة التي تحاول إظهاره أمامه مع أول "أشتاقك" يقولها لها بحنان، فتعود للتعامل معه باهتمام زائد، ويعود هو من جديد للتعامل معها بصورة عادية جدًّا.

في تلك الحالة من الشد والجذب نما حبهما، لم يكن أي شاب قادرًا على أن يلفت نظر مريم مهما كانت وسامته، ولكنها أحيانـــا كانت تتعمد التكلم مع الرجال حين يكون حاضرًا، كانت ترى في عينيه غيرة وتتلذذ بهذا الشعور الذي ينعكس على أفعاله، فيكون الشيء الأول الذي يفعله حين ترحل، أن يتصل بها ليخبرها بأنها كانت أجمل فتاة في العالم هذا اليوم.

أصبحت مريم تفعل ذلك باستمرار، بعد أن تأكدت أن الغيرة هي أقوى المنبهات التي تذكر الرجال بأنهم يعرفون امرأة لها جمالها الخاص الذي يتهافت عليه الرجال الآخرون، ولكن الرجل كثيرًا ما ينسى ذلك لأنه يشعر بامتلاك تلك المرأة، والشعور بامتلاك أي شيء يفقده أهميته،

فيركض الرجل خلف النساء طالما أن حبيبته في يده، ولكن حين يشعر أن هناك من يتربص بأملاكه يحارب من أجل الحفاظ عليها أكثر من محاربته من أجل كسب امرأة جديدة.

أدركت مريم ذلك جيدا، وأحبت لعبة الشد والجذب بينهما، رغم ما أضاعته من وقتها وأعصابها بسبب تفكيرها فيه في أثناء غيابه عنها، ورغم ما أضاعته من عمرها من أجل انتظار مكالمة هاتفية تزيل كل الخلافات بينهما، ويتحول فيها الهاتف إلى فراش، ويتحول إلهامي إلى رجل حنون جدًا وتتحول مريم إلى عاهرة خاصة بإلهامي وحده تستمتع بإهانته لها وتطلب منه أن يزيد من سبها بألفاظ جنسية. كنت أتعجب أحيانـًا من فكرة أن تسمح امرأة لرجل بسبها بتلك الألفاظ التي تذكرها مريم، وتجد في ذلك متعتها.

- هذا نوع من المازوشية، فقد تضعف المازوشية والسادية إلى حد الاكتفاء بالشتائم***

- أدركت ذلك، لكني لا أستطيع استيعابه.

كانت مريم في بداية علاقتهما، تتضايق منه حين تنتهي شهوته فيتركها ويغلق معها الهاتف، كانت تشعر أنها عاهرة في نظره يأخذ منها متعته ليس أكثر، كانت تخشى ألا يكون هناك من أمل ليحبها مثلما تحبه، لكنه تحول إلى شخص آخر بعد أن أحبها، كان من الممكن أن يمارس معها الجنس عشر مرات في مكالمة واحدة ولا يغلق قبل أن يخبرها بأنه يحبها.

تعلمت مريم على يديه كيف تكون عاهرة، وأحبت عهرها معه بعد أن أدركت أنه يحبها حين تكون في أكثر لحظات غنجها، كانت تردد كلماته دائمًا أمامي: "الأنثى بحق يجب أن تكون عاهرة مع حبيبها" ثم تضيف من عندها: "كل امرأة بداخلها عاهرة، وهناك رجل واحد في

مكان ما، هو الذي يستطيع أن يبرز فيها تلك العاهرة، دون أن ينقص من آدميتها شيئًا".

سرت في جسدي قشعريرة حين سمعت كلامها هذا للمرة الأولى، فإلهامي كان هذا الرجل بالنسبة إلى مريم. سألت نفسي: هل يستطيع إلهامي أن يبرز فيّ تلك العاهرة التي خرجت من مريم، أم أنه رجل خاص بعاهرته فقط؟ وإن لم يكن إلهامي، فمن هو الرجل الذي يظهر تلك العاهرة دون تذمر وتمسك بالأخلاق فوق فراش لا تنام فوقه أي أخلاق؟ من هو هذا الرجل الذي يغفر لي إذا طلبت منه أن يغتصبني؟ هل يمكن لزوجي فيما بعد أن يغفر لي إذا ما طلبت منه طلبًا كهذا،وهل يمكن أن يغفر لي إذا ما غنجت كالفتيات في أفلام الجنس المنتشرة على النت، وهل أنا برغبتي تلك أكون عاهرة، أم أكون مجرد أنثى؟

- أنتِ تحملين مازوشية ربما تزيد على ما تحمله مريم، فهي تكتفي من المازوشية بسباب، بينما رغباتكِ أنتِ تعدت السباب إلى الإهانة البدنية. ترغبين في أن يغتصبك زوجكِ.

- أتساءل أحيانـــًا: لماذا أرغب في تلك الرغبات الشاذة التي لا يعرفها أحد غيري؟ حتى مريم، ورغم كل ما كان بينها وبين إلهامي، لم تذكر لي رغبتها يومًا بأن يغتصبها إلهامي، كانت تستمتع أكثر بفكرة أن تكون عاهرة تفعل ما يريده منها حبيبها.

- كل منكما يحمل بداخله مازوشية والفرق فقط في درجتها وشدتها، فالمازوشية دليل على وجود ميول تدمير داخلية، والمجتمعات تشجع النساء أن يكن مازوشيات وأن يتحملن ويصبرن ويخضعن ***.

كلامك هذا يأخذني للتفكير في أن المجتمع يتسبب بشكل كبير في خلق نساء مازوشيات بسبب القيود التي يفرضها عليهن ويجبرهن على الخضوع لها، الفتاة تتعود منذ الصغر على ابتلاع الذل في كل طقوس حياتها، بداية من مسح حجرة أخيها وترتيب ملابسه، في حين يكون هو

جالسًا يسلي نفسه في أي شيء حتى تنتهي. وإذا ما تذمرت كان الجواب بأنه رجل ولا يجب أن يمد يده إلى أي شيء في الشقة، نهاية بالاستكانة والسكوت أمام حالات التحرش التي تتعرض لها في الشوارع. هم يقولون لها دائمًا لا تتعرضي للمتحرش بالقول لأنه سيرد عليكِ بأبشع منه، فتكتم الإهانة حينها وتكتم دموعها حتى تذهب إلى البيت، وتُخرج مهانتها في دموع صامتة لا يشعر بها سواها.

- أنتِ تتكلمين على نفسك؟

- ....

- لا تخجلي من ذكر الأمور التي تضايقك، ولا تتكلمي عنها كأنك تتحدثين عن غيرك.

سأحاول، بحثت كثيرًا عن هذا الرجل الذي يحرر رغباتي تلك، بحثت عنه في قصائدي التي أعتبرها اليوم طفولية جدًا، وبحثت عنه أيضًا في كتاباتي الأخرى التي لم أعد أتذكر ماذا كان فيها. اليوم توقفت عن البحث في الورق، ولم أتعدَ تلك المرحلة للبحث في الحياة، لكني اكتفيت بأحلام يقظة تحمل رغبات شديدة التناقض، رغبات طفولية، فاجرة، بدائية، متحضرة، متوحشة، بريئة، شهوانية، عذرية، تجتاح تفكيري كله دون أن تتعدى الخيال الجامح إلى الواقع في شيء.

- إن العجز عن إرضاء المتطلبات الواقعية للحب هو واحد من أهم الخصائص الرئيسية للعصاب، فالعصابيون يحكمهم التعارض بين الواقع وبين أخيلتهم اللاشعورية، فما يتوقون إليه بأقصى شدة في أخيلتهم يهربون منه مع ذلك متى توفر لهم في الواقع، وهم يستسلمون لخيالهم بأقصى طواعية عندما يثقون من استحالة تحققها في الواقع***.

- من تقصد بكلماتك تلك، هل تقصد مريم؟

- مريم لا تستسلم للخيال، أنتِ من تستسلمين له.

- وهل يجب أن أكون كمريم حتى لا أكون مريضة نفسية؟ لعلمك، لست مقتنعة بما فعلته مريم، فخيالاتها تجاه إلهامي، أعمتها عن رؤية حقيقته.

كانت مريم تظن أن إلهامي يحبها لأنها مختلفة عن كل النساء اللاتي عرفهن، كان يقول لها أنها فنانة، وأنه حين يضاجعها يشعر أنه يضاجع فنها قبل جسدها. كانت تسعد لكلماته تلك خصوصًا أنه كان يشجعها على ما ترسمه ويخبرها أنه يعشق تحررها في الرسم قبل أن يتحول ١٨٠ درجة إلى رجل شرقي ويخبرها في إحدى المرات أنها ستدخل النار بسبب ما ترسمه.

صدمني كلامه هذا، لكن مريم أخذته على أنه مزحة منه، رغم أنني كنت واثقة أنه لم يكن يمزح. كان هو الأخر مثل أي رجل شرقي، في داخله ازدواجية بين ما قرأه وما عرفه من ثقافات مختلفة، وبين جذوره الريفية. لم تتفهم مريم ذلك لأن انطباعها عنه كان كانطباعها عن والدها الذي لم يعارض رسومها المتحررة، لم تعش مريم في الازدواجية التي عشت فيها أنا بين أب يبيح لابنه كل شيء، في حين يُحرِم على ابنته أن تكون بنتـــا حتى، أخي كان يفعل كل شيء ويُحرِم عليّ كل شيء أيضًا.

مثلما حدث تلك المرة التي رآني فيها في الجامعة مع فتاة من صديقاتي، لم يكن يسير وحده حينها، كان يسير مع فتاة أعرفها، وحين اقتربنا منهما رحبت بهما ورحبت الفتاة بنا، بينما لم يرحب أخي بصديقتي، تضايقت وسرنا بعيدًا حتى أن صديقتي علقت لتتدارك الموقف "أخوكِ شخص خجول"، نسيت الأمر تمامًا وحين عدت إلى المنزل أخبرتني والدتي أن أخي جاء متضايقاً لأنه رآني أتمشى في الجامعة تاركة محاضراتي.... يمكنني أن أقطع تلك القصة عند تلك النقطة لأترك للدهشة مساحتها.

لم تعش مريم في تلك الازدواجية لتفهم أن إلهامي لم يكن يمزح حين قال لها ذلك، ربما لذلك أخذت قصائدي ذات يوم وأخبرته أنها صارت تكتب الشعر لأنه كان يحب الشعر، فكرت أنه بذلك يمكن أن يحبها أكثر بعدما يضاجع فيها الفنانة والأديبة، فعلت ذلك بدون أن تقول لي، ولكنها أخبرتني في النهاية عن شعورها بالذنب تجاهي، ورغم ذلك لم أتضايق منها.

كنت أتمنى أن أعرف رأيه فيما أكتب لأنني كنت معجبة به كرجل مثقف، مثقف فقط، ولأنني لم يكن لي تعامل مباشر معه لأمنحه قصائدي، وأطلب منه أن يمنحني رأيه فيها. سعدت حين فعلت مريم ذلك، وسعدت أكثر حين نقلت لي جملته :"أحبكِ أكثر حين تكتبين الشعر"، كم أسعدتني تلك الجملة، لا أعرف لماذا شعرت حينها أنه يعرف أنني أنا التي أكتب تلك القصائد، وتشجعت أن أكتب قصائد أخرى، ولم أخجل من التعبير عن رغباتي، لأن مريم هي التي كانت تمنحها له وليس أنا.

- *ألم تلاحظي أنكِ كررتِ تلك الجملة أكثر من مرة؟*

- أية جملة؟

- *أحبك أكثر حين تكتبين الشعر.*

- لا أتذكر، ربما لأني سعيدة بها لأن رجلاً مثقفــًا مثل إلهامي كان معجبًا بما أكتبه.

- *أهذا كل ما في الأمر؟*

- نعم، هذا كل ما في الأمر، وأنت تقاطعني كثيرًا على أمور لا تستحق، وتنسيني الأمور الهامة. لا تقاطعني مجددًا لأكمل القصة.

زاد حب مريم لإلهامي حين رفض أن تذهب إلى منزله.

- لماذا، ألا تريدني مثلما أريدك؟

- أريدك أكثر مما تتخيلين.

- إذن لماذا ترفض أن آتيك في المنزل؟

- لأنني أخشى عليكِ من نفسي.

فرحت مريم حين تأكدت من شعورها، أنه يحبها ويخاف عليها من نفسه، وظلت تفتح معه موضوع الذهاب إلى منزله كل مرة لتسمع منه تلك الجملة "أخشى عليكِ من نفسي"، أنا نفسي تغيرت نظرتي له بسبب هذا الموقف، زاد احترامي له لأنه يحافظ على من يحب، حتى وإن كان ذلك يقف في سبيل متعته.

ظلت مريم على حالتها تلك، تطلب منه ذلك ويرفض، وما كان يسعدها قبل ذلك، أصبح يضايقها لأنها طُعنت في أنوثتها، ظنت أنه لا يريدها كأنثى، فأكثر ما يضايق أية امرأة أن تشعر بأنها ليست مرغوبًا بها، وأن تطلب الرجل ويرفض. الرجل لا يشعر بضيق حين ترفضه المرأة وتتمنع عليه ولكن المرأة يمكن أن تقتل نفسها إذا طلبت من رجل هذا ورفض.

كما أن مريم بدأت تشعر تجاهه بشهوة مضاعفة لأنه يرفضها، رغم أنه كان يفعل ذلك معها عبر الهاتف، ولكنه يرفض أن يفعل ذلك في الواقع، إضافة إلى أن الجنس عبر الهاتف لم يعد يطفئ شهوتها، بل صار يزيدها، كانت تريد أن تفعل معه ذلك حتى تشعر أنها ملكه كما قالت له.

" أنا ملكك، افعل بي ما تشاء، لن أتزوج أبدًا في حياتي لتخشى علي من نفسك، سأعيش من أجلك".

- هذا كلام ساذج، ستتزوجين رجلاً يستحقك، وأنا الذي سأزفك له بنفسي، سأكون في هذا اليوم أبًا لكِ.

حين قال لها إلهامي تلك الجملة أول مرة، لم تعرف هل تفرح لأن بداخل حبه لها حبًّا أبويًّا كان يعوضها عن فقدان أبيها ولكنه لم يكن يعترف بهذا صراحة، وكانت تلك المرة الأولى التي يعترف فيها بذلك

ويشعرها بأنها غالية جدًّا عنده. أم تحزن وتشعر بالإهانة لأنه بقوله هذا يشعرها بأنها لا شيء عنده وليس بفارق عنده إذا أصبحت امرأة لرجل غيره، لم تكن تريده أن يتزوجها، لم تطلبها منه يومًا، ولكنها لم تكن تحتمل الشعور بأنها ليست ملكه، كانت تتلذذ بشعورها بملكيته لها بدون ورقة شرعية تجبره على ذلك، كانت تقول إن الحب أقوى من مائة عقد، لذلك كانت تتضايق من فكرة أن يعتبر إلهامي ما بينهما مجرد حالة ستنتهي حين تتزوج مريم.

أغلقت مريم معه الهاتف وقتها متحججة بأنها ستفعل شيئًا هامًا وتعيد الاتصال به، ولكنها في الحقيقة أغلقته لتفكر في كلامه وهي تبكي، فلم تكن مستعدة لحظتها أن تواجهه وتخبره بحجم الإهانة التي سببها لها كلامه هذا، كانت تدير الكلام في رأسها لتعرف كيف سيكون قرارها، أتفارقه نهائيًّا لأنه لم يحترم ما بينهما؟ كانت تفكر إن كانت تستطيع فراقه حقـًا أم لا، ولكنها ضعفت في النهاية أمام اتصالاته الكثيرة ورسائله التي تحمل كلمات الحب والشوق والعتاب لانقطاعها عنه بلا مبرر رغم أنه كان كثيرًا ما يفعل ذلك.

"لأنك لست رجلاً" لم تعرف مريم كيف جاءتها الشجاعة لترسل له رسالة كتلك، لم تكن قالت له أمرًا كهذا من قبل، وكانت تعرف أن تلك الجملة مهينة لأي رجل، ولكنها أرادت أن ترد له الإهانة.

انتظرت منه جوابًا يسألها عن سر قولها هذا في عتاب، أو رسالة يسبها فيها ويقول له بأنه مستعد أن يثبت لها رجولته على أرض الواقع ويسمح لها بالذهاب إلى منزله، وحينها تبكي بين أحضانه وتخبره بأنها تريد أن تكون له ولن تتزوج رجلاً آخر غيره، وتأخذ عهدًا عليه بألا يهينها ويتمنى لها الزواج من غيره مرة أخرى.

لكنه لم يفعل، اكتفى برسالة شكرها فيها على ذوقها، شعرت أنها أضاعت حقها، لأنها بسبها له بدون أن تشرح له سبب ذلك منحته فرصة

أن يكون الحق معه وتكون هي المخطئة. فكرت أنه لن يكلمها مرة أخرى، تخيلت نفسها للحظات وهي تعيش الحياة بدونه، لم تحتمل حتى تخيل هذا، فكلمته لتعتذر إليه وانقلب الأمر، فبعد أن كانت هي المُهانة التي تنتظر أن يعتذر لها من أهانها صارت هي المُهينة التي تعتذر عن إهانتها. لم تستطع أن تعترف له وقتها بما ضايقها، لأنها لم تكن تحتمل الدخول في نقاش معه وهي في موقف ضعف.

ولكنه حين كرر ذلك مرة أخرى استغلت الموقف لتخبره بما تريد.

- لا أريد الزواج من أي رجل، أسمعت؟ لا تنطق بتلك الجملة مرة أخرى.

- لكني سأزوجك رغما عنكِ، لا أريد لكِ مصير مثلي.

- لن أحتمل أن يلمسني رجل غيرك.

- لكني أكبرك بـــ ١٥ عامًا، أنا أريدك أن تتزوجي شابًّا يقدر عليكِ.

- لا أريد غيرك، ولن أتزوج، ولا تقل هذا مرة أخرى.

- هل ستعيشين راهبة؟ أنا لن أعيش لكِ طوال العمر، أريد أن أموت وأنا مطمئن عليكِ.

- اوووووووف، لن أتزوج، أنت رجلي.

- أوووف!!! أترين، حتى في غضبك لا تتخلين عن أنوثتك.

- أنا أريدك أنت، مستعدة أن أفعل أي شيء من أجلك وأنت تريد أن تتخلص مني برجل آخر، إذا كنت لا تريدني فأنا على استعداد أن أفارقك، ولكن لا تهينني بكلامك هذا، أنا لست سلعة تباع وتشترى.

- أنتِ غبية، أنا أحبك وأنتِ أغلى شيء لديّ، ولا أريد أن أضر هذا الشيء، لو كنت لا أحبك لكنتُ سمحت لكِ بالمجيء إلى منزلي، ماذا تظنين ما يمنعني عنك، أنا أخشى عليكِ وأعرف أنك تريدينني، لكني لن أستطيع أن ألمسك، أريدك أن تتزوجي شابًا يعرف كيف يتعامل مع

الأنثى بداخلك بدون أن يجرح كرامتك أو يهينك، لأني أخشى عليكِ من نفسك، وأخشى في الوقت ذاته أن تفعلي هذا مع غيري وتتورطين، أعرف أنكِ مجنونة.

غضبت مريم لكلماته تلك وشعرت بالإهانة.

- هل تظن أنني عاهرة لأفعل ذلك مع أي شخص، لأنني فعلته معك؟

- ألم أقل لكِ أنكِ غبية، لو كنت أراكِ هكذا لما ترددت لحظة في النوم معك، ولكني لا أراكِ كذلك، أنا أفهمكِ لذلك أحذركِ، لأن غيري لن يفهم ما بداخلك، أنا وصلت إلى روحك، وصرت أعرف حقيقتك، ما بيننا هو العشق الروحي الذي لا يمكن فيه إساءة الفهم، لكن غيري لن يهتم بروحك، سيتعامل مع جسدك فقط. أرجوكِ افهميني.

لم تسعد مريم كثيرًا لخوفه عليها، تضايقت لأنه رغم كل ذلك لم يبادر ويعرض عليها ما كانت تود سماعه، كانت تتمنى بينها وبين نفسها في تلك اللحظة أن يطلبها للزواج، كانت تريد أن تمضي العمر معه بعدما تأكدت من شدة حبه لها وخوفه عليها، وبعد أن تأكدت أيضًا من أنه لن يلمسها بدون زواج، عرفت أن كرامته تأبى أن يطلبها ويرفض من جانب أهلها بسبب فارق السن، أو حتى يشعر بأنه كان أنانيًّا معها.

فرغم أن مريم كانت تحاول إقناعي دائمًا بأنها ليست مقتنعة بفكرة الزواج، إلا أنها في الحقيقة لم تكن مقتنعة بفكرة ممارسة الجنس بدون زواج، كانت تحاول إقناعي دائمًا وإقناع نفسها بذلك لأنها حين أحبت إلهامي، لم ترد أن تأخذه منها امرأة أخرى، وهي تعرف أنه لا يحب فكرة الزواج، فكانت تفعل ذلك معه خشية أن يفعله مع غيرها، ولكنها وقعت في مشكلة بين الحرية التي كانت تمتلكها وبين المسئولية التي تفرضها عليها تلك الحرية، كانت تحاول دائمًا إخفاء شعورها بالذنب وتقنعني بأنها لا تبالي بما يحدث بينها وبين إلهامي، لأنها تحبه وتشعر

معه أنها ليست سلعة تباع لمن يدفع أكثر مثلما تريد لها والدتها، ولكنها من جهة أخرى كانت تشعر بالذنب في كثير من الأحيان وتحاول أن تبين عكس ذلك.

والحقيقة أنها برعت في إظهار عكس ذلك، حتى وصل بها الأمر أن تطلب منه أن يفقدها عذريتها.

- افتحني

- هل أنتِ مجنونة؟

- وما المَشكلة في ذلك، لا أريد أن أمنح رجلاً غيرك هذا الحق، وأنت ترفض أن تلمسني بسبب عذريتي، فلتذهب عذريتي للجحيم، لا أريدها.

- أنتِ ساذجة، ولا تفهمين شيئًا في الحياة.

- إذا لَم تفعل ذلك بنفسك، سأفعله بنفسي، أو أجعل غيرك يفعل بي ذلك.

- ألم أقل لكِ أنك لا تفهمين شيئًا عن الحياة؟

- أنت الذي لا يفهم أي شيء، أنا لا أريد عذريتي، أنا لن أتزوج، الشرف ليس مجرد عذرية، أنا أشعر أنني لست عذراء، أشعر بالذنب، هل تظن أنني يمكنني الزواج من رجل خدعته بأنني لم أفعل شيئًا مع أحد غيره وأنا فعلت كل شيء...

- أنتِ لم تفعلي شيئًا.

- بل فعلت، حتى وإن لم يحدث بيننا شيء فعلي، فلن أقبل أن أتزوج بدون أن أخبر زوجي بما حدث، وأنا لن أفعل ذلك لأنني أرفض أن يتحول زواجي إلى تحقيق، وفي الوقت ذاته لن أبني حياتي على خداع، لا أريد أن أخدع أحدًا، أو أمثل دور البريئة على أحد، وأنا مجرد عاهرة.

أجابها إلهامي في عصبية:

- لا تقولي على نفسك هذا ثانية، أنتِ أجمل فتاة عرفتها في حياتي. اسمعيني جيدًا يا مريم، أنتِ لم تفعلي شيئًا سيئًا معي، أنا حافظت عليكِ بقدر ما استطعت، لم أحاول لمسك لأنني كنت واثقًا أنني إذا فعلتَ مرة لن أتحكم في نفسي في الأخرى، ولو كان حدث بيننا شيء كهذا لم أكن لأسامح نفسي، هناك كثير من الفتيات يفعلن كل شيء وليس مع رجل واحد فقط، وإنما مع كثيرين، ولكنهن حين يتزوجن يخفين ماضيهن بحرفية، وهذا ليس خداعًا، هذا ستر، فالله لا يحب أن يستر عبده، ثم يأتي عبده ويفضح نفسه.

بكت مريم حينها، صمت إلهامي قليلاً قبل أن يقول:

- أنتِ إنسانة بمعنى الكلمة، أنا فعلاً لا أستحقك.

شعرتَ مريم حينها بأنها تريد أن تبكي بين أحضانه، تريده أن يخفيها بداخله ويفعل بها كل شيء، أرادت أن تذوب فيه وتصير جزءًا منه.

- أنا أحبك وأشتهيك وأريدك.
- أنا أيضا أريدك.
- إذن؟

كانت مريم تنتظر منه أن يسمح لها بالذهاب إلى منزله، لكنه قال لها:

- تعالي بين أحضاني.

تضايقت مريم من عدم تغير موقفه:

- لا، أنا لا أريدك عبر الهاتف مجددًا، أريد أن أمارس معك الجنس الحقيقي.
- ماذا تريدين حين تكونين معي؟

سألها إلهامي بصوت تملؤه الشهوة...

- أريد كل شيء

أجابته مريم بجدية، لم يكن في صوتها الغُنج الذي ينتظره إلهامي منها، ولكنه رغم ذلك أكمل كلامه بنفس الصوت الذي تملؤه الرغبة.

- أريد أن أدخله ... .

قاطعته مريم في غضب: أخبرتك أنني لن أفعل ذلك مرة أخرى عبر الهاتف، إذا كنت تريدني حقا، أخبرني عن عنوان منزلك.

حاول إلهامي معها مرات كثيرة ليمارسا الجنس عبر الهاتف كما اعتادا، لكن مريم رفضت، وأصرت على موقفها، فأغلقا الهاتف وكل منهما يحمل ضيقـا ناحية الآخر. إلهامي كان غاضبًا منها لأنها بعد كل ما قاله لها عاودت طلبها مرة أخرى وكأنه لم يقل شيئا، ومريم كانت غاضبة لأنها لم تعد تحتمل تلك الشهوة التي تشعر بها تجاه إلهامي والتي تزداد كلما زاد رفضه لفكرة ذهابها لمنزله، ولم تعد مكالمة هاتفية، يتخيل فيها الاثنان أوضاعًا جنسية يفعلانها معًا أو يتبادلان خلالها ألفاظـا فاضحة، توصلهما إلى مرحلة النشوة، تكفي لإطفاء ما تشعر به مريم من رغبة.

منذ تلك اللحظة توترت العلاقة بينهما، فرغم أن مريم كانت تحبه جدًا لأنه يخشى عليها من نفسه ولا يريد أن يضرها، إلا أنها كانت تشعر ناحيته بالكره الشديد في الوقت ذاته لأنه يهينها برفضه لها، كما كانت تشعر بأنه تسبب لها في مشكلة كبيرة لأنه حرر بداخلها الأنثى التي لم تعد تستطيع كبحها، ثم قال لها بكل بساطة إنه لن يمسها. كانت تتمنى لو أنه ترك بداخلها تلك الأنثى كامنة.

- الحب حين يُحرَم الإشباع يمكن أن يتحول في يسر وبصورة جزئية إلى كراهية. ***

يبدو أن هذا يفسر جزءًا كبيرًا من القصة، هذا فعلاً ما حدث مع مريم وهذا ما أكدته هي نفسها لي، ولكنها كانت أسابيع حتى تصالحا من جديد، ولم تستطع مريم أن ترفض طلبه لمعاشرتها عبر الهاتف لأنها

كانت تشتاقه، كانت تنوي ألا تفتح معه موضوع ذهابها إلى منزله من جديد حتى لا يزيد رفضه عدد إهاناته لها، لكنها لم تستطع، ويبدو أن إلهامي كان يريد أن يريحها ويريح نفسه من تكرار هذا الأمر، فأصبح يراوغها، مرة يقول لها الأسبوع القادم، ومرة أخرى يخبرها أنه جاءه عمل مفاجئ.

شعرت مريم من مراوغاته أنه يمارس الجنس بصورة كاملة مع امرأة غيرها ويكتفي من مريم بمتعة هاتفية، صارحته بالأمر، فأخبرها أنه إذا كان يحصل على متعة حقيقية من امرأة غيرها، فلن يفكر في متعة خيالية عبر الهاتف، وأقسم لها أنه لم يعد يفعل ذلك مع امرأة غيرها لأنه صار يعشقها.

أرضتها تلك الإجابة جدًّا واقتنعت بها، قالت لنفسها إنه حقــًّا إذا كان يفعل ذلك بشكل طبيعي مع امرأة أخرى، فلن يحتاج إلى متعة هاتفية يقوم بها المراهقون الذين لا يجدون مكانـــا يمارسون فيه الجنس.

لم يهمها أن تفكر في الآخرين الذين يفعلون هذا الأمر مثلها، هي تفعل ذلك لأنها تحبه، وهي ليست مراهقة لا تجد مكانـــا هي وحبيبها ليفعلا به ذلك، وليست عاهرة تمارس ذلك عبر الهاتف لتحصل على رصيد لهاتفها، وليست أي شيء سوى أنها حبيبته، ويجب أن تفعل أي شيء لكي ترضيه، هكذا كانت تردد دائما.

استمرت العلاقة بينهما على هذا الأمر حتى العام الماضي، قبل أن ينتقل إلهامي من الجريدة التي كان يعمل فيها مع مريم إلى جريدة أخرى، حزنت حين علمت بقراره، لأنها إذا كانت معه في جريدة واحدة ولم تكن تراه معظم الوقت لأنه كان دائمًا مشغولاً كما كان يخبرها أو يحاول إقناعها في بداية علاقتهما، أو حتى يتجنب ضعفه أمامها كما أخبرها فيما بعد في آخر مكالمة هاتفية بينهما، فماذا سيصبح حالها إذا ذهب إلى مكان آخر بعيد عنها؟

تمنت أن تذهب معه إلى الجريدة الأخرى، ولكنه لم يعرض عليها ذلك، وهي خجلت من أن تطلب منه أمرًا كهذا، فلم تكن معتادة أن تطلب منه أمورًا تخص العمل إلا إذا اضطرت لذلك، وهي لم تعرف ماذا تقول له لكي تقنعه بأنها مضطرة لتترك عملها وتذهب معه، كانت تعرف أنه سيخبرها بألا تترك عملها طالما أنه لم يعرض هذا عليها من نفسه، اكتفت بالانتظار.

بعد أن ذهب إلهامي للعمل في الجريدة الأخرى، حدث ما توقعت، قلّ اتصاله بها جدًّا، كانت تعاتبه دائمًا وكان يجيبها بأنه العمل، كانت تشعر أن كرامتها أهينت لأنه لا يتصل بها، فتمسح رقمه الذي تحفظه جيدًا فجأة وهي من داخلها تعلم أنه سيتصل بها مرة أخرى.

اكتشفت أن مريم لم تكن وحدها التي تفعل ذلك، بل كانت معظم صديقاتي يفعلن الشيء نفسه، ويبدو أن معظم الفتيات يتصرفن بنفس الطريقة حين يحدث خلاف بينهن وبين من يحببن، فيكون أول رد فعل لهن أن يزلن رقمه من ذاكرة هاتفهن رغم أنهن يحفظنه في ذاكرتهن أكثر من أي شيء آخر، ويبدو أنهن يفعلن ذلك ليشعرن بأنهن مستعدات للاستغناء عنه، أو أنهن هن اللاتي تركنه وليس هو، وبذلك يردون إهانته لهن بالشيء الوحيد الذي يمتلكنه منه "رقم هاتفه". لكن، ومع أول اتصال لحبيبهن، فإنهن يُعِدن من جديد تسجيل رقم هاتفه، وإن لم يحدث هذا بعد أول مكالمة فهذا يعني أن المكالمة لم يكن بها ما يرضيهن، أو ما لم يكن يتوقعن، ولكنه حتمًا سيحدث في المرات التالية حين تحمل المكالمة ما ينتظرنه.

مريم أيضًا كانت تحفظ رقم إلهامي كما أخبرتك، ولكنها كانت تمسحه في كل مرة يحدث خلاف بينهما، ولا تستطيع أن تأخذ حقها منه في وقته، فتمسح هاتفه وكأنها بذلك أخذت حقها.

ولكنها كانت تسعد أيضًا في تلك اللحظة التي تعيد فيها تسجيل اسمه على هاتفها بعد لحظات من المتعة يمنحها لها بعد غياب طويل ازداد في آخر الفترات بينهما، وكان يبرره بأنه مشغول في العمل وكانت تضطر لتصديقه.

في إحدى المرات انقطع اتصاله عنها لأسبوعين، لم تكن معتادة على انقطاعه عنها كل تلك المدة، وكانت قد ملت من فكرة أن يبتعد عنها فجأة بدون مبرر، ويعود فجأة حسب مزاجه، لم تتصل حينها لتعرف ما السبب الذي جعله يبتعد، لم تكن في حاجة لسماع مبررات، كما أنها أصبحت تشعر بأنها تهين كرامتها لأنها تتصل به كثيرًا ولا يجيبها وإذا ما عاتبته يتحجج بأشياء لا تصدقها، كانت تشعر بأن به شيئًا قد تغير، فتركته وكانت تصطنع القوة أمامي وتقول لي أنها إذا ما اتصل بها فلن تجيبه، وأنها حتى وإن أجابته لن ترضى عنه بسهولة، وستعاتبه كثيرًا لأنها ليست لعبة في يده.

كانت في حقيقة الأمر تتمنى أن يكلمها حتى وإن تنازلت عن حقها وعن كرامتها من أجله، وحدث ما تمنت، اتصل بها، ومن شدة اشتياقها إليه لم تعرف ماذا عليها أن تفعل، أجابته وهي تبكي، كانت تريد أن تعاتبه، لكنها لم تستطع، كانت تشتاقه ولا تريده، تحبه جدًّا وتكرهه لأنه تركها كل تلك المدة، وجعلها تفكر في أسوأ الأشياء حتى أنها لم تستطع أن تخفي عني خوفها من أن يكون على علاقة بامرأة أخرى. ولكن حدث ما لم تتوقع حدوثه... .

- ماذا لو تزوجنا؟

وقعت جملته على مريم وقع الصدمة، صمتت كثيرًا لتدرك ما قاله، لم تكن تعرف إن كان عرض عليها الزواج فعلاً، أم أنها كانت ترغب في سماع ذلك بشدة فتخيلت حدوثه.

- ألا تريدين أن تتزوجي بي؟ ربما يشغلك الزواج والأولاد عن جنونك.

لم تعرف بماذا تجيبه، لقد انتظرت تلك اللحظة لأكثر من ست سنوات، حتى تتأكد من أنه كان يحبها حبًّا حقيقيًّا، ومن أنها لم تكن في حياته مجرد نزوة، قال لها هذا الكلام كثيرًا، ولكنها أرادت أن تسمع تلك الكلمة بالذات، ولكنه حين قالها شعرت بالخوف الشديد، فهي لم تفكر في إجابة لهذا السؤال من قبل، لأنها لم تكن تتوقع مجيئه أبدًا، هي كانت تعرف أن إلهامي لا يريد الزواج، كما أنها اعتادت على هذا الأمر منه، وقررت أن تعيش لأجله بدون زواج، كانت تقنع نفسها أنها إذا تزوجت به فربما يضيع حبهما في زحمة روتين الحياة اليومية، والاعتياد الزوجي الذي يقتل الحب، كانت تقنع نفسها بذلك ومع ذلك كانت تنتظر أن يطلب منها الزواج حتى تتأكد من أن هناك فرقـًا بين أن تكون حبيبته عاهرتـَه فوق الفراش، وبين أن يكون ناظرًا إليها على أنها مجرد عاهرة، كانت تريد أن تسمع منه ذلك حتى وإن لم يتحقق.

ولكنه قالها أخيرًا ولم تعرف بماذا تجيبه، كانت سعيدة وحاولت أن تخفي سعادتها خلف إجابة نصفها كاذب ونصفها صادق.

- لا أريد الزواج، أنا أحب علاقتنا هكذا...

هي من ناحية كانت تريد الزواج حتى تكون إلى جواره ويفعل معها ما تتمناه منه، ومن ناحية أخرى كانت تخشى تقلب مزاجه كزوج، وتخشى أن يتحول بعد الزواج إلى رجل غيور، يتحكم فيها وفي مستقبلها ويمنعها من الرسم، فغيرته عليها قبل الزواج كانت تسعدها لأنها تشعرها بخوفه عليها وحبه لها لأنه ليس مضطرًا أن يغار عليها بسبب ورقة بينهما، ولكن بعد الزواج سيفعل ذلك مضطرًا لأنها ستصبح زوجته وسيغار عليها حينها الغيرة العادية، غيرة الزوج على زوجته، وهي لم تكن تريد ذلك.

- لكني أريد الزواج منكِ رغم أني أعرف أنكِ ستقضين عليّ بعد أشهر قليلة. قال لها إلهامي

ضحكت مريم لأنها فهمت قصده وسألته عما يقصد حتى تسمع الإجابة منه.

- لأنك لبؤة أكثر من اللازم، ولن يكفيكِ مرة واحدة في اليوم، أنا معكِ سأضطر لترك عملي وترك الحياة بأكملها، لأفعل بكِ الخطيئة ليلاً نهارًا.

ضحكت مريم وأعادت كلمته في دهشة: خطيئة!!!

- نعم ستكون خطيئة، لأنني سأفعل بكِ، ما لم يفعله رجل في امرأة من قبل، سأفعل بكِ كل شيء، سأ................ .

في تلك الليلة مارست مريم الجنس عبر الهاتف، كما لم تمارسه من قبل. كم أخبرتني أنها كانت أجمل مرة في حياتها، وأنها لم تتخيل أن يتركها بعدها، أو كما قالت لي بعد أن وصلا من خلال الجنس إلى قمة العشق الروحي، لم أفهمها حينها ولم أطلب مزيدًا من الإيضاح، فلم أهتم سوى بما قالته بشأن بكاء إلهامي.

بكى إلهامي للمرة الأولى في عمر حبهما، بكي بكاءٍ شديدًا لم تتخيله مريم، ورغم أنها فرحت لأنه رضي أن يكون ضعيفـًا أمامها إلا أنها لم ترد أن تراه في تلك الحالة، أرادته قويًا، طلبت منه أن يشتمها، يضربها، يتشاجر معها حتى تشعر بقوته، لكنه لم يفعل، بكت هي الأخرى وأغلقا الهاتف وآخر كلمة قالتها له "لن أكون إلا لك"، بينما قال هو: "لم ولن أحب غيرك مهما حدث".

ظلت مريم بعد تلك المكالمة تبكي، فهي لم تعد تستطيع الاستغناء عنه من جهة، ومن جهة أخرى تخشى الزواج به، هي تريده أن يكون قويًا، لكنها تخشى قوته وقسوته عليها أيضًا، ولكنها لم تعتد ضعفه، هي لم تره ضعيفـًا هكذا من قبل، هي تحبه وليست مستعدة لرؤيته هكذا،

لذلك فإن أول ما فعلته حين استيقظت في اليوم التالي أنها أرسلت له رسالة من كلمة واحدة "تزوجني" .

لم تكن لتفعل ذلك في الظروف العادية رغم أنه هو الذي بدأ وطلب منها الزواج، ولكنها في الظروف العادية أيضًا كانت تنتظر منه أن يقولها مرة واثنين وثلاث قبل أن توافق، كانت تريد أن تأخذ حقها في سماع الكلمة التي كثيرًا ما انتظرتها، ولكنها أرسلت له تلك الرسالة حتى تشعر بقوته من جديد، كانت ستفرح لو أجابها ولكنها فرحت أكثر حين لم يجبها، فرحت بترك الأمر معلقـــا هكذا بعد أن كلمته أكثر من مرة ولم يجب.

في تلك الفترة لم تكن مريم تتكلم معي في أمر سوى الزواج، كانت تتباهى بأنه طلب منها ذلك، وتعيد على تفاصيل المكالمة بفخر عشرات المرات، ورغم أنه مرت أيام وأسابيع قبل أن يكلمها إلا أنها كانت تعتذر وتقول إنه يخفي عنها مفاجأة، وتتخيل معي شكل المفاجأة، هل هو المكان الذي سيكون فيه فرحهما، أم أنه الفستان الذي طالما تمنت أن ترتديه له، أم أنها "قمصان" النوم التي طالما تخيلت نفسها بداخلها، وطالما تخيلها معها إلهامي وتخيل الألوان التي يحبها على جسدها.

كانت تتخيل كل ذلك، ثم تضيف في خجل وسعادة ما قاله عن قدرتها الجنسية، وتخبرني بأنها ستجعله أسعد زوج على وجه الأرض، وستمتعه بكل الأوضاع وكل الأفعال.

ولكنها انتظرته كثيرًا، ولم يحدث شيء، كانت تتصل به ولا يجيبها، أرسلت له مئات الرسائل، كانت تلك المرة الأولى التي يغيب عنها لأكثر من شهرين، خشيت أن يكون قد أصابه مكروه، وكانت تدخل إلى صفحته عبر الفيس بوك فلا تجد أي كلام من أي أحد يشير إلى حدوث أي أمر، كانت تشعر أن هناك شيئًا غريبًا في الأمر، وكانت تردد أنها تخشى أن يكون إلهامي على علاقة بامرأة أخرى غيرها.

ولكني كنت أهوِّن عليها وأقول لها بأنها كثيرًا ما ظنت هذا ولم يحدث شيء، كما أذكرها بطلب زواجه منه، رغم أني لم أكن أنا نفسي مقتنعة بأن تلك المرة من غيابه كأية مرة سابقة، كانت تهدأ بسبب كلامي ثم تعود من جديد للبكاء.

كانت في حالة لم أرها عليها من قبل، كانت ضعيفة جدًّا، لم تكن تصل إلى تلك المرحلة من الضعف حين كان يتركها في السابق، حتى إنها لم تستطع أن تمسح رقمه، ظلت محتفظة به وكأنه الشيء الوحيد الذي صار يربطها به وتخشى إن أزالته أن تنقطع علاقتها به تمامًا.

كانت في المرات السابقة لغيابه تنشغل بالعمل، كانت تحاول تبديد ضيقها بضربات فرشاتها، حتى تعوض غيابه بشيء تحبه، وحتى تثبت له حين يعود أنه يمكنها أن تحقق ذاتها وهو بعيد عنها، وكانت واثقة من عودته.

ولكن تلك المرة صارت لا تبالي بأي شيء سوى انتظار مكالمة منه، أخذت إجازة من العمل، أصيبت باكتئاب شديد ولم تعد لها أية رغبة في الرسم، كانت تتصل به في اليوم أكثر من ٢٠ مرة، وترسل له أكثر من ١٠ رسائل، نصفهم يحمل عتابًا وشوقًا والنصف الآخر يحمل سبابًا أو أقوالاً مثل إنها تكرهه وستعيش حياتها بغيره، ولكنه لم يجبها على أي شيء.

ثم حاولت أن تعيش حياتها بدونه لفترة، عادت لعملها، حاولت أن تعود للرسم أيضًا، توقفت عن مهاتفته، أقسمت أنها لن تتصل به مرة أخرى، ولكنها ضعفت، حين اشتاقت إليه.

"الأصعب من أن يشعر الإنسان بشهوة، هو أن يمتلك شهوة تجاه شخص بعينه، ولا يجد وسيلة لإخمادها مع أحد غيره".

كانت مريم صادقة في قولها هذا إلى أبعد مدى، لكن بعد أن علمت بالصدفة بزواج إلهامي من تهاني ومباركة الناس له على الفيس بوك فعلت ذلك مع محسن ولم تجد عزاءها أيضًا.

صُدمتُ حينها أنا بشدة، ولا أعرف كيف احتملت هي هذا ولم تقدم على فعل شيء جنوني، الأغرب إنها حين علمت ذلك لم تبكِ في وقتها، بل اتصلت بي لتنقل لي الخبر وكأنها تتكلم عن زواج شخص آخر غير إلهامي، وظلت تضحك وكأن الأمر لا يعنيها وأخبرتني أنها سعيدة من أجله.

بالطبع لم أصدق ردة فعلها، كنت أعرف أنها لا تستطيعِ أن تستوعب الأمر أو تصدقه، وأنها تمنع نفسها من البكاء حتى لا تشعر نفسها أن هذا الأمر حدث فعلاً، غير أنها لم تستطع أن تظل على تلك الحالة كثيرًا، انفجرت فجأة حين قابلتني بعدها بأيام، وظلت تبكي ثلاث ساعات متواصلة.

- لم يعد بي عقل، سأجن. كيف يفعل بي إلهامي ذلك بعد كل ما حدث بيننا، فإن لم يحدث بيننا شيء طوال السنين الماضية فيكفي ما حدث بيننا تلك الليلة، كيف يذهب ليتزوج امرأة أخرى بعد تلك الليلة بيننا، لماذا طلب أن يتزوجني إذا كان سيتركني ويذهب للزواج بامرأة أخرى؟ هل كان يقصد إذلالي بعد أن يعرف رأيي في الزواج به؟ أنا أهنت نفسي طوال المدة السابقة بما أرسلته له من رسائل أظهر فيها ضعفي حتى لا أشعر بضعفه، أهنت نفسي من أجل أن أراه قويًّا، في حين أنه كان مشغولا عني بالترتيب لزواجه، هل هذا هو العقل الذي كثيرًا ما نصحتني بأن ألتزم به، هل من العقل ما حدث؟ أخبريني قبل أن أفعل في نفسي أمرًا.

كانت مريم منهارة تمامًا وهي تقول ذلك، كنت أستمع لكلامها وأنا أشعر بالعجز عن فعل أي شيء من أجلها، كنت أعرف أن النصيحة

وحدها لا تكفى، وأنه يجب علينا حين ننصح أحدهم أن نتذكر دائمًا كل الظروف التي تحيط بهذا الشخص، حتى لا تصبح نصيحتنا له مجرد حكمة خاوية نتباهى بها أمامه ونرضي بها غرور أنفسنا، ولا نستطيع نحن أن ننفذها إذا وُضعنا مكان هذا الشخص.

لكني كنت مضطرة لأن أتكلم، كنت مضطرة أن أنصحها نصائح خاوية لا تتناسب مع تلك الكارثة بالنسبة إليها، كنت مضطرة لذلك حتى أبرىء ذمتي كصديقة يجب أن تقول أي شيء لصديقتها في موقف كذلك حتى تهون عليها.

- أنت الوحيدة القادرة على إخراج نفسك من تلك الحالة.

- كيف؟ سألتني في ضعف...

- يجب أن تنسيه، يكفي ما أضعتِ من سنوات عمركِ، هو تخلى عنكِ واختار حياة أخرى يكمل فيها باقي عمره، يجب عليكِ أنتِ أيضًا أن تختاري حياتكِ.

- ما أسهل هذا الكلام، وما أصعب الفعل، لم يعد لي حياة، أنا صرت ضعيفة جدًا، لا أقوى على شيء، المستقبل صار لا شيء بالنسبة إليّ، لم أعد أحلم، سأترك أيامي تتحرك كما يشاء لها القدر.

- لا تكوني غبية، فالغبي هو من لا يتعامل مع ماضيه سوى بالندب، ويتعامل مع حاضره بنفس أوراق الماضي، ومع مستقبله يكتفي بما في علم الغيب.

***

أعلم أنني قدمت لها نصائح خاوية يصعب تنفيذها، وأعرف أنني لم أكن لآخذ بها لو كنت مكانها.. لكنها لحظة النصيحة.

- *ولكنك بالفعل في مكانها.*

- كيف أَكون مكانها؟

- *أنتِ أيضًا أحببتِ إلهامي.*

- لا ، لم يحدث ذلك، كيف يمكنك أن تقول أمرًا كهذا؟

- لأنك كنت تحبينه فعلا، وحاولت أن تداري مشاعرك، لكنَ الكلمات فضحتك، وفضحت ما حاولت إخفاءه في لا شعورك.

- لا تقل هذا، أنا لست خائنة حتى أحب الرجل الذي كانت صديقتي تحبه.

- أنت أحببته، وشعرت بغيرة عليه من تلك السيدة التي كانت تجلس معه، والتي ادعيت أنك رأيتها وهي تدخن بكثافة حين مررت بالصدفة، بينما كنت تمرين من حين لآخر لتريها، وظللت تقللين من جمالها أمام مريم بسبب غيظك منها.

- لا، لقد مررت بالصدفة، لم يكن الأمر كذلك.

- أنت لم تحبيه فقط، أنت رغبت فيه أيضًا، لذلك كنت تشعرين بالذنب تجاه مريم، ولم تستطيعي نقدها وجهًا لوجه على أي من أفعالها وكنت تكتفين بنقدها أمامي.

- هذا هراء، أنا لم أقل أي شيء يدل على ما تقول.

- بل قلت، في البداية أخبرتني أنك كنت معجبة به كرجل مثقف، ثم أضفت على الجملة جملة تأكيدية أخرى، " مثقف فقط" وكأنك تنفين عن نفسك إعجابك به كرجل، ثم إنك كررت جملة "أحبك أكثر حين تكتبين الشعر" مرات عديدة ، كنت أعرف أنَ خلف تلك الجملة شيئًا آخر، وتأكدت من ذلك.

- ما هو؟

- أنت من تكتبين الشعر وليست مريم، لذلك حين قال إلهامي ذلك "أحبك أكثر حين تكتبين الشعر"، حولتها أنت في لا شعورك إلى جملة "أحبك أكثر حين تكونين نورا"، لذلك فرحت لأنه يحبك أكثر، هذا التفسير اللاشعوري بداخلك أشعرك بالرضا وبالتفوق على مريم للمرة

الأولى ولأنك كنتِ تحلمين أن تكوني مكانها، لأنها تمتلك الحرية والجسد الأنثوي الذي تَشبع به رغباتها، في حين تعتبرين أن جسدك طفولي.

- لو كان كلامك بشأن حبي لإلهامي صحيحًا، فكيف تفسر أنني لم أتضايق حين كانت مريم تحكي لي بالتفصيل ما يحدث بينها وبين إلهامي، بلِ على العكس كنت أنتظره بفارغ الصبر، فهل هناك من امرأة تحب رجلاً وتقبل أن تسمع تفاصيل علاقته بامرأة أخرى؟

- هذا يؤكد كلامي، ويبين السر الذي كنتِ تخفينه في علاقتكِ بمريم، أخبرتكِ من قبل أن مريم كانت الجسد الذي ينفذ لكِ رغباتكِ وسأضيف عليه الآن، أن جسد مريم هو الجسد الذي كنتِ تعبرينَ به إلى إلهامي، كنتِ تحبين إلهامي وترغبين فيه بشدة وتكتبين الشعر من أجله، حتى تلك الكلمات

" أقرّ أنا بنت التاسعة عشر
أنني أعشق خطوط العمر
في وجهك
وأعشق تلك الخصلات البيضاء
في شعرك
ولن أبكي يومًا إذا ما أحلتني
من فتاةٍ إلى امرأة
في حضنك
وهذا ندائي الأخير"

تلك الكلمات التي كتبتِها في الظاهر من أجل مريم التي كان عمرها وقتها ٢٢عامًا، إلا أنك كتبت "بنت التاسعة عشر"، وذكرتِ أيضًا أن إلهامي علق على هذا الأمر، أنتِ تحججتِ لمريم وقتها بأنك ذكرتِ هذا العمر لأنها أحبت إلهامي حين كان عمرها ١٩ عامًا، ولكن في الحقيقة كنتِ تقصدين نفسك لأنكِ أيضًا أحببتِه في هذا العمر، تلك القصيدة تنقسم

إلى نصفين، النصف الأول يخصك فأنت أحببته في هذا العمر ورغبت فيه، والنصف الآخر يخص مريم التي طلبت منه أن يفقدها عذريتها ولم تخش هذا الأمر.

كنت ترغبين في ذلك أيضًا ولكنك لم تكوني بنفس حرية مريم، كنت ترغبين في فعل كل شيء مع إلهامي، ولكن من خلال جسدها، لذلك كنت تسعدين حين تسمعين تفاصيل ما يحدث بينهما، وكأنه يحدث بينكما، بينك وبين إلهامي، ولكنه حين طلب الزواج منها شعرت بغيرة شديدة، لأنك كنت تظنين أنه لن يفكر في الزواج بها، وأنه إذا فكر بالزواج سيتزوج من فتاة مثلك ليس لها تجارب، لذلك شعرت بغيرة من كونه وبعد كل هذا الذي حدث بينهما يفكر في الزواج بمريم، لذلك كتبت قصة "تزوجني"، وتلذذت بوضع تلك النهاية في آخرها ، أنت نفسك اعترفت أنك وضعت تلك النهاية لتشبعي ساديتك، والحقيقة أنك وضعت تلك النهاية رغبة منك في حدوثها، رغم أنك لم تتوقعي حدوثها في الواقع.

– أكرهك!

– *كل هذا لأني أزلت عنك الحمل الثقيل الذي تحملينه.*

– أشعر أنني خائنة، وشريرة، ليتني ما أحببته، كان يجب أن أمنع هذا الشعور.

– *لا يمكن أن تتحكمي في مشاعرك، يكفيك أنك تتحكمين في أفعالك، إن الفرد الذي يفرض على نفسه الحرمان إذا لم يقم بهذا العمل بشكل اقتصادي سليم، فإنه سيصاب حتمًا باضطرابات خطيرة***، ويكفيك ما أنت فيه، يكفي أنك تكتفين من الحياة بورقة وقلم لتعبري عن رغباتك، واتخذت من جسد غيرك وسيلة لتنفيذ تلك الرغبات، هذا أمر مدمر جدًّا.*

ما حدث قد حدث، وانتهى ولا أريد أن أتذكر أنني فكرت في هذا الأمر يومًا ما، أنا فقط أشعر بمريم جدًّا، وأتفهم إحساسها، وحزني ضريبة أسددها لتعفيني من الشعور بالذنب على خيانتها حتى ولو كانت مجرد خيانة في المشاعر.

كانت مريم تتعافى أحيانـًا وتركز في عملها وفي حلمها الذي رغبتُ أنا جدًّا في أن تحققه لتعوض فشلي في تحقيق حلمي، وكانت في أحيان أخرى تضعف ولا تقوى على فعل شيء وتصاب بانتكاسة، ولكن تظل أكبر انتكاسة مرت بها في حياتها، ما حدث بينها وبين محسن.

فرغم أنها كانت تحاول إقناعٍ نفسها بأن ما حدث قد حدث، وأنها يجب أن تتعلم من تجربتها تلك بدلاً من البكاء عليها، ورغم أنها استفادت كثيرًا مما مرت به وأصبحت تقضي أغلب أوقاتها في الرسم وقررت أن تعوض ما فات من عمرها، وتحقق حلمها بعد أن أخذت قرارًا بألا يأتي عامها السادس والعشرين بدون أن يكون هناك معرضًا للوحاتها باسمها.

رغم كل ذلك إلا أنني كنت أعرف أنها ليست سعيدة، هي كانت تحاول أن تبدو كذلك ولكنها كانت مجرد محاولات، كنت أعرف مريم حين تبدو حزينة في صمت، لأن الإنسان لا ينسى جرحه أبدًا، هو فقط يتعامل معه بطريقة مختلفة كلما مضى عليه الوقت.

ومريم بدأت تتعامل مع جرحها بطريقة مختلفة، تتساه أحيانًا، ترسم أحيانًا، أو تترك كل شيء خلفها في أحيان أخرى وتستمتع باللامبالاة.

- بمناسبة علاقتها بمحسن، اكتشفت أنك لم تكوني محايدة تمامًا في روايتك لتلك القصة، أنت كنت تروين الأمر وكأن مريم لا فارق عندها وأنها متحررة إلى درجة داعرة وليس بفارق عندها ممارسة الجنس مع أي شخص في العالم، رغم أنني اكتشفت من قصتها مع إلهامي أنها لم تكن لتفعل ذلك معه لولا أنها شعرت بخوفه عليها وحبه لها، وأنها فعلت ذلك مع محسن لشعورها بأن إلهامي تركها وتزوج بغيرها وكأنها

عاهرة، وشعورها بالعهر أصابها بحالة من الذل ثم اللامبالاة تسببت فيما حدث لها مع محسن.

- أنا أخبرتك بهذا كله، وكنت محايدة جدًّا.

- لا أنت تحاملت على مريم حين رويت قصتها مع محسن.

- أنت لا يعجبك أي شيء، ألا تذكر أنك في بداية حكايتي للقصة أخبرتني أنني أبرر أفعال مريم.

- هذا ما أود التوصل إليه، أنت كنت تبررين تصرفات مريم في تلك اللحظات التي تشعرين تجاهها بالذنب، لأنك أحببت حبيبها ولأنك تمنيت ألا يتزوجها، وربما شعرت بذنب أيضًا حين حدث معها ما حدث مع محسن لأنك تعلمين جيدًا أنه إذا ما كانت تزوجت من إلهامي ما كان حدث لها ما حدث مع محسن، شعرت أنك تتحملين مسئولية ما حدث لها ، حتى أنك أرجعت ما حدث بينهما إلى قصائدك، وكأن قصائدك هي المحرك الأساسي لأفعال مريم، وفي الحقيقة هي لم تكن سببًا أبدًا، كان هذا سيحدث سواء كانت مريم عرضت قصائدك عليه أم لا... كما أخبرتك سابقـــا، وإرجاعك السبب فيما حدث بينهما لقصائدك إنما هو جزء من تحميل نفسك مسئولية ما حدث لمريم، كنت ترغبين في أن تصدقي هذا الأمر من أن قصائدك هي السبب حتى تكفري عن شعورك بالذنب تجاه مريم.

- ليس لي ذنب فيما حدث لمريم مع محسن، فقد كانت مضطربة جدًّا.

- أنا أكلمك عَّما تشعرين به بداخلك.

- نعم، أدرك هذا.

- كما أنك أيضًا كنت تنتقدينها في تلك اللحظات التي تشعرين فيها بغيرة منها لأنها كان لديها حرية في أن تخطيء، كما كنت تنتقدينها وتصورينها على أنها لا فارق عندها أن تفعل هذا الأمر مع إلهامي أو

محسن أو أي شخص كان، وكأنك تعاقبينها على حريتها التي لا تمتلكين نصفها. أنا واثق من أنك إذا رويتِ قصة مريم مع محسن ستروينها بصورة مختلفة بعد أن اكتشفتِ تلك الأمور.

نعم سأرويها بطريقة مختلفة لأنني الآن وبعد مرور أكثر من شهرين على ما حدث مع محسن، صرت أرى الأمور بطريقة مختلفة، كنت متحاملة عليه وقتها لأنني كنت أشعر بالذنب فعلاً تجاه مريم، لكنني حين أنظر للأمر الآن أشعر أنه لم يفعل أي شيء خطأ، هو فقط تصرف بطريقته.

- *تتحاملين على مريم مرة أخرى.*

- لا، أقسم لك أن تلك المرة أنا أنظر إلى الأمور بصورة مختلفة فعلا، محسن فعل ما فعله لأنه أراد ذلك، ومريم كانت تنتظر منه أن يرفض ذهابها معه إلى المنزل، وحين ذهبت كانت تنتظر منه أن يمتنع عنها ووصفت هذا التمنع بالوقار، كانت تنتظر منه أن يكون وقورًا كما كان إلهامي، وفي الوقت ذاته أرادت أن تكون عاهرة معه حين طلبت منه أن تكون لبؤته، كانت تريد أن تشبع شهوتها التي اعتادت إشباعها مع إلهامي من خلال جسد محسن، لذلك فشل الأمر، لأنها أرادت من محسن ما فعلته وما لم تفعله مع إلهامي، وانتظرت أن يفعل هو ذلك وكأنه إلهامي، متناسية أنه لم يكن يعرفها إلا من خلال ساعات قليلة، وتعامل معها كما رأى أنه الصواب.

ومريم أيضًا إذا تكلمت عن هذا الأمر الآن ستروبه بطريقة مختلفة عما روته منذ شهرين، فحين حكت الأمر كانت مشحونة بما يكفي ضد محسن، ولكنها صارت حيادية جدًّا وترى نفسها السبب الأول في تدهور الأمور ووصولها إلى هذا الحد، وليس محسن. تخيل أنها الآن لا ترى محسن مذنبًا بحقها، بل صارت تتعامل مع الأمر بموضوعية جدًّا، حتى أنها حين تتذكر ما حدث بينهما في تلك الليلة تعلق باقتضاب: "لا يمكنني

إدانة رجل لمجرد أنه تعامل معي بطريقته الخاصة، حينما كنت أنتظر أنا منه أن يتعامل معي بطريقة رجل آخر".

الغريب أنها نسيت الجروح التي حدثت لها في علاقتها مع محسن، رغم أن ما فعله محسن بها في يوم، لم يفعله إلهامي بها في سبع سنوات، ولكنها رغم ذلك لم تنسِ الجروح التي تركها إلهامي بها.

يبدو أن الجروح التي لا تنسى حقـــا هي تلك المحفورة في قلوبنا بوشم من عشق، وما عداها من جروح تصبح مجرد ندوب معبرة عن الماضي، واخزة للحاضر، مؤلمة للمستقبل، ولكنها لا تحتاج منا في النهاية لحظة تذكرها، إلى تنهيدة يتوقف القلب من أجلها، أو إلى ضمادات لعلاج آثارها... كما كانت مريم تقول .

لأنها حتى الآن لا تستطيع إلا أن تدين إلهامي كلما شعرت بحنين إليه، فرغم أنها لم تنس أنه لم يستغل جسدها يومًا ما من أجل متعته وعلمها أن الحب يعني الحفاظ على من نحب، إلا أنها لم تنس أيضًا أنه تركها بعد كل ما كان بينهما، وتسبب لها في فقدان الثقة في كل شيء من حولها، لأن فقدان الثقة فيمن نحب يعني فقدان الثقة في الجميع.

ورغم أن ما حدث مر عليه الكثير من الوقت الآن، ربما يقترب الأمر من عام على فراقهما، إلا أنها لا تزال حتى الآن تشتاق إليه، ولكنها اكتفت بإخماد شهوتها بالانشغال في عملها مرات، وبالاستمناء مرات أخرى بعد أن قررت بعد ما حدث مع محسن بألا تقترب من رجل آخر إلا بعد أن تتعافى تمامًا، ولكن الغريب أنها حين كانت تفعل ذلك بنفسها، كانت تردد نفس الألفاظ والسباب الجنسي الذي كان إلهامي يقوله لها عبر الهاتف.

- *وكيف عرفتِ ذلك؟*
- رأيتها!
- متى؟

- لا يهم، المهم أني رأيتها.

- *هل مارستِ الجنس مع مريم، ولا تريدين أن تحكي لي ذلك؟*

- لا ، ذهب خيالك إلى بعيد جدًا، لم يحدث بيننا أي شيء، سأحكي لك حتى لا تتهمني بمثل هذه التهمة.

- *التحليل النفسي لا شأن له بمثل تلك الأحكام المنصبة على القيم ***.*

الأمر كله كان مجرد فكرة مجنونة من جانب مريم، كانت تريد أن تشرب الويسكي، لأنه كان المشروب المفضل لإلهامي، ولأنه لم يكن يوافق ولو مرة واحدة على طلبها بأن تجربه.

- أريد أن أجرب الويسكي.

- أمجنونة أنتِ؟ لا تفكري في الأمر مرة أخرى.

- وما المانع، أنت تشرب.

- أنا أشرب... أنتِ لا.

- أنت ديكتاتور.

- وأنت جاريتي وحبيبتي وعشيقتي وابنتي ...

أقنعتني مريم بالذهاب معها إلى شقتهم القديمة في شبرا التي كانت تعيش فيها طفولتها قبل أن تنتقل للعيش في العجوزة مع مصطفى زوج والدتها.

كان مفتاح تلك الشقة مع مريم، تذهب متى تشاء لتبيت هناك بمفردها، دون معارضة من والدتها.

"أريد أن أجرب الويسكي، وأخشى من حالة السكر ولا أعرف ماذا سيفعل بي، لأنني لم أجربه من قبل، أريدك أن تأتي معي فقط لتسيطري على أفعالي".

أقنعتني مريم بأني سأكون مجرد مراقب على أفعالها حتى لا تتدهور حالتها إذا شربت وهي تجلس وحدها، رغم أني عارضتها كثيرًا على تلك الفكرة، إلا أني وافقت في النهاية.

شعرت برغبة في أن أفعل شيئًا مختلفـًا، وقلت لنفسي إنه ليس عليّ الشعور بالذنب لأنني لن أشرب، لكنها حين صبت كأسًا وخففته ببعض البيبسي، لأن ذلك يجعل طعمه أفضل كثيرًا من الماء، كما قالت مريم نقلاً عن إلهامي بالطبع، حينها شعرت بالرغبة في التجربة، لمحت مريم في عيني تلك الرغبة.

- كم من الأشياء علينا تجنبها لكي نكون أناسًا صالحين، وكم من الأخطاء علينا ارتكابها لكي نكون أناسًا طبيعيين، قالت مريم...

فهمت ما قصدته، كانت تريدني أن أكون إنسانة طبيعية، أنا أردت ذلك أيضًا، لكنها حين مدت يدها لي بكأس الويسكي، شعرت بالخوف من التجربة.

- أنتِ أولاً... قلت لها...

- لا، إذا كنتِ تنوين الشرب فيجب أن تبدأي أنتِ أولاً، لا يمكن أن نفعل ذلك نحن الاثنتين في وقت واحد، إذا شربت إحدانا يجب أن تظل الأخرى في وعيها لأنها المرة الأولى التي نفعل فيها ذلك، وأخشى أن يحدث شيء خارج عن السيطرة.

- أوافقك، ولكن لما لا تكوني أنتِ أولاً؟

- لا، فلتبدأي أنتِ حتى يكون هناك وقت كافٍ تستعيدين فيه توازنك قبل أن تذهبي إلى المنزل، أما أنا فإذا حدث أي شيء معي فيمكنني المبيت هنا.

اقتنعت بكلامها، أخذت منها كأس الويسكي، واستمعت إلى نصيحتها "رشفات قليلة متتالية تحدث تأثيرًا أكثر من شربه مرة واحدة- هكذا قال لها إلهامي- فلتبدئي التجربة".

بعد الرشفة الأولى، أبعدت الكأس عن يدي ووضعته فوق الطاولة وأنا لا أستطيع التخلص من هذا الطعم "المقرف" الذي ذقته.

"لم أذق في حياتي شيئًا كهذا القرف. كيف يشرب الناس الويسكي ويدمنونه؟ إن طعمه لا يحتمل".

قلت لمريم، فأشارت بأصابعها وكأنها تذكرت شيئًا، ثم ذهبت خارج الحجرة وعادت من جديد وفي إحدى يديها جبن رومي، وفي اليد الأخرى كيس شيبسي، وضعتهما أمامي "آسفة، نسيت أنه لا يشرب وحده، لا بد من شيء إلى جواره، جبن، أو شيبسي، جربي الاثنين حتى لا تشعري بطعمه".

- لا، هذا لا يمكن أن يخفف من طعمه أي شيء.

- جربي!

هززت رأسي وضممت شفتي قرفاً

-إذا كنتِ بدأتِ فلا تتراجعي، جربي حتى تعرفي تأثيره على الأقل.

فكرت بيني وبين نفسي، أريد أن أعرف حقّـًا ماذا تفعل الخمور بالرأس، تحاملت على نفسي، وأخذت رشفات متتالية ببطء، ومعها كنت أتناول شيبسي وجبن رومي بكمية كثيرة.

رغم أني لم أكن أصدق أن أفعل ذلك في يوم ما، إلا أنني كنت سعيدة لأنني أجرب شيئًا جديدًا يمكنه أن يكسر الروتين اليومي في حياتي، وأن يكون فاصلاً بين حياة عادية وحياة عادية أخرى.

ثلاث كؤوس هي عدد ما شربت، قبل أن أطلب من مريم أن تتوقف عن صب كأس أخرى، لأنني لم أشعر بأي اختلاف.

- وهل كنتِ تتوقعين أن تشربي كأسًا واحدة فتتحولين إلى امرأة أخرى كما يحدث في الأفلام؟ ما يحدث في الأفلام غير حقيقي، وأمر مبالغ فيه، أريد معرفة ما يحدث في الواقع لمن يشرب الخمر.

- لا شيء على الإطلاق.

قلت هذا وقمت من مكاني، سرت خطوة واحدة ثم وقعت على الكنبة.

ضحكت مريم وقالت في سخرية "يبدو أنه حقـًا لا يحدث شيء على الإطلاق"

نظرت لها في تحدٍ، وقمت لأجرب السير مرة أخرى، لكني سقطت تلك المرة على الأرض، لم أحاول القيام، الحقيقة أنني لم أجرب القيام، لكني شعرت بلذة في الاستسلام، كان أجمل استسلام شعرت به في حياتي، أردت لو ينطفئ النور لأنام في هدوء وسعادة.

- ماذا تشعرين؟

- أشعر بسعادة وبخفة، لا أريد شيئًا سوى النوم، أحتاج إليه أكثر من أي وقت.

- أريد أن أجرب شعورك.

- لا أقوى الآن للسيطرة عليكِ، دعيني أنام، ثم نتبادل الأدوار.

- إذن اخلعي ثيابك.

نظرت إليها في دهشة، كنت لا أزال على وعي بما حولي، وليس كما يحدث في الأفلام.

سألتها في دهشة: ماذا قلتِ؟

ضحكت مريم: قلت اخلعي ثيابك.

- لماذا؟

- حتى أغتصبك، بعد فقداني الأمل في الرجال، قررت أن أكون سحاقية، سآخذك معي في هذا الطريق، ولكني قررت أن أكون الفاعل وليس المفعول به.

- أطفئي النور، ودعيني أنام، لست فائقة لمثل هذا المزاح الثقيل جدًا. قلت بجدية...

- لكني لدي رغبة شديدة في رسمك.
- أنا؟

سألتها بدهشة، لأنها لم تعرض على هذا الأمر من قبل، حتى أنا لم أطلب منها هذا، لأنني لم أكن أشعر أنني أنثى يمكن أن تتمدد رغباتها فوق لوحة من لوحات مريم، فاللوحة تختلف عن الكلمات التي أكتبها، فالكلمات لن تظهر سوى مشاعري، أما اللوحة ستظهر ملامحي، وجسدي.

- ولم لا؟! سألتني مريم...

شعرت برغبة شديدة في ذلك، لكني كنت متعبة جدًّا.

- ألا يمكن تأجيل ذلك حتى أستيقظ!
-لا، الآن، أريد أن أرسمكِ وأنتِ نائمة على الأرض وعارية.
- لا، لن أكون عارية تمامًا، سأبقى بملابسي الداخلية.
- لكِ هذا.

أحضرت مريم مخدة ووضعتها أسفل رأسي، وطلبت مني أن أخلع ثيابي إلى أن تجهز لوحاتها.

خلعت ثيابي، كان الجو حارًّا بعد أن أطفأت مريم جهاز التكييف، وأغلقت الشبابيك، فلم أعد أشعر ببرد، كما أنها أكدت لي أن الويسكي يجعل الجسم دافئًا.

حين عادت، اقتربت مني، رفعت حمالة صدري بيديها، فاقترب نهدي بعضهما من بعض، فشعرت بالتوتر للحظة...

- تبدين مثيرة جدًّا، يعجبني شعرك أكثر حين يكون "كيرلي"......

قالت لي مريم كلامًا كثيرًا، لكني لم أركز في أغلبه، ما كان يهمني وقتها، أنها تراني مثيرة.

- هل شعرتِ برغبة في أن تفعلي شيئًا مع مريم؟

- لا، لا يذهب عقلك بعيدًا مرة أخرى، أنا كنت مثارة فقط، ولو كان هناك رجل أحبه، لما كنت تراجعت عن أن أكون امرأة معه.

نمت على جانبي الأيسر كما طلبت مني مريم، ذهبت في النوم لمدة ساعتين، قبل أن توقظني مريم لترينى اللوحة، لم أصدق نفسي حين رأيتها.

- هل هذه هي أنا؟ سألت مريم في دهشة...

ضحكت مريم وهي تهز رأسها بالإيجاب.

- إنها جميلة جدًّا. قلت معلقة على اللوحة...

- إنها؟ بل أنكِ جميلة جدًّا، لماذا لا تشعرين بجمالكِ يا نورا؟ لماذا تخجلين من الإشارةَ إلى جمالك، وإذا فعلتِ تتكلمين وكأنكِ تقصدين واحدة أخرى؟ أنتِ جميلة، ثقي في نفسك قليلاً.

لم أجد ما أقوله، لأني فعلاً كنت كذلك، لكني كنت سعيدة بتلك اللوحة جدًّا، أخفيتها أسفل مرتبة فراشي وكنت أنظر إليها كلما أردت الشعور بأنوثتي، لكني لم أعد أنظر إليها الآن، ولا أتذكر أين ذهبت.

- ألانكِ لم تعودي تشعرين بأنوثتك؟

- لا، أضعتها فعلاً، ولا أتذكر أين ذهبت.

- أيمكن لإنسان أن يضيع شيئًا كان لا يغيب عن عينه؟

- ماذا تقصد؟

- لا شيء.

- لا، أنت تقصد أنني لا أشعر بأنوثتي، لذلك أضعتها.

- ربما.

- لا، لا تقل هذا مرة أخرى، أرجوك، دعنا من هذا، أنا كنت أروي لك تلك القصة كلها من أجل مريم في الأساس. ألم أخبرك أنني رأيت مريم وهي تستمني وتقول ألفاظـــا جنسية، وسألتني متى رأيتها؟

رأيتها في تلك المرة، فبعد أن قمت من النوم، واستعدت توازني، تبادلت أنا ومريم الأدوار، شعرت مريم بنفس اللذة بعد الكأس الثالثة، واستسلمت، أخبرتني أنها تشعر بشهوة تجاه إلهامي وتحتاجه جدًّا.

- لكنه متزوج الآن. قلت لها...

- لا أريد أن أتذكر هذا، أنا مستسلمة لخيالي الآن .

شعرت بأنني ساذجة لأنني ذكرت مسألة زواج إلهامي أمامها وهي في تلك الحالة من الاسترخاء، فتركتها تستمتع بلحظات خيالها.

لم تخجل مريم من فعل ذلك أمامي، لكن أكثر ما أدهشني أني وجدتها تشتم نفسها (يا لبوتي، يا شرموطتي، ...) وكأن شخصًا ما بداخلها يمثل دور إلهامي. كانت مستمتعة جدًّا بذلك، بينما كنت أنا مصدومة جدًّا من ذلك.

*- هذا يسمي "الامتصاص"، أي تحول الليبيدو: الطاقة النفسية الغريزية الموجهة ناحية الموضوع إلى الداخل***، ولما كان الموضوع هنا هو إلهامي الذي لا يمكن عودته، فقد تحول الليبيدو الخاص بمريم والموجه ناحية إلهامي إلى داخلها، وتقمصت دور إلهامي.*

نعم، كانت مريم تستعيد ذكرياتها مع إلهامي بهذا الفعل الذي لم أتخيله، لم أكن أتوقع أن تسب فتاة نفسها وهي تمارس العادة، لأنها تريد أن تشعر بوجود حبيبها الذي كان يسبها في أثناء علاقتهما معًا، وتريد أن تعوض غيابه وتصل إلى مرحلة الانتشاء بنفسها.

لكني ارتحت حين رأيتها تفعل ذلك، لأني تأكدت من ملامح وجهها وهي تفعل ذلك من كوني لست الفتاة الوحيدة التي تتحول ١٨٠ درجة عند ممارسة الاستمناء.

- أوَ تأكدتِ من أنك أنثى طبيعية؟

لا أعلم، أخبرتك من قبل أنني أحاول أن أكون طفلة بعد أن لم يتركوا لي فرصة أن أكون أنثى، فحالة اللاطفولة واللاأنوثة تفقدني

توازني، ولا تجعلني أعرف ماهيتي وتسبب لي الاكتئاب، فأكون معها لست طفلة من حقها أن تلعب وترتدي ما تشاء، ولا أكون أيضًا أنثى يمكنها أن تتدلل وتحب وتلبس ما يليق بأنوثتها، ولما كان تمسكي بأنوثتي في ظل تلك القيود من حولي هو الأصعب، فأنا أحاول دائمًا أن أكون طفلة بما تبقى لي من طفولتي حتى أثبت بها هويتي.

- ولكنكِ شعرتِ بأنوثتكِ حين رفعت لكِ مريم حمالة الصدر، شعرتِ أنكِ مثيرةَ ورفضتِ أن تقولي أنكِ أنثى، ثم قلتِ على استحياء أنه إذا كانَ هناك رجل تحبينه فإنكِ لن تترددي في أن تكوني امرأته. فلماذا لا تشعرين أنكِ أنثى؟ أم أنك تتحججين بمسألة وجود رجل لأنكِ تدركين أنه من الصعب أن تسمحي لهذا أن يحدث فتجعلي أنوثتكِ مشروطة بشيء مستحيل وبالتالي لا تضطرين إلى مواجهتها؟

- لا، أنا فقط طفلة، وسأظل طفلة، ولا أريد شيئًا آخر، أكره أن أكون أنثى، وأكره جسدي، وأكرهك...

***

الفصل الخامس

لم أكن أتخيل في بداية عملي في الشركة أنني سأضطر للقيام بــ"التشييك"، وهو يعني أن أقوم بالاتصال بالناس الذين سيحضرون الجروب للتأكد من معلوماتهم، لم أكن أحب تلك المهنة، لأنه في بعض الأوقات كان من الممكن أن أظل طوال اليوم ولمدة أسبوع أو أسبوعين أتصل بالناس وأتحمل الصداع الذي يسببه الحديث في التليفون طوال الوقت، وفي النهاية يُلغى "الجروب" فيقل دخل الشهر.

بالإضافة لذلك، كنت أكره تلك المهنة لأنني خشيت أن أتعلم منها النظر إلى الناس بطبقية، فالذين يحضرون إلينا نقسمهم نحن إلى ٤ طبقات، تأتي في مقدمتهم الطبقة "A"، تلك الطبقة التي يمتلك المندرجون أسفلها سيارات أحدث موديل ويشتركون في أعلى النوادي الاجتماعية مثل الجزيرة والصيد والشمس، ويسكنون ويمتلكون شققـًا في أرقى الأحياء مثل وادي دجلة، وجزيرة العرب في المهندسين.

تليها الطبقة "B"، التي يقل أفرادها درجة بسيطة عنها، ويسكنون في مناطق راقية أيضًا ولكنهم يمتلكون سيارات يرجع موديلها إلى عام أو عامين سابقين، ويشتركون في نوادي أقل نسبيًا مثل النادي الأهلي ونادي الزمالك (صدمت في بداية عملي حين عرفت أن هذين الناديين ينزل أعضاؤهم درجة في السلم الطبقي).

وبعدهما تأتي الطبقة C، وأفراد تلك الطبقة يمتلكون سيارة عادية، لا يهم أن يكون موديلها حديثـًا أو غاليًا، ويشتركون في نادي أقل مرتبة من الطبقات السابقة مثل نادي الترسانة.

صدمت مرة أخرى حين عرفت تلك المعلومة، لأنني كنت أظن أن أسرتي من ضمن الطبقة "C"، لكننا لا نمتلك أية سيارة، وبالنسبة إلى النوادي كنا نشترك في الماضي في مركز شباب الجزيرة، كان أخي

يلعب الكاراتيه، وكنت ألعب لعبة الأغنياء وهي التنس، ربما لأقرّب المسافة قليلاً بين "التراك" الذي يفصل بين نادي الجزيرة ومركز الشباب.

اخترت تلك اللعبة لأنني كنت أعجب بملابس لاعباتها اللاتي كنت أراهن مصادفة في أثناء المباريات، فلم أكن من متابعي مباريات التنس، وددت لو ارتديت تلك الـ"skirt" القصيرة، لكن لم يكن هذا ممكناً بالطبع، اكتفيت من تلك الرغبة بلعب التنس، توقفت بعد فترة لأن مصروفي لم يكن يكفي لدفع مصاريف اللعب للكابتن، وحين صار معي أموال لم يعد لدي وقت. صرت أعوض نفسي عن اللعب بالدخول إلى محلات الملابس الرياضية، أقف طويلاً أمام الـ"ستاند" المصفوفة فوقها الـ"skirts" القصيرة للعب التنس، وأكتفي بلمس حُلمي، أنظر إلى سعرها، أخبر نفسي بأن "٤٥٠" جنيهًا لشرائها ووضعها تحت مرتبة الفراش هو الحرام بعينه وليس ارتداؤها.

أتراجع عن التفكير، أكتفي بلمسها وأتخيلني بداخلها، يقاطع البائع أحلامي، يسألني بدهشة عما أريد، يستكثر على محجبة مثلي لمس أحلامها، أخبره بأني أود شراء هدية لصديقتي وبعد أن يعرض على سعرها وألوانها والـ"تي شيرت" والحذاء الذي يتناسب معها، أشكره وأمنحه ظهري بعد أن أرى ابتسامته التي علت وجهه وكأنه يؤكد بها لنفسه خبرته بالمطالعين فقط دون شراء، أرحل وأعلم أنني لن أعود مرة أخرى لهذا المكان، وأن على أن أبحث عن باقي الفروع لألمس حلمي.

وعدم اشتراكنا في أي ناد، وعدم امتلاكنا سيارة، يجعلنا نتراجع عن تلك الطبقة أيضًا، ولكن إلى أية طبقة سنتراجع إذا كانت الطبقتان المتبقيتان واللتان يحسبان كطبقة واحدة تسمي D- E، يمكن تعريفهما أنهما أبسط طبقات المجتمع والتي لم ينل أبناؤها تعليمًا أو مؤهلاً، ولكنهم يعملون في مهن كالنجارة والحرف اليدوية.

حتمًا هاتان الطبقتان الأخيرتان لم تكونا تناسبانا كأسرة تعد من ضمن الأسر المتوسطة التي نال أحد أبنائها شهادة جامعية في المحاسبة ويجيد الإنجليزية بطلاقة مكنته بسهولة من إيجاد عملاً بعد تخرجه في أحد البنوك، بينما نالت ابنتهما الأخرى شهادة جامعية من إعلام القاهرة، لا يهم ما الذي منحته أو لم تمنحه شهادتها لها من مزايا، المهم أنها أسرة متوسطة نال أبناؤها شهادة جامعية، وهم ليسوا على أية حال يدخلون من ضمن الطبقة D-E، ولكنهم في الوقت ذاته لا يعتبرون من ضمن الطبقة C، فصرنا طبقة عالقة بلا هوية.

لم أحتج إلى قول كل هذا لزملائي في العمل من ذوي الخبرة التي ربما تصل إلى سبع سنوات في التشييك ليدركوا أنني لا أفهم شيئًا في تلك المهنة، هم عرفوا ذلك من أسئلتي الكثيرة "ما الفرق بين شخص لديه اشتراك في نادي الجزيرة ويمتلك سيارة "بي إم دبليو" أحدث موديل، وبين آخر يشترك في النادي الأهلي ويمتلك نفس السيارة؟"، " ما الفرق بين شخص يشترك في نادي اجتماعي مثل الترسانة ويمتلك سيارة موديل قديم، وآخر لا يمتلك تلك الأشياء ولكنه متخرج في نفس كلية الأول؟".

هم أفهموني أنهم يقسمون الناس إلى طبقات حتى يسهل عليهم وضعهم في مجموعات متشابهة، فلا يجلس شخص من الطبقة A، ليبدي رأيه في منتج سجائر غالٍ جدًّا يصل ثمن العلبة فيه إلى ٦٠ جنيهًا، مع رجل آخر من الطبقة C، ويستخدم سجائر لا يتعدى ثمن علبتها ٥ جنيهات، ومع ذلك يشتريها "فرط".

هي حقــًا إجابة منطقية، منطقية لدرجة تخنق، فأنا نفسي وأنا أعمل مساعدة وكل مهمتي أن أكتب بعد الناس ما يقولون، لا يمكنني تخيل سيدات من طبقة A، يتحدثن عن استبدالهن بكريم بشرة يبلغ ثمنه ١٥٠ جنيهًا آخر يتعدى الـــ ٢٠٠ جنيه، يجتمعن في غرفة واحدة مع

نساء أخريات يتحدثن عن إقلاعهن عن شراء أحد المنظفات لأن ثمنه ارتفع في الأيام الأخيرة ثلاثة جنيهات مقابل آخر أرخص منه حتى ولو كان أردأ، هؤلاء الأخريات اللاتي يأخذن معهن في نهاية الجلسة علب المياه الغازية الموضوعة أمامهن ليعطونها لأطفالهن الذين تركنهن في المنزل وأقصى أحلامهن أن يدخروا من مصروفهن لمدة يومين أو ثلاثة حتى يمكنهم معرفة الفارق في الطعم بين البيبسي الذي يوضع في علبة تسمي "الكانز"، وبين الذي يوضع داخل زجاجة تكسر بمجرد وقوعها فيمسكونها بكلتا يديهم حتى لا يضيع مصروفهم الذي أنفقوه في مقابلها هباءً.

اليوم رحل الجميع في السادسة ككل يوم، لكني بقيت في الشركة لأن الجروب الخاص بإحدى زميلاتي والذي كنت أتدرب على العمل عليه كان به شخص لم يُجب على هاتفه طوال اليوم، كنت مضطرة للانتظار حتى يجيب لأؤكد عليه الحضور في موعده المقرر في الغد.

انتظرت الرجل حتى السابعة والنصف، كنت متأخرة جدًّا على المنزل، وكان بإمكاني الرحيل إذا لم يجب، لكني انتظرت حتى أشعر بأنني انتهيت من شيء، كنت متعبة جدًّا وأشعر بصداع بسبب الحديث طوال اليوم في التليفون وقول نفس الأشياء (آلو، أستاذ...، معك نورا من شركة...، أود التأكد من حضرتك من بعض الأمور، أين تسكن بالتحديد؟ كم هي عدد النوادي التي تمتلك عضوية بها، ما هي؟ ماذا تعمل؟ كم عدد سيارات أسرتك؟ ما نوع السيارة الخاصة بك؟ موعدنا غدًا في الساعة.....، لا تنسَ إحضار رخصة سيارتك وكارنيه النادي الخاص بك، مع السلامة...).

لم أذكر كم هي عدد المرات التي سألت وأعدت فيها تلك الأسئلة طوال اليوم، لكني كنت متعبة ومستسلمة للانتظار حتى أنتهيَ من هذا

العمل ولا أضطر للمجيء مبكرًا في اليوم التالي لإكماله لمجرد أن أحدهم لم يجبني لمدة تزيد عن الخمس ساعات.

لذلك حين أجابني، حاولت أن أسأله بسرعة كل الأسئلة، تأكدت من أنه يعمل مترجمًا للأدب الفرنسي ويسكن في المعادي في منطقة وادي دجلة ويمتلك سيارة "بي إم دبليو" موديل العام قبل الماضي، ويمتلك عضويتين في نادي الجزيرة ونادي وادي دجلة، توقفت عند موديل السيارة الذي يمكن أن ينقل صاحبه من طبقة "A" إلى طبقة "B"، لكنني تذكرت ما قالته لي "هدى" زميلتي في العمل، أن شيئًا يعوض شيئًا آخر، فإذا كان يمتلك شقة في أرقى أحياء المعادى، وعضويتين لأرقى النوادي، فيجب وضعه في الطبقة A.

توقفت عن توجيه الأسئلة إليه حين رن هاتفي "أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة، والحياة لا تقيم في منازل الأمس"

منذ شهر، جعلت ذلك المقطع من أغنية فيروز نغمة لوالديّ ، ترن كلما اتصل بي أي منهما، بعد أن رفضا سفري يومًا واحدًا إلى طنطا، في عمل يخص الشركة، لأعمل مساعدة في أحد الجروبات هناك، كان هذا سيعود على بضعف ما آخذه إذا قمت بنفس العمل في القاهرة، رفضا سفري إلى طنطا التي لا تتجاوز مدة السفر إليها ساعتين، وحين اعترضت أخبروني أنه بإمكاني السفر مع زوجي في أي مكان بعد الزواج، أما قبل ذلك فلا.

تذمرت حينها لأنني دخلت هذا العمل من أجل المال، وأنني إذا كنت لا أستطيع الحصول على كل المميزات التي يوفرها لي العمل من السفر لزيادة المرتب، فلن تكون هناك فائدة من عملي وحينها سأشعر بحسرة لأنني تركت كل شيء من أجل أن أبني مستقبلي بالأموال كما أخبراني بأنفسهما، وفي الوقت ذاته منعاني من أن أسعى لزيادة راتبي بحجة أن السفر لا يكون سوى مع الزوج.

لم أتذمر من أجل الأموال فقط والتي ضحيت بكل أحلامي من أجلها، ولكني تذمرت أيضًا من أجل تلك الجملة الأخيرة، أن السفر لا يكون سوى مع الزوج. فكرت في داخلي: وماذا لو لم أتزوج!! ماذا على أن أفعل وقتها، أأظل هكذا أعيش الحياة بدون أن أحياها، بدون أن أرى جمالها، أأكتفي من الحياة بتلك المناطق القليلة جدًّا التي ذهبتها في حياتي داخل القاهرة، وماذا عن خارج القاهرة الذي لم أعرف منه سوى الإسكندرية ورأس البر، هل ستتشبه حياتي حياتهما، أبي وأمي، أجلس في المنزل وأتظاهر أنني أكون سعيدة أكثر حين أكون في المنزل، رغم أنني أتصنع تلك السعادة بعد أن عجزت عن التواصل مع الدنيا من حولي التي كانت تتطور وتتسع بينما كنت أكتفي أنا منها بمتابعة تطورها من خلال شاشة التلفاز، لا، لا يمكنني أن أصبح مثل والديّ، ولا يمكنني أن أصبح أيضًا مثل أخي الذي يجلس طوال اليوم أمام جهاز كومبيوتر لإنجاز عمله، ثم يعود ليقضي باقي أوقاته أمام النت في عالم افتراضي.

أنا لا أريد أن أكون هكذا، صحيح أنني جئت للعمل من أجل الحصول على أموال، حتى أتفرغ بعدها لكتابة الرواية ونشرها، وصحيح أيضًا أنني فقدت روحي وقدرتي على الكتابة، لكنني على أية حال قررت أن أجمع الأموال التي كسبتها وأسافر بها إلى كل مكان في مصر، لأنني لم أكن أتخيل أنه يمكنني العيش طوال حياتي في مكان محدود جدًّا منها، بدون أن أرى باقي أجزاء المكان الذي أنتمي إليه، ومن بعد ذلك يمكنني أن أسافر إلى دول أخرى في العالم مثل فرنسا وإسبانيا وإيطاليا... ما أجمل الأحلام!

دارت كل تلك الأفكار في رأسي لحظة نطق أبي جملته "لا يمكنك السفر وحدك، حين تتزوجين، سافري مع زوجك أينما شئت".

شعرت وقتها أن أحلامي دائمًا مرهونة بشيء ما، لا يكون متاحًا غالبًا، دائما مؤجلة إلى أجل غير مسمى، فإذا أردت السفر فيجب أن يكون مع زوجي الذي لا أعلم في أي وقت سيأتي، وإذا أردت خلع الحجاب فليكن أيضًا بموافقة هذا الزوج الذي من المفترض أن يوافق على ذلك رغم أن جزءً من تقدمه إليّ بالطبع هو أنني فتاة محجبة، وإذا أردت أن أكون امرأة فليكن مع زوجي الذي لا أعرف ما هي حدود معرفته في التعامل مع الأنثى داخل زوجته حتى لا تفقد أنوثتها على يديه، هذا كله إذا أردت أن أكون حرة.

ورغم كل الأفكار التي انتابتني وقتها إلا أنني لم أستطع الاحتجاج إلى النهاية، أعتقد أنه ليس هناك في الحياة من هو أكثر جبنًا مني، فبدلاً من أن أعترض على منعي من حقي المسلوب في الحياة حتى أسترده، وضعت لهما تلك النغمة لأشعر أنني أعترض ولو على لسان غيري، ولو على لسان "جبران".

كانت والدتي التي تتصل بي حين رن الهاتف "أولادكم ليسوا لكم ...." فانقطع تركيزي عن إكمال توجيه الأسئلة إلى زياد.

- *اسمه زياد؟*
- نعم، زياد مالك.

كان يجيبني بصوت هادئ، وحين انقطعت عن توجيه الأسئلة ورحت أضع يدي على الهاتف لأخفض صوته وأبعد ذبذباته عن الهاتف الأرضي الذي أتكلم منه، والتي لم تنقطع بسبب اتصالات والدتي المتكررة، صمت هو الآخر، ظننت أنه انزعج مني بسبب انشغالي عنه، فعدت لأكمل الأسئلة بسرعة، قبل أن يقاطعني بقوله: ما تلك الأغنية؟

- إنها لفيروز.
- أقصد لمن كلماتها؟
- إنها لجبران.

أجبته على مضض، ظننت أنه من هذا النوع من الرجال الذين كثيرًا ما شكت زميلاتي اللاتي يعملن في "التشبيك" من التعامل معهم، والذين يخرجون دائما عن الأسئلة التي تسألها لهم، ويدخلون في أمور شخصية حتى يتسلون أو يحصلون على رفيقة لأيام، والذين يكون معظمهم من الطبقة A أو B ، لأنهم يظنون أن فتاة تجلس خلف مكتب لتسأل تلك الأسئلة المملة طوال اليوم هي من المؤكد أضعف من أن تقاوم اهتمام رجل بها من تلك الطبقة، هذا ما قالته لي صديقتي هدى في أول يوم عمل لي في التشبيك منذ أسبوع في شكل تحذير.

لذلك شعرت أن زياد هو أحد هؤلاء الرجال وحاولت أن أتجنب الدخول معه في أمور أخرى وعدت لأكمل باقي الأسئلة ولكنه قاطعني: هل تعرفين جبران؟

قلت لنفسي إن عليّ الإجابة عليه، لأنه يريد أن يدخل من طريق الرجل المثقف أمام الفتاة الجاهلة، أجبته بالإيجاب فسألني عن عمري.

- جميل أن تقرئي لجبران في هذه السن، ولمن تقرئين أيضًا؟

كان بداخلي رغبة لأن أغلق في وجه هذا الرجل الثلاثيني، الذي أغاظني هدوءه ورفاهيته التي يتكلم بها عن جبران، في وقت أشعر أنا فيه بصداع شديد، وبكره لحياتي كلها، لكني في الوقت ذاته قررت أن أجيبه حتى يعرف أنني لست مجرد فتاة تجلس خلف هاتف، كنت أريد أن أقول له أن لي كيانـــًا أيضًا، حتى وإن كانت أسئلته تذكرني بعالم الأدب والقراءة والسحر والحلم، هذا العالم الذي أحاول أن أتناساه حتى لا أشعر بالحسرة، فكان على أن أجيبه حتى يعرف أنه لن يضحك عليّ بسهولة، وكأن المعرفة تنجينا من الخداع.

أجبته بأسماء كُتابي المفضلين، وكلما حصلت على إعجابه لكوني قرأت لهؤلاء في سن صغيرة، شعرت بزهو إلى درجة أنني أخبرته أنني كنت أكتب الشعر والقصة، وذكرت له أنني كنت أكتب رواية، وصرت

أذكر له أسماء كل الكتاب الكبار الذين قالوا لي يومًا أنني موهوبة، وكأنني فجأة تحولت إلى أديبة عالمية لها جمهور كبير تتباهى بمسيرتها أمامه. أفقت من أوهامي على سؤاله "إذا كنتِ تحبين الكتابة هكذا فما الذي أتى بكِ لتعملي في مجال بعيد تماما عما تحبين؟"

شعرت بوخزة على إثر سؤاله، أردت أن أغلق الهاتف بوجهه، كمن واجه حقيقة قباحة وجهه بكسر المرآة التي فضحت قبحه، شعرت أنني تعريت أمام رجل لا أعرفه، رجل كنت أحاول منذ قليل أن أشعر بالقوة أمامه أو التباهي بشيء لم أعد أمتلكه، فإذا به يواجهني بحقيقة أن هذا الشيء لم يعد لي ويجردني من قوتي.

ليتني صمت بدلاً من ذلك الجواب الذي نطقت به ردًّا على سؤاله: "إنه القدر".

إجابتي كانت تشبه إلى حد كبير من كلف نفسه بناء عقارًا راقيًا جدًّا في تصميمه ثم شوهه بلون مزعج، بعدها سارعت لأكمل أسئلتي حتى أخفي ضعفي أمامه، وشعرت بأنني عدت من جديد لفتاة عادية تقضي أوقاتها خلف هاتف.

قاطعني بلهجة جادة: "نحن من نختار قدرنا، لا تضيعي حلمك وتجعلي من القدر مبررًا لجريمتك، فقتل الأحلام جريمة لا تقل عن قتل النفس".

سرت في جسدي قشعريرة لا يمكن وصفها، شعرت أنني عارية تمامًا، فقدت كل قوتي التي ادعيتها، أردت البكاء بشدة، وصفعه بشدة أيضًا. لماذا قال لي هذا ومن هو حتى يشعرني بأنني مذنبة، بأنني قاتلة؟ هو حتمًا ابن الطبقة الأرستقراطية التي لم تشعره يومًا بالاحتياج، والذي بالتأكيد كان مدللاً جدًّا، ولديه الوقت الكافي ليقرأ ويلعب ويسافر ويذهب ويرجع، كيف بعد ذلك يشعرني أنني قاتلة لمجرد أنني تركت أوهامي

المتعلقة بالأدب في بلد ترتفع نسب الأمية فيها لمعدلات كبيرة، لأبحث عن طريقة واقعية أجلب بها الأموال، وأبني بها مستقبلي.

صمت حينها لأشعره أن كلامه لا يهمني، أو لأقنع نفسي بذلك، أخذت أعبث بالأوراق التي أمامي،وأنا أنوي مقاطعته في الوقت المناسب وأتحجج له بأن موعد عملي انتهى ولكنه طلب مني أن أسمعه شيئًا مما كتبت.

كدت أقول له بأنني لا أحفظ شيئًا وأجد في ذلك فرصة لأنهي المكالمة، لكني شعرت أنني أريد أن أعرف رأيه، لا ... في الحقيقة أردت أن أرى رد فعله تجاهي إذا ما قلت له إحدى القصائد التي كانوا يسمونها نزارية. اخترت "اسحقني" كنت أقولها له وأنا أنتظر رد فعل معين، أنتظر رد فعل يشبه رد فعل محسن، أو رد فعل كهذا الذي منعني في السابق من أن أظهر قصائدي أمام أحد، حين كان معظم الصحفيين الرجال الذين يقرؤونها يظنون أنني لأنني أكتب هذا فأنا بنت متحررة يمكن أن يدعونها إلى فراشهم.

اخترت "اسحقني" لأنها تعطي هذا الانطباع، وانتظرت بعد سماعها أن يبدأ في الكلام في الجنس معي.

- هل كنتِ تودين الكلام معه في الجنس، وقلتِ لنفسك إنه مجرد شخص لن تتقابلي معه وجهًا لوجه، ويمكنكِ إطفاء رغباتكِ من خلال مكالمة عابرة؟

- لا، لم أقصد ذلك إطلاقـــًا، أقسم لكَ أنني لم أشعر برغبة تجاه هذا الشخص.

- إذن لماذا انتظرتِ أن يكون هذا هو رد فعله على القصيدة؟

- كنت فقط أريد أن أراه عاريًا أمامي ككل الرجال، أردت أن أراه رجلاً عاديًا تتحكم فيه شهوته أكثر من أي شيء، يستغل أية فرصة تمنحها له الفتاة ليأخذ ما يريد، منحته الفرصة وانتظرت رده، لكنه

صدمني، فبعد كل هذا الكلام المثير في القصيدة، يقول لي بأنني موهوبة فقط، وأنني أظلم نفسي بوجودي في هذا المكان.

إذا كان قال لي هذا ثم تكلم بعدها في شيء جنسي، كنت سأسعد، لا لأنني كنت أود ذلك، لكنني أردت أن أشعر أنه رجل عادي، كل ما يهمه شهوته، وكان ذلك جديرًا بألا أحسب لكلامه الخاص بقتل الأحلام أي حساب، كنت سأعرف حينها أنه مجرد رجل غني يجد وقتـًا للتفلسف على الآخرين وأنه أخذ ذلك مدخلاً لأشياء أخرى حين لمح اهتمامي بهذا الأمر ، لكنه حين ذكر ذلك لم يتكلم بعدها عما انتظرت سماعه منه وأخذ يتكلم عن الأحلام وعن ضرورة احترامها.

في ذلك الوقت بالتحديد شعرت أنه رجل مختلف، ورغم أنني أردت إنهاء المكالمة في بداية حديثي معه بشدة، إلا أنني تحولت فجأة إلى النقيض. رغبت بشدة في الاستماع إليه وهو يكلمني عن حبه لأمل دنقل ومحمود درويش وفؤاد حداد، ثم انتقل إلى الحديث عن رواياته المفضلة العربية والأجنبية. كنت أشعر بسعادة حين يذكر روايات قرأتها، وأشعر في الوقت ذاته بالخجل إذا ذكر ما لم أقرأه. لكنني صمت ولم أمتلك الجرأة للبوح بذلك، صمت لأسمعه ولأداري بصمتي جهلي عن كثير من الأشياء التي ذكرها ولم أكن أعرفها، أو تلك التي عرفتها ولم أقرأها.

لم أصدق نفسي وأنا أنظر في ساعة الهاتف لأجدها التاسعة، لم يحدث من قبل أن تكلمت مع عميل لمدة ساعة ونصف وفي أمور شخصية، كما أنني منذ أن دخلت تلك الشركة لم أتكلم في شيء له علاقة بالكتب لأنني لم أجد من يهتم بذلك، تلك كانت المرة الأولى التي أتكلم فيها مع أحد العملاء عن شيء أحبه، ولأكثر من ساعة، من دون مبالاة لتأخر الوقت، أو لاتصالات والدتي المتعددة، كنت مستعدة أن أتكلم معه حتى الصباح، إلا أنه قطع حديثه فجأة وأخبرني أن عليه الرحيل، وأنه لم

يكن سيأتي في الغد، ولكنه سيأتي حتى يراني ويتكلم معي، سألني على عجل إن كنت سأتواجد في الغد.

أجبته بالإيجاب وأنا أشعر أنه مجرد سؤال يجاملني به ليشعرني ببعض الأهمية، رغم أنني لا أمثل لديه على الأقل أي شيء، ولكنه عاد ليسألني مرة ثانية وكأنه أحس بما شعرت به.

- هل أنتِ متأكدة من أنكِ ستكونين هناك غدًا، أقسم لكِ أنني قادم من أجل أن أراكِ وأتكلم معكِ.

حين قال ذلك شعرت بمشاعر متناقضة فأنا أعرف أن الطبقة Aالذين يأتون إلينا لن يهمهم تلك المائة والخمسون جنيهًا التي تعطيها لهم الشركة مقابل حضورهم، ولكنهم يأتون في العادة لمجاملة من يدعونهم إلى الحضور، فهناك أشخاص معنا يكون عملهم أن يأتوا بأناس لمجموعة البحث ويأخذون هم الآخرين مقابل من يدعونهم، ويأخذون حين تكون الطبقة "A"، أو" B"، أكثر من باقي الطبقات.

لم أعرف حينها هل هو قادم مجاملة لأحدهم، أم أنه صادق حقًا في كونه قادمًا من أجلي، وإذا كان الأمر هكذا فمن أكون أنا بالنسبة إليه، ليأتي من أجل رؤيتي أو الحديث معي، وما الذي سيتحدث فيه معي، فأنا مجرد فتاة عادية ليست لي أية أهمية بالنسبة إليه سوى أنه تصادف وجودي في مكان ما لأتصل به، حتى وإذا تكلمنا في اهتمامات مشتركة، فحتمًا أنه يعرف مئات الأشخاص من طبقته الذين لهم اهتمامات مشتركة معه، كما أنه لم يطلب رقم هاتفي وهذا أمر غريب جدًّا!

- وهل هذا الأمر ضايقكِ؟

نعم ضايقني، فأي رجل في مكانه كان سيطلب رقم هاتفي بحجة إكمال الكلام بيننا، حدث هذا الأمر كثيرًا مع رجال آخرين رغم أن

الكلام بيننا كان خاصًا بالعمل فقط، فإن كان فعلها كان سيصبح مثل هؤلاء الرجال.

- *لكنك قلت إنه رجل مختلف.*

وهذا ما يضايقني في الأمر، لأنه إذا كان مختلفـًا فسيصبح كلامه بشأن الأحلام صادقـًا، ومثل هذا التفكير سيأخذني حتمًا إلى الظن بأن كلامي مع زياد لم يكن صدفة، وإجابته لي في وقت متأخر وبعد أن رحل الجميع من الشركة حتى يتاح لي الكلام بحرية معه لم تكن صدفة، واتصال والدتي بي في هذا التوقيت وسماعه جزءًا من أغنية المحبة ليتكلم معي بعدها لم يكن صدفة أيضًا، تلك الكلمات التي أشعرتني أنني أمام رجل يعرفني ويدرك مدى شعوري بالذنب بعد أن تخليت عن حلمي، حتمًا هذا التفكير كله سيأخذني إلى فكرة أن هذا الأمر كله رسالة سماوية لأعود إلى حلمي في الكتابة.

- *وما المشكلة في ذلك ؟ يجب أن تتبعي حدسك.*

- هل تمزح؟ ما هذا الذي على أن أتبعه؟ أنا أتجنب الخوض في هذا الموضوع معك، حتى لا أغذي أوهامي وأزيدها، فتطلب مني أنت أن أتبعها.

- *ولماذا لا، طالما أنك تشعرين أن الأمر ليس مجرد صدفة، وأن به رسالة ما، لماذا لا تلتقطي تلك الإشارة؟*

- هذا ما كنت أخشاه، لذلك لم أكن أريد أن أروي لك تلك القصة، أنت تحرضني على ترك عملي، تحرضني أن أضحي بحياتي الطبيعية التي أحيا فيها وصرت جزءًا منها، من أجل السير خلف أوهام، أتخلى عن وظيفة جلبت لي في شهور أموالاً لم أكن لأحصل عليها في سنوات إذا كنت أكملت طريقي في الصحافة أو اتجهت إلى الكتابة في الأدب، أترك كل هذا وأخاطر لمجرد أن رجلاً قال لي أنني موهوبة وأنه لا يمكنني قتل أحلامي. أنا سعيدة في حياتي، ولا أريد تغييرها.

- *أنتِ تكذبين ،إذا كنتِ كذلك فلماذا كل هذا الخوف من كلمات رجل عابر.*

نعم، أنا كاذبة، لكني لا أريد أن أغير حياتي، وأخاطر بعملي من أجل أوهام، ماذا فعلت لي أحلامي التي عشت في السابق من أجلها، ألم تخذلني، ألم تأتِ بي إلى هذا المكان الذي أكرهه، ألم تحولني إلى فتاة عادية جدًّا وجبانة جدًّا؟ أنا لا أريد التكلم في هذا الأمر ثانية، ولا أريد أن أقابل هذا الرجل الذي يُدعي زياد، وأنا على أية حال لن أكونِ مساعدة لهذا الجروب، لأن جروب الرجال يكون المساعد فيه رجلاً، سأتركك الآن لأني أرهقت جدًّا اليوم بما فيه الكفاية.

****

الفصل السادس

كانت الثالثة حين فتح رجل الأمن- الذي يجلس على مكتب في مدخل الشركة ليتأكد من هوية القادمين إليها- باب حجرة الاتصالات التي كنت أجلس فيها أنا وأربع فتيات.

رجل الأمن أخبر هدى عن حضور أحد الرجال في الجروب الخاص بها، فخرجت لتستقبله وتأخذ منه رخصة القيادة وكارنيه النادي، فهذا ما يحدث دائمًا قبل أن يدخل العميل إلى الحجرة الخاصة بالبحث التسويقي، لأن بعض العملاء من الطبقة "C" يدّعون أحيانـــًا أنهم من الطبقة" A" متحججين بأنهم نسوا كارنيه النادي أو رخصة القيادة ليأخذوا أموالاً أكثر، لأن هناك فارقـــًا بين الأموال التي تعطى للطبقة "A " و" B"، وباقي الطبقات. ولأنه وفي بعض الأوقات يكون الجروب غير مكتمل، ليس ثمانية أشخاص كما من المفترض أن يكون، فيضطر المسئول عن الجروب إخفاء هذا الأمر وإدخال أناسًا من طبقات أخرى حتى لا يتعرض للتوبيخ من المدير.

لم تطلب مني هدى أن أخرج معها لأتعلم كيف تدار الأمور منذ لحظة مجيء أحد العملاء، حتى خروجه مرة أخرى من باب الشركة، فكنت أعرف بحكم عملي كمساعدة ما يحدث في المنتصف، حين يكتمل الجروب ويدخل العملاء إلى الحجرة الخاصة بالبحث التسويقي، ويبدأ مدير الجلسة في توجيه الأسئلة لهم، لكني لم أكن بدأت بعد في تحمل مسئولية استقبال العملاء أو إعطائهم المقابل المادي لحضورهم في نهاية الجلسة.

رغم أني لم أكن أرغب في مغادرة الحجرة حتى انتهاء موعد هذا الجروب الذي أعرف أن زياد سيكون موجودًا به، والذي أخذت قرارًا

بسببه في التزام تلك الحجرة، إلا أنه كانت بداخلي رغبة شديدة في رؤيته.

بعد لحظات دخلت علينا هدى وهي تتنهد وتقول: "ما هذا الرجل!"

تركت الفتيات الهواتف من أيديهن وتركت أنا القلم الذي كنت أشخبط به على إحدى الأوراق لتضييع الوقت، ونظرنا جميعًا إليها لنطلب منها مزيدًا من الشرح.

كنت قد تعودت على ذلك من قبل أن أعمل في "التشبيك"، لأني كنت أجلس معهن داخل تلك الحجرة بين عمل وآخر لأتناول طعامي معهن أو لنتكلم قليلاً في تلك الأوقات التي لا يوجد عمل بها، وكثيرًا ما خرجت إحداهن لتستقبل جروبا خاص بها سواء من الرجال أو النساء، وتعود لتصف جمال امرأة أو وسامة رجل.

لكني تلك المرة انتبهت إلى كلامها أكثر لأن هذا الجروب بالذات كان به زياد، تمنيت أن يكون كلامها خاصًّا به حتى أعرف عن شكله ومظهره ما أردت، لكني في الوقت ذاته تمنيت أن يكون كلامها عن رجل آخر حتى لا أشعر بأي خصوصية لزياد تشجعني ألا أضيع فرصة الخروج لرؤيته، أو للتقليل من مميزاته التي تشعرني بالضعف إلى جواره.

أخذت هدى تتكلم عن وسامة الرجل وعن تواضعه وعن طريقة كلامه الجذابة، وعن ابتسامته المثيرة، ثم أخذت نفسًا وكأنها تستنشق شيئا "لا يمكنني أن أخطئ في هذا العطر، إنه يضع "HOGO ".

هذا هو اسم العطر الخاص بالرجل، فما هو اسم الرجل؟ فكرت بداخلي وأنا أنتظر منها أن تخبرنا باسمه، لا أعرف لماذا لم تأتني الشجاعة لأسألها، ألأنني كنت أخشى أن يكون هذا الرجل هو زياد، أم لأنني كنت أخشى ألا يكون هو؟

اقتربت منا لتعرض علينا صورته، أخذت إحدى الفتيات الرخصة ونظرت معها الأخرى، بينما أخذت الفتاة الثالثة كارنيه النادي وقمت أنا لأراه معها. في أقل من ثانية تأكدت من كونه هو، زياد.

جاءتني مشاعر مضطربة ومتناقضة، شعرت للحظات بالزهو لأن هذا الرجل الذي تجمعت الفتيات من حولي على صورته ليبدين إعجابهن بوسامته، اختصني بساعة ونصف في الأمس يكلمني فيها عن الأحلام ثم يخبرني في نهايتها بأنه سيأتي من أجل رؤيتي والحديث معي.

لكني في الوقت ذاته شعرت بالغيظ من مكانته تلك التي ذكرتني بأن رجلاً مثله بتلك الوسامة والوضع الاجتماعي لن يلتفت إليّ يومًا، لم أكن طامعة حين تكلمت معه في الهاتف لأن يلتفت إليّ، كنت أدرك جيدًا تلك الفروق الاجتماعية بيننا، لكني لا أعرف لماذا شعرت لحظتها بالضيق، بالغيرة من كل الفتيات اللاتي عرفهن هذا الرجل، وبالغيظ منه كرجل له مكانة ووسامة ولم يخطئ معي في أي شيء حتى يظهر لي عيبًا به ينقص من مكانته لديّ، ويشعرني أنه شخص عادى، لا يستدعي مني أي اهتمام، كغيره من الرجال الذين يأتون إلينا ويقال عليهم نفس الكلام ولا يلفتون نظري.

وفي الوقت ذاته شعرت بالخوف من أن يراني، قلت لنفسي إنه حين تكلم معي في الهاتف ربما تخيل من صوتي أنني مثيرة وجذابة لأن الجميع يقولون عن صوتي في الهاتف هذا الكلام، ولكنه إذا ما رآني فربما يصدم في جسدي الذي لم يتعدَ مرحلة الطفولة بعد ووجهي الذي تصادر براءته حقي في أن أكون فتاة كبيرة.

- *أو أنثى؟*
- لا، لم أقل هذا.
- *ولكنك تريدين قولها.*
- لا أنا أقصد فتاة كبيرة تعدت مرحلة الطفولة والمراهقة .

- *والفتاة التي تتعدى مرحلة الطفولة والمراهقة تكون أنثى .*
- لا، أنت تقاطعني وتنسيني ما أود قوله.

كنت خائفة جدًّا إذا رأيته وأخبرته أنني الفتاة التي كانت تتكلم معه في الهاتف، ثم غير طريقته في الكلام معي، سيحدث هذا جرحًا كبيرًا في كرامتي، كنت أخشى أن أهان.

وبينما كانت كل تلك الأفكار تتدافع داخل رأسي بلا انقطاع، حدث ما لم أتوقعه، دخل المدير علينا، اعتدلت كل واحدة منا في وقفتها وكأننا كنا نمارس عملنا، نظر إليّ وقال: أريدك يا نورا.

غادر المكتب ليدخل مكتبه المجاور لمكتبنا، شعرت بالخوف من أن أكون ارتكبت خطأ ما في تفريغ أحد الشرائط، لكن حين دخلت خلفه طلب مني أن آخذ من الدولاب المجاور لمكتبه مسجلاً وبطارية وشريطين.

قلت بدهشة: ليس عندي أي "جروب" اليوم.

عرفت منه أنني سأدخل مساعدة في هذا الـ"جروب"، لأن مساعد الجلسة لم يأتِ، ولأن الجميع مشغول بـ"التشبيك"، رغم أن في عملنا هذا يدخل "جروب" النساء مديرة ومساعدة، و"جروب" الرجال يدخل مدير ومساعد، حتى لا يخجل الرجال أمام امرأة، أو تخجل النساء أمام رجل، فلا يقول كل منهما كل المعلومات خجلاً، لكن يحدث في بعض الأحيان، مثل تلك الظروف فاضطر إلى دخول "جروب" للرجال، لأنه ليس هناك بديل.

رغم أن هذا الأمر عادي جدًّا ويحدث، إلا أنني صدمت لكلام المدير الذي يعني أنني سأكون مساعدة في الجروب الخاص بزياد، أربكتني المصادفة التي أفسدت كل خططي، وما كنت أفكر فيه منذ دقائق على أنه أمر من الممكن حدوثه أو لا حسب رغبتي الخاصة، صار مفروضًا على حدوثه، صرت مجبرة أن يراني زياد.

شعرت بالضعف حينها، زادت دقات قلبي، أخذت المسجل والبطاريات والشرائط ودخلت إلى حجرة "التشييك"، علمت من هدى أن زياد انتقل من حجرة الاستقبال إلى تلك الحجرة التي سيجري فيها البحث التسويقي.

جلست في حجرة "التشييك" لأجهز الشرائط وأضعها في المسجل وأنا أتصنع اللامبالاة، قررت بداخلي أنني لن أدخل تلك الحجرة إلا إذا اكتمل الجروب، ربما يخفف وجود الناس حولي من توتري، لكن فجأة فكرت أن أدخل إلى الحجرة الخلفية التي يجلس فيها العملاء الذين يحضرون من شركاتهم، ليتابعوا كيف يجري البحث التسويقي على منتجاتهم، وأجوبة الناس على الأسئلة.

بتلك الطريقة كان يمكنني أن أراه دون أن يراني، لم أجد أحداً بها حين دخلت، رأيته وهو يتكلم بهاتفه، كان جنونـــا أن أفكر في الدخول إلى الحجرة التي يجلس فيها، لأفتح "الميكروفون" الذي أمامه قبل أن يكتمل "الجروب"، لكن الشيطان في داخلي أخبرني بأن أفعل لأستمع إلى حديثه، وأعرف مع من يتكلم.

دخلت حجرته دون أن أنظر ناحيته، فتحت"المايك" ثم عدت مرة أخرى إلى حجرة العملاء ودقات قلبي ترتفع من الخوف، كان يكلم شخصًا ويخبره بأنه لم يقم بعمل "block" له، لكنه أغلق حسابه، ويخبره بأنه منذ أن فعل ذلك أتته عشرات المكالمات من أصدقاء يستفسرون عن الـــ"block" الخاص بهم.

رغبت في سماع باقي المكالمة لأعرف سبب إغلاقه لحساب "الفيس بوك" الخاص به، لكنني سمعت صوتـــا في الخارج، خشيت أن يدخل أحد ويكتشف ما أقوم به، خرجت فقابلت على الباب مديري الذي سألني "هل جهزت كل شيء؟" حمدت الله أنه لم يدخل عليّ، وأخبرته بتوتر أنني سأدخلَ حالاً لأجهز كل شيء، ولم أجد شيئًا للهروب من

نظراته المتسائلة عما كنت أفعل بالداخل، ولمّا لم أكن جهزت الأوراق وشرائط المسجل، فلم أجد سوى باب الحجرة خلفي ففتحته.

دخلت إلى الحجرة بدون أن ألقي عليه السلام حتى رغم أنه كان انتهى من مكالمته، رأيته بطرف عيني، كان جالسًا في منتصف الكنبة الدائرية التي تتوسط الحجرة، بينما كان مكتبي بجوار الباب ولم أكن في حاجة لمواجهته، وقفت أمام المكتب وتظاهرت بالانشغال في ترقيم الأوراق البيضاء التي سأكتب فيها، فقبل أن يبدأ الجروب علينا تجهيز كل شيء، حتى ترقيم الصفحات، كنت أقف بجانبي بطريقة موازية لمكان جلوسي.

كنت أتصنع تجاهله تمامًا، بينما كنت سعيدة بنظراته التي لم تنقطع عني، رغم أنني حين دخلت إلى الحجرة كان مشغولاً بمتابعة شيء في هاتفه، لكنه ترك الهاتف وصار موجهًا نظراته تجاهي.

في اللحظات الأولى شعرت بسعادة لأنه ترك ما كان يفعله والتفت إليّ، وشعرت بسعادة أكثر لأنني تجاهلته، كان تجاهلي له يشعرني بالقوة أمامه، وكأني بتجاهلي له أذيب كل الفروق الاجتماعية بيننا، لكني شيئًا فشيئًا شعرت بالارتباك والخوف من مراقبته لي، قلت إنه حتمًا يسأل نفسه من تلك الفتاة الطفلة وما الذي أتى بها للعمل في تلك الشركة.

شعرت بالضعف والارتباك بعد أن كنت أشعر بالقوة، أردت البكاء بشدة، قررت الخروج من تلك الحجرة والذهاب إلى الحمام حيث لا يمكن لأحد أن يرى دموعي.

لكني حين أمسكت بمقبض الباب، جاءني صوته: "هل كتبتِ شيئًا جديدًا؟"

شعرت بالصدمة حينها، التفت ناحيته بسرعة لأتأكد من كونه قال هذا فعلاً، وجدته مبتسمًا، ولأول مرة منذ دخولي أراه وجهًا لوجه، سألته عن كيفية معرفته لي.

أجابني بابتسامة "هذا سر".

ظننت أنه سأل عني، فمن العادي أن يسأل أي شخص يأتي إلينا عَمّن هَاتفهُ ليطمئن، لأن عملنا غريب وغير معروف لدى كثيرين، قلت له في ثقة: "سألت أحدهم في الخارج".

هز رأسه نفيًا وأخبرني أنه لم يجرؤ أن يسأل أحدهم في الخارج عني حتى لا يضعني في موقف محرج.

اندهشت لأنه حرص على ألا يضعني في موقف محرج رغم أن هذا الموقف لن يضيره في شيء، فهو سيجلس في الشركة ساعتين على الأكثر ويذهب بعدها إلى حياته. سعدت بذلك، وزادت رغبتي في معرفة كيفية تعرفه على بدون أن أتكلم حتى ليتعرف عليّ من صوتي.

قبل أن أسأله مجددًا قال لي "أنتِ الوحيدة التي تجاهلتني هنا، فرجل الأمن استقبلني بابتسامة، والفتاة التي أخذت رخصتي استقبلتني أيضًا بابتسامة وتكلمت معي، والرجل الذي أدخلني إلى هنا ابتسم هو الآخر في وجهي وسلم عليّ وعرض عليّ مشروبًا، وأنتِ الوحيدة التي لم تفكري حتى في إلقاء السلام عليّ".

شعرت بالخجل لأني تعاملت معه بقلة ذوق، كدت أقاطعه، اعتذرت له فقال: "لا عليك، أشعر بك".

يا الله، تلك الجملة "أشعر بك" لم أسمعها منذ وقت طويل، وكأن الجميع توقف فجأة عن الشعور بالآخرين، أحسست أنني أعرفه ويعرفني قبل تلك اللحظة، شعرت بالارتياح الشديد إليه، وأنني في حاجة للكلام معه.

لكن في تلك اللحظة دخل علينا اثنان من الرجال، انضما إلى زياد، وبعدها بلحظات دخل باقي الرجال، فاكتمل الـ"جروب"، ولم أجد أمامي سوى الإسراع في ترقيم الأوراق، وتجهيز الشرائط بعد أن حييتهم جميعًا بابتسامة وبالسلام.

دخل "حسن" مدير الجلسة، جلس وحياهم، بدأ في التعرف إليهم وفي فتح أحاديث عامة حتى يذوب الجليد، ومن بعدها دخل في موضوع الجلسة، عن شركات الإنترنت التي يشتركون فيها، وأسئلة خاصة باستخداماتهم للإنترنت.

كنت أكتب بعد الجميع بسرعة، أما هو فكنت أنظر إليه عندما يتكلم حتى أرى ملامحه، وأبطئ في الكتابة وكنت أنسي في بعض اللحظات أن عليّ كتابة ما يقول.

عرفت من إجاباته بعض الأشياء عنه، فهو يهتم بتصفح المواقع الإخبارية العالمية والعربية كل يوم في الصباح، وأن هذا لا يغنيه عن شراء جرائد ورقية ليستمتع بقراءة المقالات. وحين جاء السؤال الخاص بـــ"الفيس بوك" والـــ"twitter" أخبره بأن لديه حسابًا في الاثنين، لكنه لا يحب أن يستخدمهما في شيء سوى معرفة الأخبار.

ما لفت نظري ما قاله بشأن غلقه لحسابه على "الفيس بوك" فحين سأله "حسن" عن سبب ذلك، أخبره بأنه امتلأ عن آخره بالوجود الوهمي للآخرين في حياته، اندهش "حسن" من جملته، طلب منه مزيدًا من التفسير، فأجاب بأن الأمر تحول إلى مرض عند كثيرين، يظنون أن مقابلة على الفيس، تغني عن مقابلة حقيقية، وأن ابتسامة في مربع صغير للدردشة، تغني عن ابتسامة وضحكة من القلب، في وجود من نعرفهم إلى جوارنا.

استنكر هوس أصدقائه بالدردشة لدرجة أنهم حين يجتمعون معًا في أحد الكافيهات، ينشغل كل منهم بالدردشة في هواتفهم، من خلال برنامج الـــ "bbm" انجذبت لحديثه الذي أمنّ باقي الرجال عليه، وأكدوا أن الأمر نفسه يحدث معهم ويتضايقون منه.

سأله "حسن" عن عدد ساعات جلوسه إلى الـــ "الفيس بوك" فأجابه بأنه ساعة واحدة، وأنه الآن بعد أن أغلقه يشعر بـــ "relaxation". كنت

أكتب بعده وأنا منتبهة إلى كلامه الذي عرفت منه حينها باقي مكالمته التي لم أسمعها، تأكدت حينها أنه حساس ويفهم ويركز في التفاصيل والمشاعر، لكن أخرجني من التفكير مقاطعة "حسن" له واستئذانه ألا يتكلم سوى بالعربية وهو ينظر إليّ ويخبره بمراعاتي لأني أكتب كل ما يقولونه.

أشار لي زياد حينها معتذرًا، ابتسمت رغمًا عني، ثم أخفيت وجهي في الورق خجلاً، كانت تلك أكثر مرة أشعر فيها بالحرج من موقف كهذا، فغالبًا ما تدخل مجموعات الـ "a&b" الكلمات الإنجليزية وسط جملهم، ومن العادي أن يقاطعهم مدير الجلسة ويفعل ما فعله "حسن"، حدث معي هذا كثيرًا رغم أني كنت أفهم كلماتهم في كثير من الأحيان، وحتى تلك التي لا أسمعهما، كنت أفهمها من سياق الحديث، لكن ليس كل من يجلس يكتب تلك الكلمات وبالتالي يضيع جزءًا من الحديث، يكون غير واضح لمن سيفرغ الشرائط بعدهم.

أحرجني "حسن" كثيرًا وكأنه يخبر زياد بأنني لم أكمل تعليمي. حاولت تناسي الأمر بالعمل، وبالاستماع إلى إجاباته عن باقي الأسئلة.

انتهت الجلسة بسرعة جدًّا، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرغب فيها أن تمتد الجلسة لأكثر من ساعتين، من دون مبالاة للألم الذي يصيب يدي بسبب الكتابة بسرعة، ومن دون مبالاة أيضًا للتركيز الذي يتطلبه مني مسجل لا يصدر صوتًا حين ينتهي أحد أوجه الشريط، فأضطر لضبط هاتفي على موعد انتهاء التسجيل حتى أتذكر القيام بقلب وجه الشريط، حتى لا يضيع جزء من الحديث بدون تسجيل، فأسمع ما لا أحب سماعه من المدير.

بعد انتهاء الجلسة، ظننت أنه يمكنني إكمال حديثي مع زياد، لكن هدى جاءت لتأخذ الرجال إلى حجرة الاستقبال لتعيد إليهم رخصة القيادة وكارنيه النادي وتمنحهم المقابل المادي، وفي الوقت نفسه جاء المدير

ليقف معي ويسألني عن أخبار الجلسة وعن عدد الصفحات التي كتبت. انتظرني ليأخذ مني الأوراق بعد أن أرتبها، وليأخذ مني الشرائط بعد أن أرقمهم وأكتب عليهم رقم الجروب وساعته.

كل هذا استغرق مني وقتـًا، وحين انتهيت منه، أسرعت نحو غرفة الاستقبال فوجدتها فارغة، رحل جميع الرجال .

تضايقت حينها وشعرت بخيبة أمل، قلت إنه حتمًا رآني فتاة ساذجة، تذكرت حينها أن رقم هاتفه معى، لكني لم أكن لأفعلها بعد شعوري هذا.

أخذت قرارًا بأن أنسى الأمر، قلت لنفسي بأن تلك الورقة المكتوب بها رقمه لم تكن معى، إنما كانت مع هدى، وأن تلك إشارة حتى لا أسير خلف هذا الرجل بمشاعري، وإشارة حتى لا أتصل به أو أعرفه ثانية.

مرت ساعة قبل أن أنهي العمل، نزلت من الشركة وحدي، وقبل أن أعبر هذا الشارع الضيق الذي لا يتسع للسير فيه سوى سيارة واحدة والموازي للكوبري الذي أقف عليه لآخذ سيارة الأجرة، وجدت سيارة سوداء تسير بجواري، حين أنزل زجاجها المقابل لى، لمحت زياد على الجانب الآخر يطلب مني الركوب.

شعرت بخوف، فكيف أركب سيارة رجل لا أعرفه، كدت أخبره بذلك وأعتذر له لولا أن السيارات من خلفه أطلقت أبواق تنبيهها، لأن وقوفه هكذا كان يعطلهم عن السير، ركبت بسرعة وأنا أنوي النزول حين يمكنه ركن السيارة على جانب الطريق.

ظللت صامتة، كان هو الآخر صامتـًا ومشغولاً بزحمة الطريق أمامه، حين قل زحام الطريق، قطع الصمت معتذرًا لي عن هذا الموقف، الذي أجبرني فيه على الركوب بتلك الطريقة، أخبرني أنه لو كان يعرف رقم هاتفي لكان سألني عما يجب أن يفعله لنتقابل، وأنه ظل منتظرًا أسفل العمارة ليراقب المدخل حتى لا أخرج دون أن يراني.

كدت أقاطعه وأسأله عن سبب كل هذا، لكني شعرت أن هذا السؤال فيه إهانة لي، وكأنني أقول له "لماذا تفعل كل هذا من أجلي وأنا لا أستحق؟"

قطع أفكاري بقوله "هل تسمحين لي أن أعزمك على الغداء؟"

قبل أن يمنحني فرصة للرد عليه بالقبول أو الرفض، أخبرني أنه لم يأكل اليوم في موعده حتى يراني، ابتسمت وتكلمت للمرة الأولى: أنت تحمّلني ذنبك حتى تحملني على الموافقة.

- نعم أحمّلك ذنبي، وإن لم تأكلي معي فلن آكل .

قال تلك الجملة بابتسامة لم أنسها، أشعرتني أنه طفل صغير يتعامل ببراءة وتلقائية، لا يحمل بداخله أي شيء سيء.

شعرت أنني أريد أن أكون معه تلك الساعات القليلة قبل موعد عودتي إلى المنزل، فضلت أن نتناول طعامنا في أي مطعم في المعادى، بعيدًا عن أي مكان يمكن لأحد معارفي أن يراني فيه.

ذهبنا إلى أحد المطاعم التي كنت أراها كل يوم في أثناء ذهابي للعمل ولم أتوقع دخولها يومًا، لأنني كنت أشعر برهبة من دخول تلك الأماكن وحدي، كنت فيما مضى أرهب ذلك خشية ألا يكون معي مالا يكفي ما أطلبه، لكني بعد امتلاك الأموال لم تذهب عني تلك الرهبة! ويبدو أنها تحولت إلى عادة، حتى أنني في بعض الأحيان كنت لا أدخل مكانـــا جديدًا إذا ما طلبت مني مريم مقابلتها فيه، إلا إذا دخلته قبلي أو دخلت معي، وأحيانا أتعمد التأخر عن موعدي حتى تصل مريم وتدخل المكان قبلي، حتى تذهب رهبة هذا المكان وبعدها أدخله بصورة عادية.

ربما لذلك، رغم عملي في الشركة الذي جاوز العام والنصف، لم أفكر يومًا في دخول أيًا من مطاعم وكافيهات المعادي، كنت دائمًا أنظر إليها على أنها شيء كبير، كبير جدًا، لا يمكنني دخوله، رغم أن بها مطاعم وكافيهات دخلتها قبل ذلك في مناطق أخرى غير المعادي مثل

"ستارباكس" أو"فرايدايز"، لكن وجودهما في المعادي يشعرني بالغربة والرهبة أيضًا، لذلك لم أفكر في دخول أي مكان في تلك المنطقة التي تكّون لدي انطباع تجاهها بأنها حي جامد لا شعور فيه، وأنها حي غير حميمي يرتبط في ذهني بمكان عملي فقط.

حين جاء النادل بقائمة الطعام، اكتشفت أن القائمة مكتوبة باللغة الإنجليزية، وأن بها وجبات كثيرة لا أعرفها. تظاهرت بتصفحها، رغم أنني قررت في النهاية أن أطلب ما أعرفه "شاورمة الفراخ" طعامي التقليدي في معظم الأوقات، وطعامي المنقذ لي في تلك اللحظة بالتحديد، بينما طلب زياد شيئًا لم أسمع به من قبل ولم أفهمه.

حين أخذ منا النادل الطلبات، قطع زياد الصمت بيننا بسؤال مباشر، لم أكن أتوقع أن يبدأ به هكذا من دون مقدمات، وقبل أن يمهد للموضوع بأي شيء آخر: لماذا توقفتِ عن الكتابة؟

– توقفت عن الكتابة منذ أن توقفت عن القراءة، وتوقفت عن الحلم.

– ولماذا توقفتِ عن الحلم؟

– لأن الأحلام كالروايات، يدهشك سحرها حين تكون بداخلها ولكن حين تنتهي منها تصدم بأنك لا تستطيع صناعة سحرًا مثله في الواقع، لا أحد يهتم بالأدب في مصر، وقليلون جدًّا يُعدُّون على الأصابع هم من يصبحون ذوي شأن بقلمهم.

– ولماذا لم تحلمي بأن تصبحي يومًا من هؤلاء الذين يعدون على الأصابع؟

– حلمت بذلك في يوم، لكني نسيت هذا الحلم، أنا الآن مستقرة في حياتي.

سألني إذا كنت سعيدة، هززت رأسي إيجابًا، ظل ينظر إليّ لكني تجنبت النظر إلى عينيه، كنت ألعب بالشوكة والسكين في الطبق الذي

أمامي، لم أستطع الهروب من نظراته، تركت ما بيدي فجأة ونظرت إليه: لا، لست سعيدة، لكني لا أملك خيارًا آخر.

- من الخطأ أن يسير المرء في الطريق المعاكس لأحلامه متحججًا بأنه يسير مدفوعًا من القدر، وأنه لا توجد بدائل أخرى، والحقيقة أن الحياة لا تعدم البدائل.

- لا يمكنني أن أخاطر من أجل شيء لست واثقة به.

- علينا أن نستغنى عن أحلامنا مقابل الثمن الأتفه... أن نمضي في حياة مستقرة، وعلينا أن نضحي بالحياة المستقرة مقابل الثمن الأعظم "الحلم".

- يبدو أنكَ تقرأ كتب تنمية بشرية في الفترة الأخيرة.

- القراءة ليست كل شيء، المهم أن نشعر ما نقرؤه ونعمل به.

وقعت كلماته على جرحي، أخبرته بأن تلك هي مشكلتي، وأنني لم أعد أشعر بأي شيء، لم أعد أمتلك تلك الروح التي كنت أمتلكها في وقت سابق، ولم أعد موهوبة، قلت له إنه يكلمني عن الأحلام بعدما فقدت القدرة على السعي نحوها، وأنني إذا كنت واثقة ولو بنسبة ١% أن موهبتي لم تضع، وأنه يمكنني استعادة روحي، لكنت تركت كل شيء خلفي وسعيت نحو حلمي.

قاطعني بقوله: "أنا واثق من أنكِ موهوبة، وأقسم لك أنني لا أجاملك، وأنني انبهرت بقدرتك على الوصف في هذه السن، أنا أعرف كثيرًا من الكتاب الكبار الذين لا يستطيعون كتابة كلمات مثل كلماتك، لكنك فقط في حاجة إلى تعلم كيفية ضبط أوزان القصيدة".

ابتسمت حينها لأن كلامه أرجعني إلى ثلاثة أعوام مضت حين قال لي كاتب كبير هذا الكلام، ونصحني حينها بأن أتجه إلى كتابة القصص والروايات لأنها ستتيح لي الحرية في كتابة ما أشاء دون قيود، فرحت أيضًا لأنني شعرت في تلك اللحظة بالتحديد أنني قوية لأنني أمتلك شيئًا

خاصًا بي، لكني عدت إلى الشعور بخيبة الأمل بعد أن تذكرت أنني أضعت ذلك الشيء، بعد أن أضعت روحي في عمل لا أحبه.

سألته "هل تحب عملك؟"

- بل أعشقه

عرفت منه أن والده كان مترجمًا أدبيًا أيضًا، وأنه هو الذي حببه في القراءة وعلمه أن المترجم ليس مجرد شخص يضع كلامًا مقابل كلام آخر، لكن عليه أن يشعر بكل كلمة قصدها الكاتب حتى لا تضيع الترجمة مجهود وروح من كتب، ومن وقتها آخذ عهدًا على نفسه بأن يكون ناقلاً لأرواح الأدباء والشعراء، قبل أن يكون ناقلاً لكلماتهم، وأنه يريد أن يكمل سيرة والده لأنه كان يتمنى ذلك قبل أن يموت.

صدمت حين قال ذلك، لأنه كان يتكلم عن والده وكأنه حي، لكني شعرت أنه يتكلم هكذا حتى يشعر بوجوده خصوصًا بعد أن أخبرني بمدى تعلقه بوالده.

"كنت أحب والدي جدًا، حتى أنه بعد أن مات صرت أتكلم بطريقته" حين قال ذلك عرفت لماذا كان يتكلم بوقار رجل أربعيني، رغم أنه لم يتعدى الثلاثين بعد.

بعد أن انتهينا من الطعام سألني زياد عن المكان الذي أحب الذهاب إليه، نظرت إلى ساعتي فوجدتها الثامنة، أخبرته أن عليّ الرحيل، عرض عليّ أن يوصلني إلى البيت، لكني رفضت، فعرض عليّ أن يوصلني إلى محطة المترو، وافقت رغبة مني في أن أكون معه ولو لوقت قليل يمثل المسافة من الكورنيش إلى المترو بالسيارة.

حين ركبت معه تلك المرة، حرضني هدوء الشوارع من حولنا على سؤاله:

"هل أخذت فكرة سيئة عني ولو للحظة مما أكتبه؟" سألته بعدما حيرني اختلافه، ولم أكن أعرف أهو اختلاف صادق، أم مجرد تصنع.

- كيف أكّون عنكِ انطباعا سيئًا لأنكِ تكتبين كلامًا تشعرين به.

- حتى وإن كان كثيرون يرون أن هذا الكلام منافيًا لأخلاق المجتمع؟

- هؤلاء لديهم ازدواجية، لأننا جميعًا نشعر بتلك المشاعر التي تكتبين عنها، فما معنى أن يشعر أحد بذلك وفي الوقت ذاته يرفض التعبير عنه كأنه جريمة...! إنه الجبن، خلق الأدب لهؤلاء الذين يشعرون ويدركون أنهم في حياتهم الواقعية ليسوا معصومين من الوقوع في نفس أخطاء الشخصيات الورقية، ولم يخلق للذين يتصيدون الأخطاء لغيرهم في الروايات ويحاسبونهم عليها بعدما عجزوا عن إدانة أنفسهم على نفس الأخطاء.

سعدت لإجابته، تلك كانت المرة الأولى التي يمنحني فيها أحد مثل تلك الإجابة، فالجميع كانوا يردون على سؤالي هذا بإجابة واحدة... أنهم متحررون ولا يفكرون في الأمر كذلك، جميعهم كان يتكلم عن نفسه، عن الموضوع بشكل شخصي، وكأنه يدافع عن نفسه وينفي عنها تهمة الرجعية حتى يبرر لي أي تصرف يقوم به بعد ذلك من باب التحرر. زياد كان أول شخص يتكلم عن الأمر بشكل عام، لم يدافع عن نفسه، هذا أكد لي أنه صادق، لأنه لم يكن في حاجة للدفاع عن نفسه في أمر لا يشعر أنه فيه.

لكن إجابته وضعتني إزاء نفسي، هل أنا حقـًا أفهم هذا المعنى للأدب، أم أنني كنت أكتب فقط رغبة مني في كسر التابوهات من أجل تحقيق إنجازًا، وإشباع رغبة في أن أشعر بحريتي على الأوراق، لكني في الحقيقة غير ذلك؟ خشيت من الإجابة على هذا السؤال، خشيت من مواجهة نفسي، وخشيت أن أخبره من أنني كنت سأنشر روايتي باسم مستعار لأنني لا أستطيع مواجهة الآخرين، لأنني أكتب عن الحرية دائمًا ولا أستطيع أن أطالب بها، لأنني أكون شجاعة جدًا على الأوراق،

وأجبن ما يكون في الواقع، فكرت فيما يمكن أن يكون عليه من انطباع إذا ما علم كل هذا.

فاجأني بقوله وهو ينظر إليّ وكأنه يستدرجني للاعتراف: المهم أن تكوني أنتِ مؤمنة بما تكتبين.

شعرت أنه يعرف ما كنت أفكر فيه، هززت رأسي إيجابًا وأنا أقول "بالطبع"، وهربت من الموضوع بسؤاله عن حياته وإن كان يعيش مع عائلته في المعادي ،أخبرني أن بيتهم الأصلي كان في الزمالك، وأن هذا البيت هو البيت الذي تزوج فيه.

قلت ذلك وأنا مصدومة: "هل أنت متزوج؟"

- لا، ليس الآن، انفصلت عن زوجتي منذ عامين، وأعيش وحدي الآن.

شعرت بالصدمة مرة أخرى، كان يمكنني تصديق أن رجلاً مثله متزوج، لكن لم يكن بإمكاني تصديق أنه انفصل عن زوجته، أي امرأة تلك التي تتزوج من رجل في وسامته وثقافته وترضى الانفصال عنه؟ أردت أن أداري ارتباكي وصدمتي خلف أي سؤال، سألته عن سبب عدم إقامته مع والدته.

أخبرني أنه بعد أن توفي والده، لم تستطع والدته أن تبقي في القاهرة، فعادت إلى الإسكندرية لتعيش مع أهلها هناك، لكنه لم يستطع أن يغادر القاهرة التي عاش فيها طوال عمره، فبقي هنا، وأنه يذهب لزيارتها كل أسبوع.

كنا قد وصلنا إلى محطة المترو، ودعته وهممت بالنزول، لكنه أوقفني بقوله "أراكِ يوم الجمعة في الثامنة صباحًا"، نظرت إليه مندهشة، كنت أرغب في مقابلته مرة ثانية، لكني لم أتوقع أن يأتي اللقاء الثاني بتلك الطريقة، اقتحمني بصورة غريبة، أحببت طريقته الواثقة التي لم

تجعل لي فرصة للاعتراض، كنت مندهشة فقط من هذا اللقاء الصباحي، سألته: الثامنة صباحًا! لماذا؟

- لأعيد إليكِ روحكِ، دعيني أفعل ذلك بطريقتي.

- ألا يصلح الأمر إذا تقابلنا في وقت متأخر قليلاً؟

هز رأسه سلبًا وهو يبتسم، فابتسمت وشعرت أنني مع رجل مختلف لم أقابل مثله من قبل، كثيرة هي الأيام التي كنت أستيقظ فيها مبكرًا جدًا لأستمتع فيها بصفاء الذهن وبلقاء روحي، كثيرًا ما رغبت في أن أنزل إلى الشارع وأسير فيه في ذلك الوقت مع إحدى صديقاتي، لكنهن جميعًا كن يخبرنني أنني مجنونة لأنزل في هذا الموعد، لم يكن أحد يوافق على اقتراحي هذا قط، ولم أكن أتشجع لأفعل ذلك وحدي إلا إذا كنت ذاهبة إلى العمل وصحوت مبكرًا قبل الموعد، فأتعمد النزول في مكان بعيد قليلا عن العمل لأتمشى وحدي في الصباح، كم تمنيت أن يشاركني أحد هذا الأمر الذي يجعلني أتذكر أيام المدرسة والجامعة، أشعر وقتها أنني بحاجة إلى من يشاركني الذكريات ولا أجد معي سوى أغاني الإذاعة الصباحية.

وافقت على اقتراحه بدون أي اعتراض، وبدون أن أسأله حتى عن المكان الذي سنتقابل فيه، شعرت أنني أريد أن أستسلم لهذا الشعور، أن أترك نفسي لشخص لم يحدث لي أن قابلت مثله من قبل، أردت أن أستعيد روحي، وشعرت أن هذا الأمر سيحدث معه، قررت أن أترك نفسي لهذا الشعور بالاستسلام، الاستسلام للمصادفات القدرية التي تأتينا لتعيد لنا تلك الأشياء التي أضعناها،علي الأقل فهذا أفضل من الاستسلام لحياتنا العادية .

***

- *هذا لم يكن كلامك بالأمس، ما الذي تغير من الأمس إلى اليوم؟*

- لا أعرف، لكني تأكدت اليوم حين تكلمت معه وجها لوجه أنه صادق.

- *ولكنكِ خشيتِ صدقه بالأمس، فكيف تعاملت مع صدقه اليوم بشكل طبيعي؟*

- لا أعلم.

- *هل أحببتِه؟*

- لا، على الإطلاق، كيف أحب رجلاً لم أقابله سوى ساعات؟

- *حدوث الحب ليس له علاقة بمدة زمنية معينة، كما أنكِ صُدمت حين عرفت بأمر طلاقه، وقلت لنفسك كيف تنفصل امرأة عن رجل بتلك الوسامة والثقافة، صدمتِ لأنكِ لو كنتِ مكانها لما فكرتِ أن تنفصلي عنه.*

- ما هذا الكلام، أنا فقط صدمت لأنه رجل مختلف، وأي امرأة تتمناه، لكن أنا... فهذا الأمر مستحيل، مستحيل حتى أن أتخيل حدوثه.

- *لماذا؟*

- لكل شيء، يكفي أنه من الطبقة "A" وأنني لا أجد طبقة أدخل فيها نفسي، لا أريد التفكير في هذا الأمر، لأنه يفسد سعادتي، أنا أريد فقط الاستمتاع بفكرة المصادفة، أريد أن أستمتع بتلك الرسالة السماوية، وأترك نفسي لها، أريد أن أفتح هذا الكتاب الذي منحه لي زياد قبل أن أتركه. "هل تعرفين جوتة؟" حين سألني هذا السؤال شعرت بالحرج لأنني كنت أعرف أنه شاعر ألماني لكني لم أكن قرأت له من قبل، وخجلت حين سألني إن كنت قرأت له وأجبته بالنفي.

حينها فتح الباب الخلفي لسيارته، وأخرج رواية "آلام الفتى فرتر" ومنحها لي قائلاً: ليست تلك أفضل أعماله، لكن هي التي معي الآن".

أخذتها وبدأت أتصفحها، فطلب مني أن أغلقها: لا تقرئيها حتى أقول لكِ، أيمكنكِ أن تعديني بذلك، سألته عن السبب، فأخبرني بأني سأعرفَ حينها.

أحسست بتشويق لم أشعر به منذ فترة طويلة، الآن أشعر أنني أريد أن أفتحها، خصوصًا أنني في تلك اللحظات التي تصفحتها فيها، رأيت خطوطا بالقلم الرصاص أسفل بعض الجمل في بعض الصفحات، لكني لم أستطع قراءة أية جملة منها بعد أن طلب مني هذا الأمر، أريد الآن أن أعرف ما هي تلك الجمل التي وضع خطًا أسفلها، لأنها من المؤكد تشبهه ... لكنني وعدته.

سأنام الآن، لأنني أريد أن يمر الغد لأقابله بعد غد، أشعر أنني أرى الأيام بشكل مختلف، أشعر أنني أنتظر شيئًا، وهذا يعطي أهمية لأيامي، هذا الشعور وحده يكفيني لأسير خلف المصادفة...

****

الفصل السابع

استيقظت اليوم الجمعة على صوت المنبه الذي كنت ضبطته بالأمس على السابعة صباحًا، كنت فاقدة الرغبة في مقابلة زياد، أول أمس كنت أشعر أنني سعيدة لأنني قابلت رجلاً مثله، أيقظ بداخلي أحاسيس ظننت موتها، ومنحني أملاً في عودة روحي إليّ، لكن بالأمس حين عدت للعمل ودخلت في زحمته من جديد عدت لحياتي الواقعية مرة أخرى، انتظرت اتصالاً منه يعيدني فيه صوته إلى عالم الأحلام، لكنني انتظرت طوال اليوم بلا جدوى.

في نهاية الأمس كنت منهكة جدًّا، حزينة لشعوري أن زياد لم يهتم بأمري طوال اليوم، فكرت أنه وجد شيئًا آخر يهتم به، فكرت أن ما حدث بيننا لم يحدث، وأنني كنت ساذجة لأنني سرت خلف كلمات رجل كان لديه وقت فراغ أراد استهلاكه، وأنه لم يجد حينها غيري ليبدد وقته معها.

فكرت قبل أن أنام بالأمس في هذا الموعد الذي بيننا اليوم، قلت إنه لن يأتي، وأنه سيكتفي برسالة اعتذار يرسلها لي صباح اليوم قبل الموعد بعد أن أكون تهيأت لمقابلته، ومع ذلك ضبطت هاتفي قبل موعدنا بساعة، فعلت ذلك تلقائيًا.

حين استيقظت في الصباح لم أجد مشاعري مختلفة عما كانت عليه بالأمس، شعرت برغبة في أن أظل كما أنا الآن، ولا أغير شيئًا في حياتي، لم أجد من جانبه أية رسالة تدل على أن بيننا موعدًا، بدون تفكير فتحت رسالة جديدة وبدأت أكتب فيها اعتذاري، قبل أن أنهيها جاءتني رسالة منه.

فتحتها وأنا أخشى أن تكون رسالة اعتذار من جانبه، لأنني كنت أود أن أعتذر أنا، لا أن يعتذر هو، أن أرفض أنا الموعد، لا أن يرفضني.

"صباحك سكر" حين قرأت كلماته وقارنتها بين كلمات الاعتذار التي كنت سأرسلها إليه حين أسأت الظن به، تذكرت جملة كانت تقولها لي مريم دائمًا بعد كل شعور بالشك ينتابها تجاه إلهامي "إن النساء يسئن الظن في الرجال أكثر مما يحبونهم، والرجال يخدعون النساء أكثر مما يعشقونهن، لذلك لا تكتمل قصص الحب في معظم الأوقات".

اتصل زياد بعدها، أجبت بدون أن أفكر فيما سيحدث إن استيقظ أحد وسمعني أهاتف رجلاً في هذا الوقت المبكر وأتفق معه على موعد، خصوصًا أنني أخبرت والدتي قبلها بيوم أنه من المحتمل أن يكون لدي عمل في الصباح وأنني أنتظر من إحدى زميلاتي مكالمة تؤكد الأمر.

جاءني صوته هادئًا: ظننت أنكِ نسيتِ موعدنا، ولا تزالين نائمة.

- ظننت بك الأمر نفسه.

- لماذا؟

- لأنك لم تتصل بي طوال يوم أمس.

تمنيت أن يمنحني سببًا، لكنه تجاهل كلامي وأخبرني بأنه سينتظرني بعد ساعة من الآن في أقرب محطة مترو بالنسبة إليّ.

شعرت بالضيق لأنه لم يُعر جملتي اهتمامًا، أحسست أنني تسرعت حين أبديت له أنني مهتمة باتصاله، وأنني فضحت نفسي أمامه وأظهرت له أنني كنت أنتظره.

كانت المحطة الأقرب هي الدقي، لكنني فضلت لقاءه عند الأوبرا، حتى أكون بمأمن من أن يراني أحد ممن يعرفني.

في نفس اللحظة التي وصلت فيها، أرسل إلى رسالة يخبرني فيها بأنه أمام الأوبرا، خرجت من الجهة التي كان ينتظرني فيها، حين دخلت

السيارة عاد إلي شعوري الذي أحسسته من قبل أن أفارقه في المرة السابقة، الشعور بالرغبة في أن أكون معه.

لم أرد قول أي شيء، سألني عن الأغنية التي أود سماعها،أجبته "قديش كان في ناس"، كانت الأغنية المفضلة لي في الصباح، حين يختفي جميع من يشاركوني الذكريات في فراشهم، ويتركوني وحدي أواجه رائحة الذكريات.

بعد أن انتهت الأغنية، سألني: هل مارستِ التأمل من قبل؟

ظننت أنه يقصد بالتأمل اليوجا، أخبرته أنني مارست اليوجا.

قال لي أن التأمل شيء واليوجا شيء آخر، وأن اليوجا تعتمد على التمارين والحركات الرياضية أكثر من الاسترخاء، بينما التأمل يعتمد كليًّا على الاسترخاء، وأن هذا الأمر يساعد كثيرًا على الصفاء الذهني والنقاء الروحي، ويجب ممارسته كل يوم لتوقيت يتعلق بعدد سنوات العمر، فهو في الثلاثين لذلك يحتاج إلى نصف ساعة يوميًّا، وأنا في الثانية والعشرين أحتاج إلى اثنتين وعشرين دقيقة، أخبرني بأنه لم يكن يواظب على الأمر في البداية، لكنه الآن لا يستطيع استقبال يومه بدونه، سألني إذا كنت أريد تجربته، هززت رأسي بحماس.

أطفأ مُسجل الموسيقى والتكييف، وفتح نوافذ السيارة وطلب مني الاسترخاء.

كان الهواء الذي يأتيني قاسٍ جدًّا لكني حاولت أن أحتمله، حاولت جاهدة ألا أركز في أصوات السيارات حولي، جاهدت لأستعيد تلك الروح المفقودة منى، لكن رغمًا عني كانت تمر أمام عيني المغمضتين تفاصيل حياتي اليومية! خلافات مع والدتي. كم سيصل راتبي هذا الشهر؟ الرغبة في شراء ثياب جديدة، حاجتي إلى كارت شحن، الشعور بالجوع وتخيل الطعام الذي أحبه.

قطع زياد الصمت طالبًا مني أن أفتح عينيّ، بعد أن فتحتها سألني عن شعوري.

لم أعرف بماذا أجيبه، فمن المفترض أن يمنحني هذا كما أخبرني صفاء الذهن، لكني كنت مشوشة بكثير من الأمور، لم يكن بإمكاني الكذب أو التظاهر بأن الأمر أحدث بي اختلافًا، شعرت بأن عودة روحي لي أمر مستحيل.

أجبته وأنا محبطة: لا شيء، لم يحدث بي أي شيء على الإطلاق، أخبرتك أنني سأرهقك بلا جدوى، لن تعود روحي إليّ، أعرف ذلك....

قاطعني بحركة من يده... اهدئي، هذا أمر طبيعي جدًّا، تعمدت أن تفعلي هذا هنا وحولك أصوات السيارات، فهذا يشبه إلى حد كبير حياتك، تحاولين وسط صخب العمل أن تستعيدي روحك ولا تستطيعين، ثم تيأسي وتتوقفي عن المحاولة لأنك تظنين أن روحك ضاعت وأنكِ فقدت قدرتك على الكتابة، رغم أن كل ما تحتاجينه فقط هو بعض الهدوء.

أغلق حينها زجاج النافذة مرة أخرى، وأعاد تشغيل الأغاني من جديد، ذهبت بعيدًا جدًّا مع أغنية "أعطني الناي وغني"، كنت هناك في أرض زراعية آكل عنبًا حين استيقظت على صوت زياد وهو يقول لي "صباح الخير"، نظرت حولي فوجدتنا في الحسين، تنهدت قائلة: أحب هذا المكان جدًّا، رغم أنني لا آتيه كثيرًا.

- أنا أيضًا أحبه، رغم أنني قليلاً ما آتي إليه.

نزلنا من السيارة، تمشينا في شوارع الحسين، كانت معظم المحلات مغلقة، سألته عن سبب اختياره لهذا المكان، أجابني: "لأن به روحًا".

سعدت لإجابته لأنها كانت حقيقية، فبمجرد دخول الحسين أشعر وكأني عدت إلى الماضي، هذا الشعور يعيد إليّ شيئًا بعيدًا.. يعيد إليّ روحي.

وصلنا إلى شارع المعز، قطع تذكرتين لبيت السحيمي الذي لم أكن دخلته من قبل، لم أكن أعرف حتى ماذا يوجد بداخله.

صعدنا سلمًا ضيقًا، لم يكن هناك أحد غيرنا في الدور الأول، كان البيت حميميًّا لدرجة أني شعرت بحنين شديد للماضي، شعرت أنني جئته وكنت أعيش فيه من قبل. اتجهنا أنا وزياد لنجلس أسفل المشربية فوق المخدات التي افترشت الأرض، نظرنا نحن الاثنين إلى السماء من فتحات المشربية.

كنت أفكر وقتها في ذكريات الجامعة، الاستيقاظ المبكر، مقابلة صديقاتي في الصباح قبل موعد المحاضرة في حمام الكلية، كلامنا في أثناء المحاضرة وطرد المحاضر لنا، رائحة السندوتشات المنبعثة من كافيتريات الجامعة التي كنا نجلس حولها بين المحاضرات، ونظل جالسين متحججين بانتظار موعد المحاضرة، وحين يأتي الموعد نتلكأ حتى يغلق باب المدرج، فنتظاهر بالضيق رغم سعادتنا من أننا سنقضي اليوم بدون محاضرات.

رغبت في تلك اللحظة رؤية صديقاتي، حتى تشاركنني تلك الذكريات التي خجلت من ذكرها أمام زياد حتى لا يقلل من شأنها، كانت لدي مشكلة بعد الجامعة في أنني لا أستطيع أن أتعرف على أصدقاء جدد، أشعر بصعوبة الأمر لأنه يحتاج مني إلى صنع ذكريات جديدة معهم، وقدرة غائبة أغلب الوقت على تفهم الذكريات القديمة لكل منا، واستيعابها لفهم كيف وصلت شخصياتنا إلى تلك المرحلة التي عرفنا بعضنا فيها. كنت أتساءل أيضًا كيف يمكنني أن أتزوج يومًا ما من رجل لم يشاركني عمري السابق، كيف سأروي له كل تلك الأحداث التي

مرت بي والتي لم يشاركني فيها، ولن يشعر بالشوق لها، ولن يجد أهمية من تكرارها مرات عديدة كما نفعل أنا وصديقاتي.

قطع زياد الصمت بيننا: أتعرفين فيما أفكر الآن؟

نظرت إليه مستفسرة...

- أفكر في أيام الجامعة، حين كنت في كلية الآداب لغة فرنسية، أفكر في المحاضرات التي كنت أستيقظ مبكرًا مضطرًا من أجل حضورها، وفي أيام الامتحانات، وفي رائحة الطعام المنبعثة من كافيتريات الجامعة، استيقاظي مبكرًا اليوم جعلني أشعر بحنين لتلك الأيام.

شعرت بخوف وقتها لأنه قال لي ذلك، تنهدت ونظرت إليه في دهشة: هذا ما كنت أفكر فيه؟

ابتسم قائلاً: كانت الإشارة صادقة إذن.

- أية إشارة؟

نظر زياد إلى السماء مرة أخرى، وصمت، لكني لم أتجاهل الأمر تلك المرة، كنت أشعر أن هناك شيئًا يجمعني بهذا الرجل، لكني لا أعرف ما يكون: أرجوك أخبرني ماذا تقصد بالإشارة، أنا لا أصدق أن ما بيننا مجرد مصادفة، هناك شيء بيننا لا أفهمه، كلامك يخيفني لأنه يشبه الكلام الذي يدور بداخلي ولا أقوله لأحد، لكني لا أستطيع تصديق أنك جئت لتقابلني من أجل قصيدة سمعتها وأعجبتك.

- تلك نصف الحقيقة...

- وما هو النصف الآخر، هل تعلمت قراءة الأفكار؟ قلت ذلك بجدية أضحكت زياد.

- لا، ليس الأمر كذلك،أنا فقط أشعر بكِ لأني أشعر بنفسي.

صمتّ طالبة مزيدًا من الإيضاح فأخذ يفسر الأمر، أخبرني أنه منذ أسبوع أخذ إجازة من عمله لأنه شعر برغبة في التوقف، شيء بداخله

كان يدعوه للتوقف والجلوس مع نفسه، وأنه مر بتلك الحالة كثيرًا وكان يفعل الشيء نفسه، يأخذ إجازة من العمل، يتوقف عن كل شيء اعتيادي يقوم به، يمارس حياته بشكل مختلف، يغير مواعيد نومه واستيقاظه، يتوقف عن مقابلة أناسًا بعينهم، يمنح نفسه فرصة للتعرف على حياة جديدة، وفي كل مرة كان يفعل فيها ذلك، كانت تحدث له أشياء لم يتوقع حدوثها، غيرت فيه الكثير من الأمور.

"هناك فاصل يأتينا بين وقت وآخر في حياتنا، ليغير فينا تلك الأشياء التي كنا عليها ويضيف إلى ذاتنا أشياء جديدة لم نتوقع أن نصبح عليها، هل تفهميني؟"

توقف عن الكلام فجأة ونظر إلى عينيّ، لم أكن أفهمه فقط، بل كنت أحسه. هززت رأسي وعيناي في عينيه، استطرد حينها في كلامه، أخبرني أنه كان يشعر بالضيق في هذا اليوم الذي كلمته فيه، لأنه كان ينتظر شيئًا لا يعرف ماذا يكون، كان هاتفه في أحد الأدراج ولم يهتم به طوال اليوم لأنه كان في انتظار هذا الشيء ولم يتوقع مجيئه عبر الهاتف.

فرحت حينها لأن كلامه أكد لي أني أنا هذا الشيء، لكني لم أظهر ذلك.

أخبرني أنه تعود في أوقات حزنه أن يقرأ كتبًا بعينها، من بين تلك الكتب كان كتاب النبي لجبران، وأن هذا الكتاب بالتحديد قرأه مئات المرات، لأن كلماته كانت قادرة على تغيير مزاجه في كل مرة يقرؤه فيها وكأنه يفعل للمرة الأولى، توقف عند تلك الجملة "أطفالكم ليسوا لكم، فلقد ولدتهم شوق الحياة إلى ذاتها، بكم يخرجون إلى الحياة، ولكن ليس منكم، وإن عاشوا في كنفكم فما هم بملككم، قد تمنحوهم حبكم، ولكن دون أفكاركم".

توقف عندها لأنه شعر بالضيق، ولم يحتمل وحدته التي اختارها بنفسه، فقام ليتحدث مع أي من أصدقائه، حاول أن يبحث عن هاتفه الذي نسي مكانه، كان يبحث عنه وهو يفكر في الأشخاص الذين يمكنهم أن يكونوا إلى جواره في تلك الحالة.

لكن في هذه اللحظة رن هاتفه، فدله الصوت على مكانه في درج المكتب، وجده رقمًا غريبًا، ورغم أنه في العادة لا يجيب الأرقام الغريبة، لكنه كان في حاجة إلى التحدث مع أي شخص، ابتسم وهو يخبرني أنه حين أجابني ندم، بعد أن وجد فتاة تسأله وكأنها تقضي واجبًا، وأن صوتي كان حزينًا وحادًّا، وأنه كان يجيب على أسئلتي بسرعة حتى ينهي المكالمة.

ضحكت على كلامه حينها لأن وصفه لي كان صحيحًا، توقف زياد عن الحكي وضحك هو الآخر: أنا آسف، أنا أنقل لكِ شعوري بصدق.

- لا تعتذر، كنت كما وصفتني حقًّا، لم تخطئ في شيء.

قلت ذلك، ورجوته أن يكمل، كنت أرغب في معرفة باقي القصة التي شعرت أنني أعرفها قبل أن يحكيها، أردت معرفة كيف كان زياد يفكر حينها، بينما كنت أفكر فيه بصورة مختلفة.

أخبرني أنه حين سمع صوت هاتفي، لم يصدق أن هناك شخصًا يضع جزءًا من أغنية المحبة نغمة لهاتفه، وخصوصًا ذلك الجزء بالتحديد لأنه الجزء الذي توقف عِنده في القراءة، لم يصدق أنها مصادفة عابرة، لذلك سألني إن كنتُ أعرف جبران، وحين أجبته بأني أحبه، وبأني أكتب الشعر والقصة، تساءل عن سبب وجودي في مكان كهذا، شعر أن هذا هو سبب الحزن في صوتي، وتأكد من شعوره حين تكلم معي أكثر، ووجدني مستسلمة لحياتي، قال لي إنه كلما كان يتكلم معي عن الأحلام والطموح، كان يشعر أنني أحاول الهروب، لكني في

لحظة معينة لم أستطع الهروب واستسلمت، كأنني كنتُ أنتظر سماع هذا الكلام.

"كانت تلك هي الإشارة الثانية بعد الأغنية، أنتِ أيضًا كنت في حاجة إلى هذا الفاصل في حياتك، لكنكِ لم تبحثي عنه وكأنكِ فقدتِ الأمل في العثور عليه".

- اليأس أحيانــًا يجعلنا نتوقف عن المضي فيما نحب، لأنه يوصلنا إلى مرحلة لا نعرف فيها ما الذي نحب وما الذي نكره.

- هذا حقيقي، شعرت بذلك من صوتك، كنتِ تشبهينني في ذلك الوقت، كل منا كان ينتظر هذا التغيير، لكنه لم يكن يعرف من أين سيأتي، في تلك اللحظة قلت لكِ كل ما أردت قوله إلى نفسي، واجهتك بما عجزت عن مواجهة نفسي به، فكل منا بالنسبة إلى نفسه، أبعد ما يكون عن نفسه، كما يقول نيتشه.

فهمت حينها لماذا كان كلامه يشبهني إلى هذا الحد.

"يبدو أن كلاً منا يمثل هذا الفاصل في حياة الآخر" قال بعد فترة صمت.

- لماذا إذن أنهيتَ الحديث فجأة، ولم تفكر حتى في أن تأخذ رقم هاتفي؟

- لم أرد إفساد الأمر، فالإشارات تكشف عن نفسها بدون ترتيب.

حينها فهمت لماذا لم يأخذ رقم هاتفي، ولماذا لم يأتِ أحمد ذلك اليوم، لأدخل أنا بدلاً منه لأعمل كمساعدة في الجروب الخاص به، رغم أنني كنت اتخذت قرارًا بألا أخرج من حجرة "التشبيك" ذلك اليوم حتى لا أراه ولو مصادفة، فهمت أيضًا لماذا لم يتصل بي بالأمس طوال اليوم، ولماذا اكتفى بأن يجعل بيننا موعدًا كدت أفسده أنا بسبب سوء ظني به، لكنه أرسل لي "صباحك سكر" في الوقت المناسب، قبل أن أرسل له باعتذاري عن الموعد. فكرت حينها أنني لو كنت أرسلت له

باعتذاري قبلها، كان ربما فهم الأمر على أنه رسالة أيضًا تخبره بألا يكمل السير في هذا الطريق، وربما لم نتقابل اليوم أو نتقابل ثانية، لأنني لم أسمح لنفسي بتتبع الإشارات.

- أيًّا كان ما تحويه تلك الرسالة، فأنا الآن متأكد أنك جزء منها، ربما لا أفهم بعد ماذا تمثلين لي داخل تلك الرسالة، ربما لَا أفهم أيضًا ماذا أمثل لكِ في هذا الفاصل، لكني أدرك على الأقل أنكِ جزء منها.

حاولت أن أنظر إلى عينيه في تلك اللحظة مباشرة، لكني لم أستطع فعاودت النظر إلى السماء، لأدعو الله أن ينير الطريق لي ولا يترك الأمر مبهمًا فترة طويلة.

***

بعد أن خرجنا وتمشينا في الحسين، شعرت برغبة في الجلوس إلى النيل في أي مكان، طلبت منه فوافق. كنا نتكلم ونحن نسير في الطريق نحو السيارة، لمسني كلب لم ألحظ مروره بجانبي فصرخت لأنني أخاف من الحيوانات، ولأنني فوجئت به. أمسك زياد يدي وجاء بي إلى الناحية الأخرى بعيدًا عن الكلب.

- اهدئي، هذا مجرد كلب.

- أخاف من كل الحيوانات.

كنا قد وصلنا إلى السيارة فركبنا وهو يسألني عن الأشياء الأخرى التي تخيفني، أخبرته أنني أخشى الظلام والأشباح.

- هناك في علم النفس تفسير يقول، بأن كل خوف يحمل رغبة مكبوتة، وأن الإنسان حين يخاف من أشياء من المفترض أنه تعدى مرحلة الخوف منها، فهذا يعني أن الوعي عنده يقاوم الرغبات بإظهار خوفًا من أمور أخرى*** فما هي تلك الرغبات المكبوتة بداخلك؟

أفقت على سؤاله، أخبرته بأنه ليست لدي أية رغبات مكبوتة.

قال لي "حتى ملابسك؟" لم أستوعب جملته، سألته عما يقصده، فاستبدل بسؤالي آخر "ألا يتدخل أحد، والدتك مثلاً في تلك الملابس الطويلة التي ترتديها؟"

- لا أحد يستطيع ذلك، أنا أرتدي ما أحب. قلت بضيق...

- حين نحب شيئا نجمله.

كم رغبت حينها أن أنظر إلى المرآة لأرى كل شيء أكرهه، لكني بدلاً من ذلك كرهت زياد في تلك اللحظة، حقـًا لم أكن أطيق النظر إليه، رغبت في مفارقته، أخبرته أن على الرحيل.

"كنت أحسب أننا سنقضي اليوم معًا!"

نظرت ناحية النافذة وأخبرته أن هناك ضيوفـًا سيأتون إلى منزلنا، ولا يجب أن أتأخر، "انظري في عيني يا نورا" باغتني، لكني لم أنظر، فقال "سأوصلك، لكن عليكِ أن تعلمي شيئًا، أستطيع سماع كل شيء بداخلك، أما أنتِ فصخب الحياة يصم روحك عن سماع ما بي".

أنقذت دمعة من السقوط، وظللت ناظرة في نفس الجهة، فانطلق بسيارته.

****

- *ما أبشع هروبك!*

- أنا لم أهرب، فعلاً لم أكن أطيق البقاء معه.

- *لأنك تخافينه.*

- أنا لا أخافه، ثم لماذا أصلاً أخافه؟

- *لأنه يشبهك، ومن يشبهوننا كالمرآة بالنسبة إلينا، ومن لا يستطيع مواجهة قبحه وضعفه أمام المرآة يكسرها.*

أنا متعبة جدًّا، بداخلي فتاتان، إحداهما جبانة تخشى المغامرة، تخبرني أنني في النهاية ولدت لأسرة تتبع التقاليد أكثر من إيمانها الحقيقي بالدين، وأني ورثت تلك الصفات ويجب أن أتبع عرف المجتمع،

والأخرى تخبرني أن أتبع الإشارات ولا أخذل الرسائل حتى لا أعاقب طوال حياتي بعدم فهمها لأن الرسائل لا تأتي إلا لمن يقدرها ويحترمها، وعدم فهم الإشارات يعني أن المرء لم يعد يستحق استقبالها.

- *وأي الفتاتين تشعرين بميل إليها؟*

- الفتاة الأولى هي الأقرب إليّ، صوتها عال جدًّا بداخلي، لا أستطيع تجاهل كلماتها، أما الثانية فصوتها منخفض جدًّا، وأنا لا أستطيع السير خلف كلمات غير واضحة، سأسير خلف ما أسمعه، ولن أقابل زياد مرة أخرى، حتى كتابه هذا الذي معي سأحتفظ به تحت فراشي ككل الأشياء التي لم تعد تهمني.

- *بل ككل الأشياء التي تخيفك.*

- لا يهم هذا الكلام، فبيني وبين هذا الكتاب حاجز، لأنني لم أقرأه حتى الآن بعد أن طلب مني ألا أفعل اليوم أيضًا، ولم يمنحني سببًا، وأنا لا أريد أي سبب لأنني لا أريد قراءة أي شيء ولن أكتب أيضًا أي شيء آخر في حياتي، يكفي أن لدي سببًا للنوم، وهو عملي في الصباح، أهم شيء في حياتي الآن.

***

الفصل الثامن

بعد أن أنهيت عملي اليوم كمساعدة في أحد الجروبات، استدعاني المدير إلى حجرته، وبخني أمام الجميع لأنني بالأمس لم أقلب شريط المسجل على الوجه الآخر بعد أن انتهى، ما أدى إلى ضياع عشر دقائق بدون تسجيل. حدث هذا كثيرا من قبل، ولم يختلف رد فعل المدير اليوم عن المرات السابقة في شيء، لكني بكيت، بكيت أمامه للمرة الأولى منذ شهور مضت ظننت فيها أنني صرت أقوى ولم يعد شيء يؤثر بي حتى أبكي أمام أي شخص.

شعرت بضعف حينها، تعجب المدير من رد فعلى، طلب مني التوقف عن البكاء، لكني لم أستطع، تركته ودخلت إلى الحمام، جلست فترة طويلة أبكى، لم أرد مغادرته حتى لا تراني صديقاتي اللاتي كن يدخلن ويحدثنني من وراء الباب وهن يطلبن مني الخروج، كنت أضعف من أن أواجه أحدًا بضعفي، انتظرت نصف ساعة حتى رحل الجميع، حينها خرجت من الحمام ولملمت أغراضي وغادرت الشركة.

فضلت النزول على السلالم حتى لا أقابل أحدًا في المصعد، لأني لم أستطع محو آثار البكاء من وجهي، نزلت وأنا أشعر باكتئاب شديد، كنت في حاجة إلى التحدث مع أحد قريب منى، يمكنه فهم ما يبكيني دون أن يضحك ويسخر مني ويخبرني أني أضع الأمور في حجم أكبر من حجمها، أنا بالفعل كنت أعرف أن رد فعل المدير كان طبيعيًّا جدًا لأن هذا عمل لا يجب إهماله، لكني في الوقت ذاته كنت أشعر بإهانة وضعف، كان ذلك شعورًا قاسيًا جدًّا.

ازداد شعوري هذا حين خرجت من باب الشركة وسرت في الظلام أفكر فيمن يمكنه أن يخفف من شعوري، فمريم لم تكن تنتهي من عملها قبل العاشرة ، مرت صديقاتي كشريط بداخلي، لكني كنت أعرف رد كل

واحدة منهن إن سألتها مقابلتي في هذا التوقيت: "لم أنتهِ من عملي بعد"، "أنا في الخارج مع أصدقائي، لماذا لا تؤجلينها إلى الغد؟"، "أنا في البيت الآن، لو كنتِ اتصلتِ قبل قليل كنت جئت إليكِ"، "الوقت تأخر الآن، لا يمكنني النزولَ في هذا التوقيت".

كنت أعرف كل الأعذار التي لا أود سماعها في ذلك الوقت الذي تكون فيه حاجتي لمقابلة أي شخص أقوى من أي عذر، هذا بالنسبة إليّ بالطبع، ولكن بالنسبة للآخرين فإن الموضوع يمكن تأجيله طالما لا يتعلق بالموت أو بدخول أحد إلى المستشفى.

حين فكرت في كل ذلك بكيت مرة أخرى لشعوري بالوحدة، فالجميع يختفون من حولنا في اللحظة التي نشعر فيها بالوحدة، ويظهرون في اللحظة التي نكون فيها في أمس الحاجة إلى الجلوس مع أنفسنا بعيدًا عن الناس.

الغريب أنني لم أحاول التفكير في زياد، لم أكن أرغب في مزيد من الحزن حين أتذكر أنه توقف عن الاتصال بي منذ الأمس بعد أن توقفت أنا عن الرد على اتصالاته منذ المرة الوحيدة التي خرجنا فيها معًا.

مضى أسبوع على خروجنا معًا، كان يتصل بي عشرات المرات كل يوم، وأنا أتجاهل اتصاله، كنت أعرف أنني لا أمثل له أي شيء على الإطلاق حتى يتمسك بي رغم تجاهلي له، لكني رغم ذلك تجاهلته حتى يئس مني وتوقف عن الاتصال بي، حينها أدركت أنني أضعته، وأغلقت الباب أمام الإشارات، الغريب أنني ارتحت لهذا الشعور حينها، ظننت أنني بإغلاق هذا الباب صرت قوية، وصار بإمكاني التحكم في انفعالاتي وصد أية محاولات لإبعادي عن عملي وإخراجي عن حياتي الطبيعية، لكني اليوم ومع أول فرصة كشفت عن الوجه الحقيقي لي الذي حاولت إخفاءه بإظهار قوة مصطنعة، كشفت عن ضعفي وبكيت أمام

الجميع، حينها عرفت أني لم أكن أبكِ بسبب ردة فعل المدير، ولكن لأني أدركت فجأة أنني أضعت شيئًا، وتداخلت الأفكار بعقلي...

كنت أقف في الجانب المظلم من الكوبري الصغير المواجه لمبنى الشركة، أفوت سيارة بعد سيارة، كنت أنتظر تلك اللحظة التي أفرغ فيها كل الدموع بداخلي حتى أشير إلى أية سيارة وأركبها بعد أن أكون عدت إلى حالتي الطبيعية.

- لماذا لا تجيبين على اتصالاتي؟

جاءني صوت زياد من خلفي، نظرت إليه حتى بدون أن أزيل دموعي لأني فوجئت به، هو أيضًا فوجئ بدموعي، سألني في دهشة عن سبب بكائي.

زاد شعوري بالضعف حينها، كان هذا هو آخر شخص أرغب في أن يرى ضعفي، أخفيت وجهي عنه، بدأت أمسح دموعي بأصابعي، لكني كنت أبكي أكثر من ذي قبل، وكأن زياد يعلم بالمهانة التي تعرضت لها في عملي.

جاءني من الجانب الآخر حتى صار في مواجهتي، أعطاني منديلاً، وهو يرجوني أن أتوقف عن البكاء.

مسحت دموعي وتكلمت للمرة الأولى: سأكون بخير،سأوقف سيارة الآن لأركب.

- هل تمزحين! أتظنين أنه يمكنني أن أتركك في تلك الحالة؟

لم أكن أرغب في البقاء معه في حالتي تلك، لكني أيضًا كنت أحتاج إليه بشدة، لذلك استسلمت له حين طلب مني أن أجلس في السيارة حتى أستعيد هدوئي.

توقفت عن البكاء تدريجيًا بعد أن ركبت سيارته وسرنا في شوارع المعادي، لم أكن أشعر بالوحدة وقتها، حتى الشعور بالضعف تلاشى وسط زحمة الشوارع وضجيج السيارات.

امتد الصمت بيننا لأكثر من ربع ساعة، حتى انعطف إلى أحد شوارع المعادي الجانبية، ثم أوقف السيارة في شارعٍ هادئ جدًا إلى درجة مستفزة للأحزان، نظر إليّ وقطع الصمت قائلاً بدون أية مقدمات: أحتاج إليكِ.

حينها شعرت بإهانة لأني فسرت كلامه على أنه شفقة، قلت لنفسي أنه يقول لي ذلك حتى يشعرني أنني قوية لأنه أحس بضعفي بعد أن رأى دموعي، استفزني هذا التفسير جدًا، وشعرت بمزيد من الإهانة .

انفجرت في وجهه: أرجوك توقف عن هذا، أنت لا تحتاج إليّ، أنت تراني ضعيفة وتريد أن تشعرني بالقوة لأنك تشفق عليّ، لكني لست قوية، أنا أعرف ذلك، أعرف أني ضعيفة جدًا، أضعف مما تتصور، لا لست ضعيفة فقط، أنا جبانة أيضا، لا أستطيع اتخاذ قرارًا واحدًا في حياتي، لا أستطيع أن أترك عملي الذي لا أحبه لأنني أخشى أن يخذلني حلمي، ولا أستطيع أن أكتب بشجاعة، أنا فقط أوهم الآخرين وأوهم نفسي بأنني شجاعة لأنني أكتب في الجنس لكني في الحقيقة أفعل هذا فقط حتى أشعر بحرية لا أمتلكها. حتى حين قررت أن أكتب ما أريد، فكرت أن أنشره تحت اسم مستعار لأنني عاجزة عن مواجهة الآخرين بما أفعل.

أنا حتى لا أستطيع أن أكون سعيدة لأن السعادة هي الشيء الوحيد الذي لا يمكننا إظهاره بدون أن نشعر به فعلا، لا يمكنني ادعاء السعادة، كما أدعي التدين، أنت تظن أنني متدينة لأنني أرتدي الحجاب، أنا أدعي ذلك أيضًا أمام الجميع، لكني في الحقيقة لست كذلك، أنا أكره الحجاب، أكره ارتدائي له، وأعلم أن هذا لا يجعلني أنال ثوابه أمام الله، هو فقط يعطيني مظهرًا اجتماعيًا جديرًا بالاحترام، أعرف كل هذا لكني أظهر أنني أرتدي الحجاب تدينـــًا، بعد أن عجزت عن إقناع أهلي بأني لا أريد ارتداءه، والغريب أنني صدقت الكذبة، وصرت أتعامل على أنني أكثر

تدينـــًا من فتيات لا يرتدين الحجاب، لكني بيني وبين نفسي كنت أعرف حقيقتي، أنا لست أكثر من مخادعة، أدَّعي أشياء لا أشعر بها، أدَّعي أنني قوية، وأنا في الحقيقة ضعيفة، أدَّعي أني شجاعة وأنا في الحقيقة جبانة.

- ولكنكِ شجاعة فعلاً.

مرة أخرى يشعرني بالشفقة، قلت لنفسي وأكملت غضبى: لست شجاعة، أنت تقول لي ذلك، لكنك في الحقيقة تنظر إليّ بداخلك على أني فتاة جبانة وسيئة الأخلاق لأنني لا أحب ارتداء الحجاب.

- والدتي لا ترتدي الحجاب- قال بهدوء- وأنا لا أنظر له كمظهر للتدين.

شعرت حينها بالخجل، أدركت أنني تسرعت في إطلاق أحكامًا كثيرة ولم أراع اختلاف تفكير كل منا تبعاً لطبقته الاجتماعية.

قاطع زياد صمتي: ربما لا أكون متدينـــًا بالقدر الكافي، لكني موقن أني أعرف الله، ما من شك أني أخطئ كثيرًا، لكني حين أنظر إلى السماء بصدق أشعر أن كل أخطائي تمّحى، أنا مؤمن بأن الصدق أهم من العبادات يا نورا.

زاد شعوري بالخجل، أحسست وكأنه يقول لي أنني كاذبة وأنني أكتفي من الدين بممارسة العبادات من غير صدق، أردت أن أدافع عن نفسي، لكن لم يكن هناك شيء يقال، فأنا من اعترفت بذلك، ولم يعد هناك مجال للكذب.

- لماذا كل ذلك؟ أنتِ تكبتين بداخلكِ الكثير من الأمور، هذا شيء سيء جدًّا.

- أعرف هذا الكلام، قرأت كثيرًا في علم النفس، وأدرك هذا، لكن ما فائدة المعرفة إذا لم أكن قادرة على استخدامها، ليتني لم اقرأ، ليتني ظللت جاهلة بكل ما عرفته، كان بإمكاني أن أظل فتاة عادية تعيش

حياتها بصورة طبيعية كمعظم صديقاتي اللاتي اكتفين من حياتهن بالعمل والارتباط والزواج والأولاد، لكني لم أعد أستطيع الرضا بتلك الحياة، ولا أستطيع في الوقت ذاته أن أخلق حياة غيرها.

تنهد قبل أن يقول "لن أتخلى عنك"

نظرت إليه في تلك اللحظة، لم أصدق أنه يقول ذلك رغم كل ما صار يعرفه عني.

" ربما لا أعرف حتى الآن ماذا تمثلين لي في هذا الفاصل من حياتي، لكني صرت أعرف على الأقل ماذا أمثل لكِ في هذا الفاصل من حياتك، لن أتركك قبل أن تتخلصي من كل مخاوفكِ وتستعيدين روحك، حينها فقط ستكتشفين كم أنتِ قوية".

شعرت في تلك اللحظة أنني في حمايته، ولم أعد وحدي، لم يعد يهمني كلام المدير، لم يعد يهمني عملي كله. أوصلني إلى محطة مترو، وقبل أن يودعني أخبرني: يمكنكِ اليوم مشاركة فيرتر آلامه.

شعرت بالسعادة، لأنه أخيرًا سمح لي بأن أقرأ هذا الكتاب، كدت أودعه وأرحل، لكني رغبت قبل ذلك بمعرفة السبب في كونه سمح لي تلك المرة بالتحديد بقراءته، سألته...

– لأنكِ اليوم كنتِ أكثر شجاعة مما سبق، لم أجاملكِ كما ظننتِ حين قلت لكِ أنكِ شجاعة، كنت أقصد ذلك فعلا، لأنك للمرة الأولى لم تخجلي من الاعتراف برغباتك المعاكسة لما تظهرينه، امتلكتِ الشجاعة الكافية لقول الحقيقة فصارت روحكِ أقرب إليكِ، وصار بإمكانكِ الشعور بالكلمات التي تقرئينها.

سعدت لكلامه، لم أرغب في قول أي شيء، لوحت له بيدي لتوديعه بابتسامة، فابتسم لي هو الآخر ولوح بيده، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرغب فيها بالنظر إلى الخلف، نظرت إليه قبل أن أدخل المحطة، ووجدته كما توقعت، لم يرحل، ودعته بابتسامة أخيرة ورحلت.

طوال الطريق كنت أفكر في كلامه، وفي تلك الكلمات التي قلتها له، كان محقــًا، كانت تلك هي المرة الأولى التي أعترف فيها أمام أحد غيرك بأنني أرتدي الحجاب عجزًا وليس تدينــًا، كانت تلك هي المرة الأولى التي أعترف فيها بجبني، شعور غريب أن أصل إلى الشجاعة من خلال الاعتراف بالجبن، وأن أصل إلى القوة من خلال الاعتراف بالضعف.

لكن ما لم أفهمه حتى الآن ما الذي أوصل كلامي إلى هذا الحد، أنا كنت متعبة بسبب الإهانة التي تعرضت لها في عملي، لذلك يمكنني أن أتفهم اعترافي له بأنني لست سعيدة في عملي، لكني لا أفهم حتى الآن ما الذي أوصلني للاعتراف بأنني لا أكتب شجاعة مني ولكن لإيهام الناس بأني شجاعة، وما الذي أوصلني للاعتراف أيضًا بأمر الحجاب، ما علاقة هذا بذاك، ألا ترى أني أدخلت كل الأمور في بعض؟

- *لا، كل الأمور متصلة.*

- كيف؟

- *إهانتك في العمل ذكرتك بأنك كنت السبب في هذا الأمر لأنك فكرت أنك لو كنت سرت خلف أحلامك فربما لم تعرضي نفسك لتلك المهانة، وربما حينها كنت أصبحت في مكانة أخرى غير تلك، وهذا ذكرك بأحلامك الأخرى في الأدب الذي كنت تكتبين فيه فقط لتشعري بحريتك لأنك عاجزة عن مواجهة أهلك بما تكتبينه،وهذا ذكرك بعجزك عن اتخاذ قرارًا مصيريًا يخص مستقبلك، وحينها تذكرت تلك الأمور الأخرى التي عجزت عن اتخاذ قرارًا بشأنها وعلى رأسها ارتدائك الحجاب، ربما تبدو الأمور في ظاهرها منفصلة، لكنك في الحقيقة اعترفت بعجزك دفعة واحدة.*

لكني الآن أشعر أني قوية، كان زياد محقــًا حين أخبرني بأن روحي صارت أقرب، فمنذ أن وصلت البيت في الثامنة مساء، انتهيت

من الاستحمام وتناولت الغداء خلال ساعة، وجلست بعدها أقرأ "آلام فيرتر"، وانتهيت منه في ثلاث ساعات فقط، ولم أفوت حرفا من دون الشعور به، كنت في أكثر حالاتي تركيزًا وشعورًا منذ فترة طويلة، فهمت الآن لماذا قال يمكنكِ مشاركة فيرتر آلامه ولم يقل يمكنكِ قراءة "آلام فيرتر"، هو حتمًا كان يقصد أن أشارك جوتة كلماته بإحساسي ولا أكتفي بالقراءة فقط وكأنني أقضي واجبًا.

شعرتِ أن كلماته تشبهني، خصوصًا تلك الكلمات التي وضع زياد تحتها خطًا، وكنت أظن أنني سأعرف زياد من خلالها، لكني اكتشفت أنني أعرف نفسي من خلالها أيضًا، كتلك الجملة:
" الناس تلهيهم الحياة عن الحياة، ولكنهم يستمرون باسم الحياة –في الحياة– بلا مبالاة".

أنا كنت تلك الجملة "خداع النفس يؤدي إلى موتها وفقدانها الحرية" جملة أخرى تشبهني، ولكن الجملة التي لا أستطيع نسيانها والتي وضع زياد تحتها ثلاثة خطوط، وكأنه يريد أن يؤكد لي بخطوطه الثلاثة تلك على صحتها، أو أنه يهديها لي رغم أنني كنت واثقة أنه وضع تلك الخطوط قبل أن يعرفني بسنوات، كما أخبرني أنه قرأ هذا الكتاب منذ سنوات طويلة "إن الجنون في نظري هو أن يقوم الإنسان بعمل لا يحقق طموحه، عمل يفقده معنى إنسانيته ومتعة وجوده، عمل يحول ممارسة الإنسان الطبيعية للحياة وللوجود إلى ممارسة آلية ممقوتة، عمل يجعل من حياة الإنسان مجرد سلسلة طويلة من الحماقات التي لا معنى لها".

تلك الجملة أثرت بي جدًّا، شعرت أن جوتة كتبها من أجلي، ويقصدني أنا بالذات بها، رغم أن معظم الناس إذا قرؤوها سيشعرون بالأمر نفسه، إنها تخصهم وحدهم، لأن معظم الناس يرتكبون الحماقات كل يوم بإقدامهم على الالتحاق بعمل لا يحبونه بحجة أنهم لا يجدون غيره، وأنهم سيعملون فيه بشكل مؤقت حتى يجدوا ما يناسبهم، لكن

الوقت يمر وحماقاتهم تستمر حتى يأتي اليوم الذي تصير فيه حماقتهم سلوكًا طبيعيًا، بينما يتحول مجرد التفكير في أحلامهم الماضية إلى حماقة، لأنهم يتحولون إلى آخرين غيرهم.

أنا أيضًا تحولت في خلال الفترة الماضية إلى أخرى غيري، لكني الآن أشعر بعودة تلك الفتاة الأخرى إليّ، أشعر أنها قريبة جدًّا منى، ولم يعد بإمكاني إغفال كلماتها، صوتها صار عاليًا جدًّا.

– *وماذا عن الفتاة الأخرى؟*

– صوتها أصبح منخفضًا، لا أريد سماعه حتى.

– *وماذا عن زياد؟ كنت تخافينه!*

– نعم، ومازلت أخافه، لكني لم أعد أستطيع الهروب منه كما فعلت سابقـًا، صرت أكثر تصديقـًا لتلك الإشارة التي تجمعنا معًا، وإن كنت لا أعرف حتى الآن ما هو الفصل الذي أمثله أنا في حياته، لكني صرت مؤمنة أن الأيام ستكشف عن الجزء الآخر للرسالة إذا سمحت لها بذلك، لن أتعجل فهمها كما طلب مني زياد، حتى أن غدًّا يوم إجازتي ولم يعرض على مقابلتي، ولم أتضايق من ذلك، لأنه طلب مني أن أقضي يوم الإجازة مع نفسي...

***

الفصل التاسع

كانت تمام السادسة حين أنهيت عملي، لملمت أغراضي بسرعة، تأكدت من أن "آلام الفتي فيرتر" في حقيبتي، حتى أعيده لزياد، كنت على وشك مغادرة الشركة حين أرسل لي زياد رسالة يذكرني فيها أنه ينتظرني بالخارج، لكني لاحظت وجود آثارًا لحبر القلم الجاف بيديّ، فعدت من جديد لأغسل يدي من آثاره.

كانت سيارته واقفة على بعدٍ خطوات من مدخل العمارة، ركبتها على عجل وأنا أتلفت حولي خوفـًا من أن يراني أحد ممن يعملون معي في الشركة.

سألني عن حالي، أجبته بأني على خير حال وأنا أعطيه الكتاب في سعادة، وأشكره عليه، لكنه طلب مني الاحتفاظ به، وسألني إن كان أعجبني.

هززت رأسي في حماسة وأنا أخبره ، كم أن هذا الكتاب لمس كثيرًا من مشاعري التي ظننت أنها تجمدت بداخلي، وبأنني أشعر بأن روحي عادت لي من جديد.

قلت ذلك بفرحة، ظننت أن زياد سيوافق على كلامي، لكنه فاجأني بقوله: الروح التي تشعرين بها الآن هي التي تريدين أن تكوني عليها، وليست تلك التي تمتلكينها بالفعل، أنتِ في حاجة لاستعادة روحك البعيدة، التي ترسب الخوف عليها عامًا بعد عام حتى أخفاها تمامًا وحل محلها.

أصابني كلامه بالإحباط، قلت له: لكني أشعر بروحي الآن، يمكنني أن أبدأ في كتابة الرواية من جديد.

انتظرت منه أي تشجيع يعيد لي الأمل ،لكنه سألني: لماذا تريدين الكتابة؟

أجبته دون تفكير: لأنني أشعر بسعادة حين أكتب، أشعر....

قاطعني: سعادة الحرية الزائفة، الحرية التي لا تمتلكينها في الواقع، هذا ما أقصده، هناك فارق بين أن تكتبي لتشعري بحريتك، وبين أن تكتبي لأنك حرة.

وقعت جملته على الجرح، لم أفكر فيها من قبل، نظرت إليه دهشة، كان قد أوقف السيارة حينها أمام أحد المطاعم، وأشار لي بالنزول، ظللت أفكر في جملته حتى جلسنا، فاجأني بسؤاله "هل فكرتِ يومًا أن تخلعي الحجاب خارج المنزل؟"

صدمني السؤال، نظرت إليه في عتاب وأجبته بحدة: بالطبع لا.

لم يبال بحدتي وسألني في هدوء عن سبب ذلك، أخبرته بنفس الحدة بأنني لا أحب الخداع.

- لكنك تخدعين نفسك وهذا أبشع أنواع الخداع، أليس خداعًا أيضًا أن تنشري الرواية باسم غير اسمك الحقيقي.

شعرت بالحرج، لكنني حاولت الدفاع عن نفسي: أهلي لن يتقبلوا المشاهد "الخارجة" في الرواية.

سألني عما أقصده بالمشاهد الخارجة، فأخبرته على استحياء بأنها المشاهد الجنسية.

- ولكنكِ لم تعرضي عليهم شيئًا لتعرفي رد فعلهم، كيف حكمتِ على هذا الأمر؟

- أنا أعرف هذا، هم يرونني طفلة، فكيف يتقبلون من طفلتهم أن تكتب كلامًا في الجنس؟

- وأنتِ كيف ترين نفسك؟

لم أتوقع هذا السؤال، التفت عنه، وصمت لأني لم أكن أعرف كيف أجيبه، هل أجيبه بأني نصف طفلة ونصف امرأة، أم أجيبه بأنني طفلة فقط، أم بأنني أتصنع الطفولة لأنني لا أعرف كيف أكون امرأة؟

- صدقيني، إن صراعنا الحقيقي ليس مع تلك القيود التي تريد تكبيلنا من الخارج، ولكنها مع القيود التي نكبل بها أنفسنا من الداخل، أنتِ لم تخلعي الحجاب أية مرة كنتِ فيها بمفردك، لا لأنك لا تريدين الكذب على أهلك، ولكن لأنكِ تخشين تلك الفعلة، الأمر صار بالنسبة إليكِ شيئًا اعتياديًا وأنتِ تخشين تغييره بشدة، ربما تستمتعين في خيالك بالتغيير وتتمنين لو تفعلي ذلك، لكن إذا توفرت لديكِ فرصة لتفعلي ذلك، فإنكِ ستتراجعين بشدة.

قلت في ثقة: بل سأفعل .

- إذن اخلعي الحجاب الآن، في هذه اللحظة.

لم أتوقع جملته تلك، شعرت بالخوف الشديد من الإقدام على فعلة كهذه، تراجعتِ عن حماستي التي كنت أتكلم بها وصمت.

- حسنـــًا، الأمر لم يكن كله بسبب أهلك، أنت أيضًا لك دور في هذا.

هززت رأسي بالإيجاب، فأخبرني أنني أفعل الأمر نفسه مع الكتابة، أكتب لأشعر الناس وأشعر نفسي بأنني فتاة متحررة تكتب في الجنس، لكني في الوقت ذاته أخجل مما أكتبه، وأخجل من أن يراه أحد.

حاولت الدفاع عن نفسي، أخبرته بأني لم أكن أخجل فيما مضى، وأنني كنت أعرض ما أكتب على جميع من حولي ، لكنهم كانوا يفسرون الأمر على أني فتاة مباحة لرغباتهم، لأني أكتب مثل هذا الكلام.

أخبرني بأنني السبب في ذلك، وأنني من سمحت بالتفكير بي على ذلك النحو، لأنني كنت أظهر لهم شيئًا غير حقيقي، أظهر أنني فتاة حرة، ومع أول رد فعل حيواني يظهرونه، أتراجع خوفـــًا بدلاً من مواجهتهم،سألني في دهشة "كيف تواجهين الناس بشيء أنت غير مقتنعة به، أنت نفسك تسمين ما تكتبين بالشيء الخارج!"

كان محقـــاً في كل ما قاله عني، أنا فعلاً جبانة، لا أقوى على الكتابة ولا أقوى على المواجهة، في تلك اللحظة، أردت أن أتوقف عن كل شيء، عن التفكير في العودة للكتابة، عن التفكير في التغيير، عن مقابلة زياد. شعرت بإحباط شديد، قاطع تفكيري قائلا: أتعرفين ما مشكلتك في الكتابة؟

هززت رأسي مستفسرة في يأس، أجابني: ليست مشكلتك الكتابة في الجنس، لكن مشكلتك كتابة ما يخيفك، أنتِ تكتبين ما يخدر خوفك، ويشعرك بشجاعة ورقية، توقفي عن تناول هذا المخدر، لا تكتبي عن حبك للجنس لكن اكتبي ما يخيفك من الجنس أولاً.

– أنا أكثر جبنـــا من كتابة مخاوفي.

– بل أنتِ شجاعة، وستفعلينها، ساعديني فقط في مواجهتها بالكتابة عنها حتى تتطهري منها.

– لست حرة بالقدر الكافي لأفعل ذلك.

– الحرية هي أن يختار المرء أسوأ الاختيارات من وجهة نظر الآخرين بكامل رضاه، وإذا تذمر منه في يوم، يتحمل وحده نتيجة اختياره، ومن ثم لا يمكنه الوقوع في نفس الخطأ مرتين، أما أن يختار أحد له شيئًا ويجبره عليه، فإنه يعلمه حرفة التخلي عن مسئولية الاختيار وإلقاء الذنب دائمًا على الآخرين، وأنا أريدك من الآن أن تتخلي عن تلك الحرفة ، أريدك من اليوم أن تتحملي مسئولية قراراتك حتى ولو كانت خاطئة، يومًا ما ستكتشفين على الأقل طريقـــا ترتضين السير فيه بدون خوف وبدون أن تتحججي بأن الآخرين أجبروكِ على السير فيه.

ظللت أفكر في كلامه حتى أنهينا الطعام وخرجنا لنركب السيارة، ظننت أنه سيوصلني مباشرة إلى محطة المترو، لكنه انعطف في شوارع جانبية هادئة، حتى أوقف السيارة في إحداها.

– هل يمكن أن أطلب منكِ شيئا وتفعلينه بصدق؟

هززت رأسي وبدأت أتبع كلماته، أرجعت رأسي للخلف، أغمضت عيني، شعرت بالهواء البارد يدخل عبر النافذة بعد أن فتحها زياد، شعرت بالبرد للحظات، لكني قاومت هذا الشعور، وبدأت أتنفس الهواء البارد برفق بلا مبالاة لبرودته، كنت أشعر بالبرودة فقط في جسدي.

كنت أسمع صوته هادئًا جدًّا، كان يهمس لي "الآن حاولي أن تتغلبي على برودة الهواء على جسدكِ، تخيلي أنكِ جزء من هذا الهواء، أنكِ الآن طفلة صغيرة لا تخشين أيَ شيء، لأنها لا تفهم معنى كلمة خوف، يمكنها أن تخلع ثيابها كلها لترقص تحت المطر، دون أن تخاف البرودة، تتحد مع قطرات الماء على جسدها وكأنهما معًا جزء من الطبيعة".

شممت رائحة المطر في كلماته، ذهبت بخيالي إلى الصحراء، إلى جسد عارٍ لطفلة ترقص تحت الماء، لم أخجل من رؤية جسد تلك الطفلة في خيالي وهو يتحول إلى جسدي، لم أخجل من أن أكون عارية في تلك اللحظة، كنت مستمتعة بقطرات المطر على جسدي وهي ترتطم بسرعة بوجهي ثم تنزل بهذه السرعة على جسدي لتتباطأ قليلاً مع انحدار نهديّ، حتى تصل إلى حلماتي المنتصبة لتسقط حينها إلى المصب.

استمتعت بتلك الفكرة حينها، تذكرت للحظة والدتي حين كانت تشير إلى حلماتي المنتصبة في بعض الأوقات أسفل ثيابي رغمًا عني وتسألني في لوم: ألا ترتدين شيئًا تحت ثيابك؟ وحين أخبرها أنني أفعل، تشير إليهما وتطلب مني أن أرتدي شيئًا آخر حتى أخفيهما، كنت في تلك اللحظة أشعر بالخجل من جسدي، أتضايق منه لأنه عرضني لمثل هذا الموقف، كنت أشعر أنه شيء محرم وممنوع حتى الإشارة إليه أو التنبيه بوجوده ولو عبر بروز حلمتي نهديه مصادفة.

طردت تلك الفكرة من ذهني، عدت مرة أخرى إلى خيالي، إلى الصحراء التي تمطر سماؤها، إلى الجسد العاري الذي يرقص تحت

أمطارها، ويبتل من اتحاد الأمطار بنشوته. كدت أنام بعد سريان خدر اللذة في جسدي، لكن صوت زياد ظل يأتيني من بعيد، حتى صار قريبًا ولا يمكن تجاهله.

- هل تشعرين أنكِ طفلة الآن؟

هززت رأسي إيجابًا دون أن أفتح عينيّ، لكنه طلب مني أن أفتح عيني وأنظر إليه، فعلت بدون خوف، نظرت إلى عينيه مباشرة بدون خجل أو ارتباك، شعرت أنني حرة، ولا أخاف من أي شيء، طلب مني أن أقول له بشجاعة قصيدة كنت كتبتها فيما مضى، وكنت أخجل أن أريها للآخرين.

وبدون أن أبعد عيني عن عينيه، قلت بعد لحظات :

"اقتحمني ولا تخف

ادخل إلى عالمي دون أن تقف

فعالمي وطن ممتع

تسكن خريطته العجائب

فمازلت طفلة

تطعم كل يوم عرائسها

أنثى تشتعل في قصائدها التجارب"

كتبت ذلك منذ سنوات لأشبع رغبة في أن أكون طفلة حقيقية وأنثى حقيقية أيضًا، لكني حين قلت ذلك في تلك اللحظة أمام زياد كنت أحس بذلك فعلاً بدون زيف.

توقفت عند ذلك الجزء، لكني لم أبعد عيني عن عينيه، كانت روحه قريبة مني جدًّا، تمكنت من رؤيتها في نظرات عينيه، لكني اضطررت إلى النظر بعيدًا في اللحظة التي قال فيها: أراكِ الآن بشكل مختلف، أنتِ جميلة جدًّا.

لم أصدق أنه قال ذلك، أمسك يدي ورفعها إلى شفتيه وقبل باطنها، شعرت بالخوف يعود إليّ حينها، سحبت يدي ونظرت إليه في عتاب.

- أنا آسف، لم أقصد أي شيء سيء، أقسم لك.

كنت أصدقه لأنني كنت أرى روحه، كنت أعرف أنه لا يستطيع الكذب في تلك اللحظة.

ابتسمت لأؤكد له أنني أصدقه، ابتسم هو الآخر ونزل من السيارة دون أن يقول شيئًا، تتبعته بعيني وهو يشتري شيئًا من أحد المحلات القريبة، حين عاد قدم لي هذا الشيء، كانت شوكولاتة.

- أردت أن أهدي الطفلة بداخلك شيئًا.

أخذتها منه في سعادة، كانت تلك هي المرة الأولى التي يمنحني فيها رجل شيئًا يمس الطفولة الحقيقية بداخلي، الطفولة التي لا أتصنعها حتى أخفي بها أشياء أخرى.

استطرد قائلاً: بداخلك طفلة جميلة فلا تشوهيها.

انتابني حزن وقتها، شعرت أنه ما من أحد يرى بداخلي سوى تلك الطفلة، ألا يمكن لأحدهم أن يشعر بأنوثتي، قررت ألا أصمت عن تلك الجملة التي تتردد على مسامعي كثيرًا، قررت أن أبوح باستيائي منها وعدم فرحتي بها، حتى ولو كنت على عكس ذلك.

- وهل يجب علي أن أظل طفلة طوال العمر، أليس هناك مجال لأكون امرأة؟

لا أعرف كيف قلت ذلك لزياد، ولكن رغم جرأتي في تلك اللحظة إلا أنني لم أقل لأكون أنثى، قلت امرأة لأن المرأة لفظ عادي يقوله الآخرون عن أي فتاة تحولت إلى زوجة وأم، ورغم أني كنت أقصد أنثى إلا أنني خشيت من تلك الكلمة التي طالما شعرت طوال حياتي أن بها شيئًا معيبًا، أو أنها لا تخصني وليس من حقي أن أخص بها نفسي، وكأن إخفاءها سيمنع أي فتاة من أن تكون عليها.

كنت غاضبة من كون زياد يراني على هذا النحو فقط، لم أتوقع إجابته.

- أنتِ أنثى في طفولتكَ، وطفلة في أنوثتك، لم يحدث من قبل أن قابلت امرأةَ تحمل هذا القدر من الأنوثة الطفولية، والطفولة الأنثوية، لم أقصد أبدًا أن تكوني طفلة طوال الوقت،فأنا أعشق أنوثتك، وأعشق أيضًا المشاعر المختلطة بين طفولتك وأنوثتك، ولكني في الوقت ذاته لا أريدك أن تشوهي تلك المشاعر، إذا كنتِ تشعرين في وقت ما بأنك طفلة فاشعري بذلك بملء إحساسك، وإذا شعرتِ في وقت آخر بأنك تريدين أن تكوني أنثى فافعلي ذلك بدون تخفٍ في ثياب طفولية لا تكون لكِ حينها، أريدك أن تكوني بكامل أحاسيسك في كل لحظة ولا تعيشي بمشاعر نصفية في كل الأوقات.

ظللت أمامه مخدرة، أسأل نفسي هل هو حقـًا قال "أنني أنثى"؟ لم أصدق نفسي... هذا الرجل الذي مرّ حتمًا بخبرات حياتية لم تخل يومًا بالتأكيد من معرفة نساء جميلات من طبقته، يهتممن بأنفسهن كثيرًا وحتمًا أجمل منى، يقول لي أنني أنثى.

عادت لي سعادتي من جديد، شعرت برغبة حقيقية في أن أنفض غبار الخوف عن روحي، لأعود إنسانة كاملة مرة أخرى، إنسانة تعيش بمشاعر مكتملة في كل لحظة، ولا تعيش بمشاعر نصفية كل الأوقات.

لم أدر ماذا أقول له، كلماته أعادت إليّ الحياة من جديد، لم تكن هناك كلمات تعبر عما بداخلي نحوه، تلك كانت المرة الأولى التي يتعامل فيها رجل مع طفولتي بهذا القدر من الحنان، ومع أنوثتي بهذا القدر من الحذر، اكتفي أن يهدي الأنثى بداخلي قبلة من شفتيه ليدها، وحين أحس بالخوف يتسرب إليها، تعامل مرة أخرى مع الطفلة بداخلها حتى يعيد الشجاعة الطفولية مرة أخرى إلى روحها.

***

نظرت في ساعة الهاتف، كانت التاسعة، طلبت منه أن يوصلني إلى أقرب محطة مترو، لكنه رفض، وأخبرني أنه سيوصلني إلى المنزل، قلت له إن المسافة طويلة جدًا، لكنه ألح قائلاً "أريد أن أبقى معكِ أطول فترة ممكنة"

فرحت لأنه قال ذلك، كنا نتبادل نظرات صامتة، وددت لو سألته عن هذا الشيء الذي حدث قبل لحظات، لكني لم أستطع. بادر بقوله: أريد أن أخبرك شيئًا.

- ماذا؟

- ما رأيته في عينيكِ منذ لحظات كان سحرًا لا يقاوم.

سعدت وأبعدت عينيَ عنه، استطرد قائلاً: صدقيني، ليست مجرد مجاملة، ما رأيته في عينيكِ كانت روحك الحقيقية التي قصدتها، رأيتها لأنكِ أذنتِ لها بالظهور. كنتِ قوية جدًّا في تلك اللحظة، ألم تشعري بالقوة حينها؟

هززت رأسي إيجابًا في حماس.

- هذا ما أريد أن أراه في عينيكِ دائمًا، روحكِ الحقيقية هي التي ستدلك دائمًا على الإبداع، أنتِ موهوبة ولكن كانت تنقصكِ تلك الروح التي لا تخشى شيئًا، لأن الكتابة عملية جراحية لا يمكن إتمامها بأيد مرتعشة.

سألته في سعادة إن كان بإمكاني العودة للكتابة مرة أخرى، صمت قليلاً ثم قال: إذا كنتِ تستطيعين أن تحافظي عليها بداخلك.

فكرت بداخلي كيف يمكنني الاحتفاظ بها خلال عملي، كنت أعرف أنني لا أستطيع ذلك، وأن عليّ تركه. شعرت بخوف من اتخاذ قرارًا كهذا.

- بماذا كنت تفكرين؟

- تذكرت العمل فجأة.

- تفكرين إن كان عليكِ تركه أم لا؟

هززت رأسي إيجاباً ولم أقل شيئاً، واكتفى هو بابتسامة.

حين رأيت الضوء ينبعث من أعمدة جامعة الدول العربية، أدركت أنني على وشك مفارقة زياد، وددت لو قلت له الكثير، لكني صمت، اكتفيت بتلك المتعة التي شعرت بها من النظرات الصامتة بيننا.

أنزلني قبل مسرح البالون بقليل، لأني كنت أخشى أن يراني أحد يعرفني. بمجرد أن تركته، أخرجت هاتفي لأرسل له رسالة أخبره فيها أنني أشعر بالسعادة، لأني كنت عاجزة عن قول هذا في حضوره، لكن قبل أن أرسلها جاءتني منه تلك الرسالة "أشعر اليوم بسعادة حقيقية".

ابتسمت ونظرت إلى السماء، لأشكرها على ما تمنحه لي من إشارات.

***

- *هل قلتِ أنكِ أنثى؟*

- نعم.

- *غريب هذا الأمر.*

- وما الغريب في ذلك؟

- *أنتِ كنتِ تخافين تلك الكلمة، لأنها كانت تذكرك بالعجز عن أن تعيشيها.*

- دعك من هذا، أعرف ما تود قوله، وأنا أخبرك أنني أنثى، ولا أخاف تلك الكلمة، ولا أخجل من قولها، أنا أنثى وأحس بذلك بكل حواسي، لأني فعلاً كذلك.

- *ولكنها المرة الأولى التي تقولين فيها هذا، ترى ما السبب؟*

- لا أخجل من ذكر هذا أيضًا، إنه زياد، هو الذي أخرج مني تلك الطاقة التي سمحت لي بأن أكون نفسي، أتعرف ماذا أيضًا، كنت أكذب عليك فيما مضى حين قلت لك أنني أضعت تلك اللوحة التي رسمتها لي

مريم، حين كنت عارية، لم أضعها، أنا الذي أخفيتها بعيدًا لأني كنت أخجل من النظر إليها، كنت أحس أنها فتاة أخرى غيري، وأنه ليس من حقي أن أنظر إلى جسدها، لكني الآن لا أخجل من الاعتراف بأني أحب هذا الجسد الطفولي الذي تنبعث الأنوثة من كل جزء فيه، أنا ذلك الجسد، أنا تلك الأنثى، أنا هو أنا...

- *كل هذا التغيير لا يحدث إلا في حالة واحدة.*

- ما هي؟

- *الحب.*

- لا أعرف...

- *بل تعرفين، فأنت اهتممت لأول مرة بغسل يديك من الحبر الجاف، اعترفت في مرة سابقة أنك توقفت عن ذلك، ولم تعودي تهتمين بمظهرك، فلماذا فعلت اليوم؟*

- لا أعرف، ودعك من هذا الأمر، دعني أنام وأنا أحتضن تلك اللوحة في هدوء، فلدي عمل في الصباح.

***

الفصل العاشر

اضطررت للذهاب إلى مريم في منزلهما القديم في شبرا، بعد أن أخذت إجازة من العمل حتى تتفرغ للرسم ولم تعد تغادر البيت كثيرًا، لأنها كانت ترغب في تحقيق حلمها، أن تقيم أول معرض لها قبل أن تتم السادسة والعشرين. كانت بالشقة رائحة نفاذة للألوان، تشبه الرائحة التي تنبعث من المعارض الفنية، كانت الفوضى تلامس كل مكان، فرش، ولوحات مصفوفة على الحائط، وأخرى على حافة كراسي طاولة الطعام.

لم يكن لدي وقت كاف لأشاهد اللوحات وأبدي رأيي فيما رسمته، أردت معرفة رأيها في "البلوفر" الذي اشتريته بمفردي لأنني لم أجد من يشتريه معي، أبدت إعجابها به، لكنها اندهشت من شرائي له وحدي وسألتني بنظرات لها مغزى عما إذا كنت سأقابل زياد في الغد. أبعدت عيني عن عينيها وهززت رأسي إيجابًا

"لهذا إذن لم تستطيعي الانتظار!"

نفيت بشدة، وبررت الأمر برغبتي في شراء ملابس شتوية جديدة، لأن الجو صار أكثر برودة.

– وهل ستتغير درجة الحرارة كثيرًا في الغد عن بعد غد، لو كنتِ صادقة لكنتِ انتظرتِ أن ننزل معًا، منذ متى وأنتِ تشترين ثيابكِ بمفردك؟ ألا تذكري هذا اليوم الذي انتظرتِني فيه ثلاث ساعات حتى أنهي العمل، لأنكِ رغبتِ في الذهاب لشراء حمالات صدر؟

ضحكت حينها وشعرت بالخجل، كنت قد نسيت هذا الموقف تمامًا، ضحكت هي الأخرى، وقالت: أنت تحبين زياد، لا تفرضي قيودًا على مشاعرك.

– أأنتِ من تقولين ذلك، بعد كل الذي حدث لكِ؟

شعرت بالندم بعد أن قلت ذلك، قلته بدون تفكير في أن جملة كتلك يمكن أن تجرح مريم أو أن تذكرها بجروحها، لكنها أجابتني في هدوء: "الحب كالأديان ليست المشكلة فيه، إنما في أتباعه".

تشجعت لأخبرها بمخاوفي، قلت لها إننا من طبقات اجتماعية مختلفة، فهو من الطبقة "A"، وأنا ليست لي طبقة، وهو يسكن منطقة راقية وهادئة، حتى أنني أخجل من مجرد تفكيري في مجيئه ورؤيته لمنطقتي بكل عشوائيتها وضوضائها، كما أنه حتمًا يسكن في منزل به مصعد، ولا يضطر إلى صعود خمسة أدوار لمنزلنا الذي لا يوجد به مصعد، وحتمًا منزله فخم مقارنة بمنزلنا البسيط جدًّا، بصالته الضيقة وأثاثه الذي لم يتغير منذ سنوات طويلة.

قاطعتني مريم "يبدو أن عملك أثر عليك أكثر من اللازم، صرت تقسمين الناس، وترينهم بصورة طبقية" ثم أشارت إلى عقلي واستطردت "مشكلتك هنا، ألم تفكري يومًا أن زياد يقابل كل يوم مئات النساء الجميلات من طبقته وربما أعلي من طبقته؟"

هززت رأسي إيجابًا وأخبرتها أن هذا الأمر يضايقني جدًّا إذا ما فكرت فيه، فأخبرتني أن هذا الأمر نقطة قوة وليس نقطة ضعف، لأنه يعني أن زياد اختارني من بين المئات رغم الفوارق بيننا، لأن هناك شيئًا يجمعنا "الفن يا نورا يقرب بين الطبقات وليست الأموال، احرصي على ما يقرب بينكما، ولا تضيعيه منك".

فكرت في كلامها قليلاً ثم سألتها، إن كانت تعي كلامها هذا، فلماذا ترفض الدخول في تجربة حب جديدة؟ كنت أقصد بقولي هذا شريف، رسام الكاريكاتير الذي يعمل في الجريدة التي كنت أعمل فيها قبل أن أغادرها لأعمل في شركة بحوث التسويق. منذ سنوات وشريف يحاول الاقتراب من مريم، لكنها كانت تصده لأنها كانت في تلك الفترة تحب إلهامي، وبعد ما حدث لها مع إلهامي، لم يكن بإمكانها أن تدخل في

علاقة حب مع شاب يكبرها بسنتين فقط، رغبت في أن تجد رجلاً يشبه إلهامي في العمر وفي الخبرة حتى يعوضها عن كل المشاعر التي افتقدتها بعد فراقها لإلهامي، لذلك انجذبت لمحسن، ولكن بعد ما حدث لها مع محسن، ظلت فترة طويلة في حالة حزن قبل أن تسمح لشريف بأن يدخل إلى حياتها.

قبلت للمرة الأولى دعوة منه، وبدأت من وقتها تخرج معه كلما شعرت برغبة في ذلك، حتى صار وجوده في حياتها شيئًا اعتياديًا، كنت أسألها دومًا لماذا ترفضين الدخول معه في قصة حب، فتجيبني بأنه مجرد صديق، ولكن اليوم حين سألتها هذا السؤال، أجابتني بطريقة مختلفة: أحب شريف، لكن لا يمكنني الارتباط به، قبل أن أستعيد عذريتي.

فوجئت لأني كنت أعلم أن مريم لم تفقد عذريتها مع إلهامي، ولم يحدث هذا مع محسن أيضًا، شهقت من المفاجأة، سألتها في دهشة عن توقيت وكيفية فقدانها عذريتها. قالت لي بأن العذرية بالنسبة إليها ليست غشاء، ولكنها روحها .

– كيف ستفعلين ذلك؟

– سأرسم، وأشعر بكل لوحة وكأنها جزء مني، كلما فعلت ذلك بصدق، استعدت جزءًا من براءتي، وأنتظر اليوم الذي أستعيد فيه براءتي كاملة، حينها ربما تأتيني الشجاعة لاعترف لشريف بما أخفيه عنه من ماضٍ.

– هل أنتِ مجنونة، تريدين إخبار رجلاً بما حدث مع غيره وتتوقعين بعدها أنَ يتزوجك، لا يوجد رجل يتحمل مسئولية أخطائه مع امرأة، فكيف يتحمل أخطاء غيره من الرجال .

– لا يهم إن كان هذا سيحدث أم لا، ما يهمني أكثر أن أكون صادقة مع نفسي لأني إذا خدعت شريف، فهذا يعني أني أبني حياتي

القادمة على الكذب، لن أطيق العيش هكذا، وإذا لم يقبل سأعرف أنه لم يكن هو، أنا واثقة من أنني سأعرف الطريق حين أستعيد روحي.

- لا تراهني على حبه لك، وانتظاره كل هذه السنوات من أجلك.

- لن أراهن على شيء سوى ما ستشير به روحي.. حين تعود.

***

رغم أني كنت معارضة لتفكيرها، إلا أنني كنت معجبة بشجاعتها، كنت أحسدها لأنها استطاعت أن تأخذ قرارها وتترك العمل، لتسير خلف حلمها، كنت أحسدها على إرادتها.

- *بل إنك تحسدينها لأنها حسمت مشاعرها تجاه شريف، بينما أنتِ لا تزالين خائفة من حسم مشاعرك تجاه زياد والاعتراف بحبه.*

- أخبرتك من قبل أنه لا يوجد بيني وبين زياد سوى شيء جميل لا أعرفه، وليس معنى ذلك أن يكون حبًّا.

- *وما الذي يمنع أن يكون كذلك.*

- الذي يمنع هذا أني أريد النوم لأني لدي عمل في الصباح، ولا يمكنني التفكير في أوهام......

الفصل الحادي عشر

لم يكن باب حجرتي مغلقا تمامًا، كان مواربًا، يسمح للنور المنبعث من صالة شقتنا، بالتسرب إلى بعض حجرتي، مكنني هذا النور من رؤية وجه هدى، التي تعمل معي في الشركة.

كانت تنام بجواري في الفراش وتطلب مني أن أخلع ثيابي حتى تتمكن من ممارسة الجنس معي، كنت أشعر بالرغبة في فعل ذلك، لكنني لم أبين رغبتي لها، كنت أتحجج لها بأن أي أحد من أهلي يمكنه الدخول إلى حجرتي. ظلت تكرر طلبها، حتى استسلمت لها وتركتها تقبلني،ولكن عيني ظلت معلقة ناحية الباب، وبين كل ثانية وأخرى أبعد عنها وأطلب منها التوقف خوفـًا من أن يدخل أحد علينا، ولكنها كانت تقترب مرة أخرى وتكمل الأمر.....

منذ أن استيقظت صباحًا، لا أستطيع نسيان هذا الحلم الذي حلمته بالأمس، استيقظت مرتبكة جدًّا، ورغم أني ذهبت إلى عملي وحاولت أن أتناسى أمر الحلم، إلا أنني بمجرد أن رأيت هدى، تذكرت تفاصيله مرة أخرى، وشعرت بالخجل منها لأنني أحسست وكأنها تعرف ما أفكر فيه.

- *كل حلم في الأساس يهدف إلى تحقيق رغبة* ***

- لهذا أشعر بالارتباك، لم يسبق لي أن حلمت من قبل أنني أنام مع فتاة، فهل بداخلي رغبة لا شعورية لممارسة الجنس مع الفتيات؟

- *لا يكون الأمر مباشرًا بهذا الشكل، فالرغبات اللاشعورية تتخفى عبر الأحلام لتأتينا بصورة مختلفة عن حقيقتها*****، *فإذا حلمت حلمًا كهذا فلا يمكن تفسيره على أنه رغبة منك في ممارسة الجنس مع فتاة، خصوصًا لو كانت تلك الفتاة لا تمثل في حياتك أية أهمية سوى أنها زميلة لك في العمل.*

- هذا يستفزني أكثر، فعلاقتي بهدى سطحية جدًّا، لا أعلم ما الذي جاء بها إلى حلم كهذا، ولماذا حلمت بهذا من الأساس!

*- الحلم له صلة دائما بأحداث اليوم السابق على الحلم *** اروي لي بالتفصيل أحداث اليوم السابق.*

لم يحدث شيئًا يذكر في اليوم السابق، كنت سعيدة في بدايته لأنني ارتديت هذا "البلوفر" الجديد الذي اشتريته، لأن ارتدائي ثوبًا جديدًا يغير مزاجي إلى الأفضل، وكنت سعيدة أيضًا لأنني سأقابل زياد، لكنه فاجأني برسالة يخبرني فيها بأنه لن يستطيع مقابلتي لأنه سيسافر إلى الإسكندرية ليلاقي والدته في هذا اليوم، لذا هو مشغول في ترتيب بعض الأمور.

ضايقني هذا الأمر، وزاد ضيقي أكثر حين شعرت بآلام "الدورة" تأتيني في خلال عملي مع أحد "الجروبات"، وما إن انتهيت حتى دخلت الحمام فتأكدت من مجيئها.

لم يكن معي فوطة صحية في تلك اللحظة، دخلت حجرة التشييك لأسأل الفتيات عن فوطة، لم تكن هناك أي واحدة منهن باستثناء هدى، لم تكن رأتني منذ الصباح لأني منذ جئت في التاسعة دخلت للعمل في الجروب، ولم أخرج منه سوى في تلك اللحظة.

بمجرد أن رأتني، أثنت على ثوبي الجديد، وعلقت "هذا جميل جدًّا عليكِ"

شكرتها، ثم سألتها إن كان لديها فوطة صحية، هزت رأسها إيجابا، وفتحت حقيبتها ومنحتني واحدة.

بعد أن انتهيت من الأمر، خرجت لأستعد للجروب الجديد، كان لدي بالأمس ثلاثة جروبات، ينتهي آخرهم في السابعة، لم أكن أبالي في البداية بمجيء الدورة في يوم مليء بالعمل، لكني بمجرد أن دخلت إلى حجرة البحث التسويقي وجلست إلى المكتب لأبدأ عملي، حتى شعرت ببرودة التكييف الذي لم نكن نوقفه حتى في الشتاء.

كاد الألم يمزق بطني وظهري، كنت أتحامل على نفسي لأكتب، محاولة تناسيه، لكني لم أستطع، بمجرد أن أنهيت الجروب الثاني، صنعت كوبًا من النسكافيه لتهدئ سخونته من الألم، جاءني حينها هاتف من زياد، كان يعتذر لي عن إلغائه الموعد بيننا، أخبرته بأن الأمر عادي وأنه يمكننا أن نتقابل بعد أن يعود من السفر، كنت أختصر معه الكلام، رغبة مني في إنهاء المكالمة بسرعة حتى أدخل من هواء الـــ "بلكونة" الشديد التي دخلتها لأجيبه فيها بعيدًا عن الأصوات العالية في الداخل.

ظن زياد من صوتي وطريقة اختصاري للحديث بيننا، أنني تضايقت منه بسبب تأجيله الموعد بيننا، نفيت له الأمر وحاولت إفهامه أنني لست متضايقة منه، لكنه أصر على معرفة ما بي وهو يردد أن هناك شيئًا مختلفـــًا بصوتي. اضطررت لإخباره أني متعبة، كدت أخبره بآلام ظهري وبطني، لكني تراجعت، لسهولة تخمين الأمر، اكتفيت بإخباره بأني أشعر بآلام في جسدي كله.

طلب مني أن أترك العمل وأعود إلى المنزل، لكني لم أكن أستطيع ذلك، أخبرته بأنه ليس هناك أحد ليحل محلي، أنهيت معه المكالمة بعد كثير من الجدال بيننا، وذهبت بعدها لأجهز نفسي للجروب الآخر.

زادت آلامي وقتها، كنت منهكة جدًّا بسبب التركيز في الكتابة، ومنهكة أكثر بسبب برودة التكييف، بعد أن أنهيت العمل كان الجميع قد غادر الشركة، وكان عليّ أن أعيد الأشياء إلى أمكنتها، الورق الذي كتبته والمسجل إلى مكتب المدير، أغلق كل شيء مع العاملين، الأنوار والأجهزة، لم أفتح هاتفي إلا وأنا على باب الشركة، فوجئت برسالة من زياد يخبرني فيها بأنه ينتظرني خارج الشركة منذ نصف ساعة.

سعدت لأني لم أتوقع مجيئه، خصوصًا أنه أخبرني أنه مشغول بالتحضير لسفره، وبالفعل حين نزلت من الشركة وجدته ينتظرني على بعد خطوات من العمارة، كان الجو باردًا جدًّا،

خف الألم الذي كنت أشعر به بمجرد دخولي سيارته، كان الجو دافئا فيها، قلت له إني سعيدة جدًّا لأنني سأراه قبل سفره، لكنه فاجأني بأنه أجل سفره للغد، حتى يوصلني. اندهشت لأنه فعل ذلك من أجلي، كنت سعيدة جدًّا لهذا، لكني شعرت بالحرج من أن أكون سببًا في تأجيل سفره لوالدته، طلبت منه ألا يؤجل سفره، وأخبرته أنه يكفي أن يوصلني لأقرب محطة مترو، ويسافر بعدها، فوجئت به يضع أصابعه على شفتي ويقول لى: سأوصلك رغمًا عنك.

استسلمت له في تلك اللحظة، كان حانيًا جدًّا، وسعدت حين علق على ثيابي الجديدة بأنها جميلة جدًّا.

ابتسمت له حينها واسترخيت في المقعد، طلب مني أن أضغط على زر أسفل مقعدي، حتى يتحرك المقعد إلى الخلف،لأشعر براحة أكثر.

- أترغبين في النوم قليلاً؟

هززت رأسي بالإيجاب.

هناك زر في جانب مقعدك، اضغطي عليه ليميل المقعد إلى الخلف، حتى تشعري بمزيد من الراحة

لامست جانب المقعد لكني لم أجد شيئًا، أوقف السيارة ونزل منها ، فتح بابي ومال عليّ وأنزل المقعد، كانت رائحة عطره قريبة جدًّا منى، عاد إلى مقعده بعدها وانطلق بالسيارة، لكني لم أشعر بالطريق المتبقي، كنت قد نمت...

حين عدت إلى المنزل، أخذت حمامًا دافئًا، وذهبت للنوم. لم أكن أستطيع تناول أي طعام، ذهبت لأنام مباشرة، ولأني معتادة في أول أيام حيضي، أن أتدفأ تحت الغطاء، حتى ولو كنت في أكثر الأيام حرًّا، أفعل ذلك، أدخل تحت الغطاء، وأنام على ظهري متحاملة رغم آلامي، مع تخيل نفسي في حضن رجل أحبه، أترك نفسي حينها أتخيل هذا الرجل

كما أشاء من بين الممثلين، أتخيل أنه يأخذني بين أحضانه ويهدهدني حتى أنام .

***

– هذا كل ما حدث، أترى، ليس هناك شيء له علاقة بما حلمته بالأمس.

– هل قلتِ إن عطر زياد كان قريبًا منكِ جدًّا؟

– نعم

– وإذا كان عطره قريبًا، فهذا يعني أن حضنه كان قريبًا ، وحتمًا رغبتِ في أن يحتضنك حينها.

– بالطبع لا، ثم إننا نتكلم الآن عن حلم، ما علاقة زياد بالحلم الذي جاءت فيه هدى؟

– هدى جاءت في الحلم كقناع لرغباتك الأخرى، أنتِ لم ترغبي في هدى، بل رغبتِ في فعل ذلك مع زياد، لكن شعورك فرض رقابة على عقلك الباطن في أثناء نومك، فلم يتمكن اللاشعور لديكِ من الإفصاح عن رغبته في فعل ذلك مع زياد إلا عبر هدى.

– ولماذا هدى بالتحديد وليست أية فتاة أخرى؟

– لأنها الوحيدة التي كانت موجودة في المكتب حين احتجتِ إلى فوطة صحية، وهي التي منحتك تلك الفوطة، وكما أنقذتك من هذا الموقف في الواقع، استعنتِ بها حتى تنقذك في الحلم، خصوصًا أن هدى علقت على الثياب الخاصة بكِ مثل زياد، فوجدتِ خيطًا يربط بينهما، كما أن وجود هدى معك في حجرة نومك في البيت أسهل كثيرًا من وجود زياد، لأن الأهل لا يهتمون بما تفعله الفتيات بعضهن مع بعض خلف الأبواب المغلقة.

– ولكن الباب في الحلم لم يكن مغلقًا بصورة كلية، كان مواربًا، يدخل الضوء منه.

*- هذا الجزء المفتوح من الباب يشبع لديكِ رغبة أيضًا، فهناك نوع من النساء لا تدرك معنى الحياة إلا إذا شعرت بالخوف، وأحست بأن أحدًا من الناس يتلصص عليها أو يراقبها***أنت تندرجين تحت هذا النوع، وهذا الجزء المفتوح من الباب كان يسمح لكِ بهذا، وأنت عبرتِ عن ذلك في روايتك للحلم بأنك كنت تنظرين إلى البابَ من حين لآخر خوفًا من دخول أحد عليكما، والحقيقة أنك كنت تنظرين لتشعري بلذة الخوف.*

- هذا صعب جدًّا، يثير اشمئزازي كلما تذكرته.

- أخبرتكِ أنكِ لم تكوني تفعلي هذا مع هدى، بل مع زياد.

- لكني لم أشعر برغبة تجاه زياد.

- بل شعرتِ، ألم تفكري فيه قبل النوم ولو قليلاً!

- فكرت ، لكني وجهت تفكيري إلى أحد الممثلين.

- ولكنكِ كنتِ تتمنين لو تخيلتِ هذا معه، وحين وجهتِ تفكيرك إلى أحد الممثلين كبتِ تلك الرغبة في لاشعورك، لذلك خرجت بتلك الطريقة في أثناء الحلم .

- لا، لا يمكنني تصديق ذلك، ولن أفكر فيه أبدًا، سأنام فقط وأتمنى ألا أحلم حلمًا مثله، لأنه حلم غير حقيقي على الإطلاق.

***

الفصل الثاني عشر

كانت تلك هي المرة الأولى التي أدخل فيها "أستوريل"، بل كانت المرة الأولى التي أعرف فيها بوجوده في وسط البلد ، داخل هذا الزقاق الضيق المقابل لمقهى "ريش" الذي كنا نقف بجواره. فبعد أن ذهبت أنا وزياد إلى مقهى زهرة البستان لنقابل "خالد يسرى"، ولم نجده، خمن أن يكون متواجدًا في "أستوريل".

عبرنا الشارع ودخلناه، كان المطعم مزدحمًا بالأجانب والمصريين، الحياة بداخله تشبه تلك الحياة التي لم أكن أشاهدها سوى في الأفلام. بنظرة واحدة إلى الزجاجات الموضوعة أمام الجالسين، أدركت أنه يقدم الخمور.

اتجهنا أنا وزياد إلى طاولة كان يجلس عليها "خالد" مع رجلين وامرأتين، وحين رأى زياد ابتسم له وقام ليحتضنه، مع عبارات الترحيب والعتاب على طول المدة التي لم يتقابلا فيها، حيث أخبرني زياد أنه كان منِ أقرب أصدقاء والده، وكان يرغب في تقديمي إليه ليس باعتباره صديقـــا لوالده ولكن باعتباره روائيًّا يكتب من وحي وسط البلد وناشرًا لأعمال الشباب. كان زياد في الأساس يؤجل تلك المقابلة حتى أنتهي من الرواية، ليقرأها ويساعدني على نشرها، لكنه حين لمح في عيني الخوف من لقائه، أصر على تعجيل لقائي به من قبل حتى أن أبدأ في الكتابة، حتى يكسر حاجز الخوف بداخلي.

قدمني زياد إليه قائلا "اكتشافي!"

قال" خالد" وهو يبتسم: ممثلة جديدة؟

ضحك زياد بينما كنت أقف صامتة حينها لأني كنت أشعر بالخجل، قال: بل منافسة لك.

- إذا كانت منافستي بهذا الجمال، سأعلن انسحابي من المعركة.

ابتسمت حينها وشكرته على هذه المجاملة، التي أشعرتني بثقة في نفسي، وفتحت بيني وبينه مجالاً للحديث.

بعد أن جلسنا، انشغل زياد بالكلام معه، بينما كنت وقتها أتأمل الأشياء من حولي، الرجلان والسيدتان الذين كانوا يجلسون معنا على نفس الطاولة كانوا يتحدثون في السياسة، لكني لم أهتم لكلامهم، كنت أدقق النظر وقتها إلى الزجاجتين الموضوعتين على الطاولة أمامي،عرفت أنها بيرة من كلام إحداهما.

أخذت أتساءل في داخلي عن الفرق بينها وبين الويسكي الذي شربته مع مريم، وهل تحدث تأثيرًا مثله يشعرني بالانتشاء، هل يمكنني تجربتها لأحكم بنفسي على هذا الأمر......؟

قطع زياد تفكيري وهو يلوح بيده أمام عيني، وسألني أين ذهبت بتفكيري، أجبته في ارتباك بأنني معهما في الحديث، بادرني "خالد" بسؤالي: هل تريدين فعلاً أن تكوني روائية؟

شعرت باهتمامه بي حينها، هززت رأسي إيجابًا في سعادة .

"حسنـــًا، يجب أن تهتمي بحلمك ولا تهمليه أبدًا. تلك هي نصيحتي لك".

ابتسمت له ونظرت إلى زياد، لكي يشترك معنا في الحديث، لكنه كان صامتــًا، شعرت أنه يفسح لي المجال لأتقدم وحدي في الحديث، أرادني أن أعتمد على نفسي وأستعيد ثقتي بها، لذلك أدركت سبب بقائه صامتا طوال حديثي مع خالد.

تشجعت وقلت لخالد: لدي الفكرة، ولدي الرغبة في البدء، لكني لا أبدأ ولا أعرف السبب .

- الرغبة وحدها لا تكفي لإنجاز أي شيء، البداية تكون حين تبدئين، لدي نفس المشكلة في كيفية البدء، لكني بمجرد أن أبدأ لا أتوقف، ابدأي، ابدأي ، ابدأي.

نظرت إلى زياد فوجدته مبتسمًا في صمت، وكأنه كان سعيدًا لأن خالد قال هذا لي، تكلمنا بعدها في أحاديث عامة، قبل أن ينظر زياد إلى ساعته وينبهني أنها الثامنة والنصف.

حينها تبادلنا معًا نظرات، فهم من خلالها أن عليّ الرحيل، فاعتذر لخالد وأخبره أن علينا الرحيل، أراد خالد حينها أن يستبقينا لبعض الوقت، لكن زياد شرح له الموقف وهو يشير ناحيتي بأني لا أستطيع التأخر عن المنزل أكثر من ذلك، واتفقا على أن يتقابلا في يوم آخر. ودعناه، وخرجنا مرة أخرى إلى صخب شوارع وسط البلد.

- بماذا كنتِ تفكرين ونحن في الداخل؟ سألني زياد ونحن نعبر شارع طلعت حربٍ. لم أفهم سؤاله، نظرت إليه مستفسرة عن الأمر.

- ألم تشعري برغبة في أن تجربي البيرة؟

هززت رأسي بالنفي وأجبته بلا قاطعة، رغبت في تغيير الحديث وتوجيهه ناحيته فسألته إن كان يشرب الخمر، قال لي أنه كان يشرب فيما مضى ولكنه توقف منذ موت والده بسرطان الرئة، والذي أوصاه بأن يهتم بصحته.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أعرف فيها سبب موت والده، أخبرني أنه لم يدخن سيجارة ولم يشرب كأسًا واحدة منذ ذلك الحين، تذكرت حينها أنني لم أره مرة واحدة يدخن سيجارة.

سرحت في كلامه، حتى انتبهت وهو يسألني إن كنت جربت الخمور من قبل. نظرت إليه في عتاب، وأجبته في استنكار: بالطبع لا.

كنا قد وصلنا إلى مكان سيارته التي ركنها في شارع هدى شعراوي، ركبناها، كانت هناك فترة صمت بيننا كافية لتذكرني، تلك المرة التي تناولت فيها الويسكي مع مريم، بأنني كاذبة.

فكرت للحظات عن السبب الذي جعلني أكذب، أهو الخوف من رد فعل زياد؟ ولكن ماذا سيكون رد فعله؟ لم أكن أعرف، كنت أفكر في أنه

لم يتغير من ناحيتي رغم كل ما اكتشفه بي من ضعف، ولكن شرب الخمور شيء آخر، ولكنني أيضًا لست في حاجة إلى الكذب، ماذا سيحدث إذا أخبرته الصدق، لم تكن سوى مرة واحدة على أية حال، وهو كان يشرب من قبل، سأقول الحقيقة لأنني سئمت الكذب، وسئمت إظهار أشياء غير حقيقية، أخذت القرار بداخلي...

- كذبت عليك، شربت الويسكي من قبل.

قلت بدون أية مقدماتٍ لأقطع الصمت بيننا، لم أتوقع رد فعله، اكتفى بالابتسام ولم يقل شيئًا حينها، كنت أنتظر منه أن يقول أية كلمة، لكنه لم يقل إلا حين أوقف السيارة في أحد شوارع المهندسين الهادئة وقال: أنا سعيد لأنكِ لم تخافي، سعيد لأنكِ لم ترغبي الاستمرار في الكذب.

تنهدت في فرحة من ردة فعله الذي زاد شجاعتي بتسامحه.

- إذا رغبتِ في فعل أي شيء، مهما كان هذا الشيء، لا تخجلي من قوله لي، على الأقل أنا سأعرف كيف أجعل الأمور تحت السيطرة.

صمت قليلاً ثم قال: وأعرف كيف أحافظ عليكِ.

زادت سعادتي لقوله هذا، رغبت لو أرتمي في أحضانه في تلك اللحظة.

- هل تريدين استعادة تلك الطفلة الشجاعة بداخلك، كما حدث من قبل؟

تذكرت للحظات شعوري حين ذهبت بخيالي إلى الصحراء في تلك المرة، هززت رأسي بالإيجاب، مال على حينها بدون أن يقول شيئًا، لف يده اليمنى حولي وحول مقعدي، ضغط على زر المقعد فرجعت إلى الخلف، لكن زياد لم يرجع، مال على بشفتيه، كانت شفتاه قريبتين جدًّا من شفتيّ، لم يفصل بينهما سوى التردد.

تمنيت لو كنت في تلك اللحظة شخصية ورقية داخل إحدى الروايات، ربما كانت الكلمات سمحت حينها لي أن أتخطى تلك المساحة من التردد.

إن الذين يقرؤون الروايات الرومانسية، دائما ما يبحثون عن لحظات الحب، ويركضون بأعينهم خلف الكلمات، لعل لمسة يد، أو قبلة بين البطل والبطلة تأتي، لأنهم في حياتهم العادية لا يملكون ترف الحب، هم يكتفون من الحياة بتجارب يعيشها غيرهم على أوراق. ولما كان فعل الحب بدون ورقة شرعية مستحيلاً في حياتهم الواقعية فإنه يصبح الشيء الوحيد الذي يبحثون عنه في الكلمات للاستمتاع بتخيله بدون شعور بالذنب.

أنا أيضًا لم أرغب في الشعور بالذنب، رغم أني كنت أشعر بحيرة شديدة، فالحيرة هي أن تقف الشهوة على الخط الفاصل بين شفتين، لشدة اقترابهما لا تعرف هل تتراجع لتتباهى الفضيلة بقدرتها على المقاومة رغم كل الإغراءات، أم تتقدم لتمنح النفس الحق في الوقوع في الخطأ .

خرجت من خيالاتي حين أدركت أن شفتينا اقتربتا أكثر من اللازم، أبعدته بيدي وأنا أسأله: متى تنزل الأمطار؟

ابتسم وتراجع إلى مقعده ليفسح للفضيلة مكانـــاً أكبر بيننا، تنهد طويلاً ثم قال: ليست هناك أحلام تافهة وأحلام عظيمة، الأحلام جميعها تتساوى في كونها أحلامًا ، هل تؤمنين بهذا الأمر؟

هززت رأسي إيجابًا.

– حسنـــاً، نحن نفصح عن أحلامنا العظيمة أمام الآخرين،ولكننا نخجل من الإفصاح عن الأحلام الصغيرة التي نرغبها بيننا وبين أنفسنا فقط، رغم أن تلك الأحلام تشكل رغبات لا يمكن إغفالها .

هززت رأسي إيجابًا.

- أريد للطفلة بداخلك أن تعترف بتلك الرغبات الصغيرة التي عجزت عن تحقيقها فتحولت إلى أحلام خفية.

أردت أن أفعل ذلك، أن أكون صادقة لأبعد مدى، تتبعت تعليماته، أغمضت عينيّ، وذهبت إلى تلك الطفلة البعيدة، الصحراء كانت تنادي الجسد الطفولي، والأمطار أرادت أن ترقص فوق تعريجات الأنوثة فيه، كلما كانت الأمطار تتزايد، كلما كانت رغباتي وأحلامي البعيدة تزداد وضوحًا، وكلما صرت أكثر شجاعة في البوح بها بدون خجل.

بدأت في نطق الكلمات وكأنني أرددها وحدي تحت الأمطار في الصحراء:

- أن ألعب بالطيارة الورقية كما كنت أفعل وأنا صغيرة بدون أن يعلق أحدهم "صرتِ عروسة، وكبرتَ على مثل هذا الفعل"، أن أضع طلاء الأظافر مثل باقي الفتيات بدون أن أتجاوز أظافري، فتتحول يدي إلى لوحة ألوان.

كنت واثقة أن زياد يضحك في تلك اللحظة، لكنه لم يصدر أي صوت يوحي بذلك، حتى لا يجرح مشاعري.

- أن أرتدي الجيبة القصيرة التي ترتديها لاعبات التنس، وأمارس لعبتي المفضلة التي انقطعت عن لعبها منذ سنوات طويلة.

قاطعني زياد: هل كنتِ تلعبين التنس؟

هززت رأسي بالإيجاب، وأنا مغمضة العينين، فسألني عن سبب توقفي عن لعبه.

أجبته بنصف الحقيقة، بأن السبب في ذلك هو عدم اشتراكي في أي نادٍ، خجلت من إخباره بأنني كنت عضو في مركز شباب الجزيرة.

لا أعرف لماذا لم أعترف له بأنني كنت مشتركة فيه، خشيت في لحظة من اتساع هذا الفارق الطبقي الذي بيننا، خشيت أن ينال هذا الـ "track" الذي يفصل بين نادي الجزيرة ومركز الشباب، ليفصل بين

الأغنياء والفقراء ، خشيت أن ينال من علاقتنا، وأن يفصل بيننا في تلك اللحظة التي شعرت فيها أنني قريبة منه.

كان والدي يروي لنا أنا وعمرو أخي حين كنا نذهب إلى هذا النادى، كيف أن نادي الجزيرة أعرق ناد في مصر كان للأغنياء فقط، ولكن حين جاء عبد الناصر، أراد أن يطبِّق الاشتراكية على هذا النادي فاقتطع منه مساحة للطبقة المتوسطة والفقراء لتتحول إلى مركز شباب الجزيرة.

كل تلك الأفكار أعادتني مرة أخرى إلى الواقع، إلى الفجوة التي تفصل بيني وبين زياد رغم أن المسافة بيننا قبل لحظات لم تكن كذلك.

- أتعرفين أنني أيضًا ألعب التنس؟

انتبهت لكلامه، فتحت عيني حينها، سعدت لشعوري أن هناك شيئًا يجمعنا: حقًـــا؟

هز رأسه إيجابًا وأخبرني أنه كان يلعبه بانتظام مع والده في نادي الجزيرة، ولكن بعد أن توفي لم يعد يطيق اللعب هناك، وصار يكتفي بالذهاب لوادي دجلة... "أشتاق لهذا النادي، هل تودين الذهاب إلى هناك لنلعب معًا؟"

هززت رأسي في فرحة: نعم.

- حسنـــًا، يمكننا فعل ذلك غدًا في الصباح.

تذكرت حينها أن لدي عملاً في الغد طوال اليوم، طلبت منه أن نؤجله لبعد غد، وأخبرته أنني سآخذ إجازة من عملي، لنقضيه معًا. اتفقنا على ذلك، فأدار المفتاح بالسيارة وانطلق بعدها.

* * *

- غريب هذا الأمر!! أنتِ لم تهربي من زياد، رغم أنه اقترب منكِ، ولم يكن يفصل بين شفتيكما سوى فاصل من التردد.

- لكني أبعدته بيدي.

- لكنكِ رغبتِ في حدوث ذلك، تمنيتِ لو كنت شخصية ورقية داخل إحدى الروايات، حتى تستطيعي تخطي الفاصل الذي وضعته الحيرة والتردد بين شفتيكما.

- لكني عدت مرة أخرى إلى الواقع وأدركت عدم وجود كلمات أتخفى بها، أو غلاف لرواية يحتضنني بداخله.

- أيًا كان الأمر، فأنتِ شعرت برغبة تجاه زياد، وهذا يعني بداية اعترافك بحبك له.

- حتى وإن كان ذلك صحيحًا، هذا شيء طبيعي أن أحبه لأنه ساعدني كثيرًا بدون أي مقابل، فكيف أكرهه بعد كل ذلك.

- أنا لا أتكلم عن الحب الذي هو عكس مشاعر الكراهية، أنا أقصد مشاعر الحب بين الرجل والمرأة، لماذا تحاولين إخفاء تلك المشاعر بداخلك؟

- لأني لا أعرف إن كانت تلك المشاعر حقيقية أم لا.

- من المؤكد أنها حقيقية لأنكِ لم تهربي منه.

- لا أقصد من ناحيتي أنا، بل أقصد من ناحيته هو، أخشى أن يكون هذا مجرد أوهام، فهو لم يعترف لي بشيء صراحة.

- الحب لا يحتاج إلى كلمات لتعبر عنه.

- لكني أحتاج إلى يقين حتى أتغلب على الخوف.

- بل إنكِ في حاجة إليّ التغلب على الخوف، حتى يأتيكِ اليقين.

- ماذا تقصد؟

- زياد فتح لكِ الطريق لتسيري إليه، هو في انتظارك الآن لتتخذي قرارًا.

- لا أعرف، فمازلت عاجزة عن اتخاذ أي قرار.

- الخوف يمنع المرء من التقدم خطوة واحدة للأمام.

- كلامك يشبه كلام زياد كثيرًا، لكني عاجزة عن معرفة نقطة البدء، أنا أنتظر شيئًا لا أعرف متى يأتي، لكني أنتظره.

- *كباقي أحلامك.*

- حسنـــا ذكرتني بالنوم، سأنام الآن فربما أقابل حلمًا يدلني على ما أفعله، لأن غدًا يوم منهك جدًّا في العمل، لدي أربعة جروبات يبدأ أولها في الثانية عشرة ظهرًا، وينتهي آخرها في التاسعة والنصف مساءً، إن أكثر ما يضايقني في الغد ليس العمل طوال اليوم، ولكن عدم تمكني من رؤية زياد بعد أن أنهي العمل في هذا الوقت المتأخر.

****

الفصل الثالث عشر

فوجئت بالأمس حين انتهيت من العمل، وفتحت هاتفي، برسالة تأتيني من زياد يخبرني فيها بأنه ينتظرني حتى أنتهي من العمل. سعدت لأنه جاءني رغم أني أخبرته أنني سأتأخر في العمل، سعدت أكثر لأننا كنا سنتقابل اليوم، وما بين الأمس واليوم ليس كثيرًا، ورغم ذلك جاءني.

بعد أن ركبت السيارة معه، وانطلق في الطريق، طلب مني أن أنظر إلى المقعد الخلفي، نظرت فوجدت حقيبة لماركة (NIKE)، ظننت أنه اشترى ثيابًا جديدة ويريد أن يعرف رأيي بها، لكني حين فتحتها بعد أن طلب مني ذلك، فوجئت بأنها ملابس التنس البيضاء التي طالما حلمت حين كنت صغيرة بارتدائها، لم تكن "Skirt" قصيرة فقط، بل كان معها "تي شيرت" وكاب، وحذاء.

تنهدت وأنا أسأله: ما هذا؟

- هذا لكِ.

اندهشت، سألته عن كيفية معرفته لمقاس ملابسي وحذائي، ابتسم وأخبرني أنه مجرد تخمين، كنت مصدومة من فكرة أن يشتري لي زياد تلك الثياب لمجرد أنني أخبرته أني أريد ارتداءها، كنت سعيدة لذلك، ومصدومة، وأشعر بالحرج منه، والاندهاش لأنه أكد لي أنه ليس لديه أزمة في ارتدائي تلك الثياب، ذكرني هذا بالفجوة التي بيننا، فهو يرى الأمر عاديًّا جدًّا، بينما الأمر بالنسبة إلى كارثي، تذكرت أيضًا أنني لا أستطيع ارتداء تلك الملابس بنفس تلقائيته حين اشتراها لي، أخبرته بأنني لا يمكنني فعل ذلك، اندهشت من ردة فعله "أنتِ حرة".

ظننت أنه تضايقِ مني، سألته إن كان قد تضايق بسبب هذا، لكنه هز رأسه بالسلب قائلاً: على الإطلاق، كنتِ تحلمين بشيء وأنا لم يكن في وسعي سوى أن أحققه لكِ، لا يهم أينَ ترتدينها يا نورا، يمكنك

ارتداؤها حتى لو أمام نفسكِ فقط، المهم ألا تتركي رغباتك الصغيرة بلا إشباع.

سعدت لقوله هذا، رغم أني كنت أعلم أنه يقصد أمرًا آخر بشرائه تلك الملابس لى، قبل لعبنا "التنس" بيوم واحد معًا، لكنه لم يكن يرغب في التدخل في أي قرار أتخذه، كعادته دائمًا، كان يفتح أمامي الطريق ويتركني بعدها أقرر إن كنت أسير فيه أم لا.

رغم أني لم أختر يومًا القرار الأول، إلا أنني لم أر في عينيه يومًا أي ضيق أو يأس، كانت نظرات عينيه تمنحني الأمل والثقة بنفسي، وتشعرني أنني من الممكن أن أعرف يومًا نقطة البداية.

طوال الطريق وهو يوصلني إلى المنزل لم يتكلم معي في أي شيء له علاقة بتلك الثياب، سألني عن أحوال العمل، أخذت أحكي له عن النسوة اللاتي حضرن طوال اليوم في الجروبات، كان يستمع لحكاياتي باهتمام، تذكرت أنه مضى وقت طويل على توقفه عن العمل، سألته متى يعود إليه، اكتْفى بقوله "ما زلت أفكر".

ضايقتني إجابته، لأني كنت أربط بين عودته للعمل وبين الشيء الذي يفتقده ويبحث عنه، ومعنى أنه لا يزال يفكر، أنه لم يجد هذا الشيء، تضايقت جدًّا لتلك الأفكار، اتفقنا على أن نتقابل في الثامنة، سعدت لأني منذ مدة طويلة، لم أستيقظ مبكرًا لأمارس رياضة، أوقف السيارة في شارع متفرع من شارع جامعة الدول، أخبرني أنه سينتظرني في نفس المكان في الغد لنذهب معًا إلى النادي، ودعته ونزلت من السيارة.

بعد أن سرت خطوات قليلة، تتبعني بالسيارة ليمنحني تلك الحقيبة التي كانت بها ملابس التنس، أخذتها منه وانتظرت حتى سار بسيارته بعيْدًا، فأخرجت الحذاء من العلبة وحشرته مع الثياب والكاب في حقيبتي. وألقيت بالعلبة في أول صندوق قمامة مررت به .

لم يكن بإمكاني دخول المنزل بعلبة كتلك، دون أن تسألني والدتي عما بها، وإذا عرفت ما بها، فيجب حينها أن أعطي سببًا لوجود مثل تلك الثياب معي، لذلك كان إخفاؤها في حقيبتي أمرًا لابد منه.

بعد أن عدت للمنزل، أخذت حمامًا دافئا، وتناولت طعامي على عجل، ودخلت بسرعة إلى حجرتي لأنفرد بتلك الثياب التي لم أتوقع ارتداءها يومًا.

أغلقت باب حجرتي جيدًا ، اتجهت نحو حقيبتي، فتحتها وأخرجت منها الثياب، تواجهت مع المرآة الموجودة بالدولاب، وضعت ثياب التنس فوق بيجامة البيت التي كنت أرتديها، لم أصدق أنني ألمسها بيدي، وأنها ملك لي، تخيلت نفسي بداخلها، كدت أخلع ثيابي لأجربها، لكني خشيت من دخول والدتي في أية لحظة، فالباب لم يكن له مفتاح ليمكنني غلقه عليّ بصورة كاملة، أغلقته بورقة مطوية عدة طبقات.

أعدت الثياب إلى الحقيبة مرة أخرى، ذهبت إلى الفراش حتى أستعد للنوم لكي أستيقظ في حالة نشاط، لكني حين كنت في الفراش بدأت التفكير فيما سأرتديه وأنا ألعب مع زياد، فكرت في الثياب التي يمكنني ارتداؤها، كنت أرفضها في ذهني واحدة تلو الأخرى.

" لا، لا يمكنني فعل ذلك" قلت ذلك لنفسي بعد أن جاءتني فكرة أن أرتدي تلك الثياب الموضوعة في حقيبتي، قلت ذلك وأنا أشعر برغبة في ارتدائها، كان بداخلي صراع بين ما يجب على فعله، وبين ما أرغب في فعله، كنت أقوم من فراشي في الظلام لأفتح حقيبتي وأفرد الثياب وأتخيل نفسي فيها فوق أرض الملعب، لكني سرعان ما أطويها ثانية وأعود لأتخفى من رغباتي أسفل غطاء الفراش.

في لحظة لم أستطع مقاومة الفكرة، قلت لنفسي "ماذا سيحدث إذا فعلت ما أرغب فيه مرة واحدة في حياتي؟؟" لن أخسر شيئًا، إذا كان ما يمنعني هو ارتدائي الحجاب فأنا لا أرتدي الحجاب فعليًّا، هو مجرد

قطعة قماش أضعها فوق رأسي ولا أحس بها، إذا كان ما يهمني هو الله، فالله لا يحاسب سوى بالنوايا، وحتمًا هو يعرف أنني لا أرتدي الحجاب بصورة حقيقية.

وإذا كان ما يمنعني هو المظهر الاجتماعي، فالنادي سيكون بعيدًا عن الطبقات التي أخشى رؤيتها لي بدون حجاب، أو رؤيتها لي بتلك الملابس، فهناك حتمًا الكثير من الفتيات اللاتي يرتدين تلك الملابس بداخله.

حين فكرت في ذلك شعرت بسعادة، رغم أني كنت من حين لآخر أتراجع عن تلك الفكرة، لكن تخيلي لنفسي في تلك الثياب التي كنت أحلم بها، كان قادرًا على مقاومة أية فكرة مناهضة لتخيلاتي. مر كثير من الوقت وأنا مستيقظة في الفراش.

لم أشعر برغبة في النوم، سعادتي بتلك الثياب منعتني من النوم لأنها أخذتني إلى ذكريات بعيدة، ذكريات تخص اليوم الذي يسبق أول أيام الدراسة، لم أكن أتذوق طعم النوم في هذا اليوم، كنت أظل في فراشي طوال الليل، أفكر في هذا الزي المدرسي الجديد الموضوع على حافة الفراش، أو مطويًا برفق فوق كرسي المكتب، أو معلقًا في الشماعة وموضوعًا في أحد أرفف الدولاب.

شممت رائحة المكواة في هذا الزي، شممت رائحة حذاء المدرسة الأسود الجديد، الموضوع أسفل فراشي، والحقيبة الجديدة التي كانت موضتها تتغير كل عام، وأنا في مرحلة الحضانة كانت رسمتها لبوجي وطمطم، وظلت الرسومات الكارتونية مسيطرة على ذوق حقائب كل عام، حتى أصبحت في السن التي تجعلني أنجذب لفيلم مثل تايتانك فاشتريت الحقيبة التي تحمل رسمًا لأبطال الفيلم.

الزي المدرسي، الحذاء الأسود، حقيبة تدل رسمتها على أنها جديدة وليست لعام سابق، توكة جديدة للشعر، شرابات بيضاء، خواتم

وإكسسوارات، مقلمة جديدة... التفكير فيهم جميعًا كان يمنعني من النوم قبل أول أيام المدرسة بيوم.

والتفكير في تلك الملابس البيضاء يمنعني أيضًا من النوم، عاودتني المشاعر الطفولية من جديد، وكنت مستمتعة بتخيل نفسي في تلك الثياب، قمت لأحضرها من حقيبتي ووضعتها بجواري تحت الغطاء وأرغمت نفسي على النوم حتى أستطيع اللعب في اليوم التالي.

استيقظت في الفجر ولم أستطع معاودة النوم بعد أن سمعت أصوات أطفال في الشارع، قمت من الفراش لأشاهد الأطفال الذاهبين إلى مدرستهم في زيهم المدرسي، ابتسمت لهم، تركت الشباك مفتوحًا لتأتيني الذكريات عبر هوائه، وذهبت لأحضر أنا الأخرى ثيابي لأستعد لحلم كان من الماضي أيضًا.

***

وجدت زياد ينتظرني في نفس المكان الذي تركني فيه بالأمس، بمجرد أن دخلت سيارته، وقبل حتى أن نتبادل السلام، سمعت صوت "عمرو دياب" ينطلق من المسجل وهو يغني كلمات أغنية "علمني هواك"، تنهدت طويلاً وأنا أضع يدي على صدري وأتنفس بهدوء، أدركت أن هذا اليوم به شيء لا يقاوم من الماضي.

" ماذا بكِ؟" سألني، فأشرت إلى مُسجل الأغاني.

- أتودين تغييرها؟

- لا، اتركها، أنا أحبها جدًّا.

طلبت منه أن يفتح نوافذ السيارة، ويعيد تشغيل الأغنية من البداية. كنت أردد كلماتها مع صوت "عمرو دياب"، وأنا مستمتعة باستنشاق هواء الشتاء الصباحي الذي كان يصطدم بوجهي بشدة كلما زاد زياد من سرعته.

عدت إلى تلك اللحظات التي كنت أسمع فيها تلك الأغنية في سيارة الميكروباص في أثناء ذهابي إلى المدرسة في الصباح، قبل أن يستبدل بها كثير من السائقين شرائط دينية، تذكرت حينها صديقتي التي أحبت سائق الميكروباص.... كل شيء في هذا اليوم كان يذكرني بالماضي.

شعرت برغبة في أخذ زياد معي إلى الذكريات، ليس بروايتها ولكن بتواجده في أماكنها، كنا قد وصلنا إلى منتصف شارع "جامعة الدول العربية"، رغبت في أن أذهب إلى مدرستي القديمة مع زياد، طلبت منه ذلك، فسألني في دهشة "لماذا"؟ أجبته "لتكون معي هناك كما أنت معي هنا".

ابتسم وتتبع وصفي للطريق، دخل من جانب فندق "أطلس"، سار في شوارع العجوزة الجانبية المؤدية إلى مدرستي، أوقف السيارة بجوار سور المدرسة، استمعنا معًا لطابور الصباح، دمعت عيناي، ربت على يدي وقال "أشعر بك، لهذا السبب رغبت في أن آخذك معي إلى نادي الجزيرة"، نظرت إليه مستفسرة فاستطرد "لتكوني معي هناك، كما أنتِ معي هنا"، ابتسمت له فانطلق بسيارته تجاه ماضيه.

وصلنا إلى النادي بسرعة، لم أشعر بالطريق لأنني كنت أروي له طواله، ذكريات خاصة بالمدرسة، رويت له قصة صديقتي التي أحبت سائق "الميكروباص" لأنه استبدل بشرائط "عمرو دياب"، شرائط مثل "الحجاب قبل الحساب"، أخبرته أنني كنت أغتاظ من هذا الأمر، إلى درجة أنني كنت أختار "الميكروباص" حسب الشريط الذي يشغله سائقه، وأنني لم أكن أركب مع سائق يشغل شرائط الحجاب، أو الجنة والنار، لأنه كان يذكرني بصديقتي التي تركتني وأحبت سائق "الميكروباص".

توقفت عن الكلام بمجرد أن رأيت على الجانب الآخر من الحارة الضيقة التي يسير فيها زياد لافتة مكتوب عليها "ملاعب مركز شباب الجزيرة"، يفصل بينها وبين نادي الجزيرة "track"، ومكان مخصص

لركن السيارات إلى سور نادي الجزيرة، يمتد لسيارات الـــ"BMW"، وسيارات المرسيدس، أمام نادي الجزيرة، لكن إذا سرت مسافة ليست طويلة بامتداد الـــ"تراك"، ستتحول السيارات إلى <”128“ ركن زياد السيارة بجوار سور نادي الجزيرة، في مقابل تلك "اليافطة".

شعرت بضيق في تلك اللحظة، شعرت بأنني بلا هوية، فعلى يميني كانت هوية زياد واضحة "نادي الجزيرة"، أما هويتي أنا على اليسار، حيث "مركز شباب الجزيرة" فإني أخجل من إظهارها.

تشجعت وقلت لزياد بدون مقدمات "أتعرف أنني كنت عضو في هذا المركز وأنا صغيرة، وكنت ألعب التنس هنا". أخبرته بما خجلت من إخباره به في وقت سابق، سألني في دهشة "حقـــاً!"

هززت رأسي إيجابًا في راحة بعد أن أعلنت هويتي الحقيقية له، لكنه علق في اتجاه آخر "ربما كنا في نفس الأمكنة في نفس اللحظة، ولم نر بعضنا، يا الله! غريب الزمن، وغريب القدر!"

تعجبت من تعليقه هذا، وكأنه لم يلحظ الفوارق بيننا، رغبت في إظهار مزيدًا من الفجوة له، فرويت له قصة "مركز شباب الجزيرة" أخبرته كيف أن "عبد الناصر" اقتطع جزءًا كبيرًا من نادي الجزيرة، حتى يكون للفقراء والأسر المتوسطة نصيب فيه، فكان هذا المركز. ابتسم زياد وأخبرني أنه يعرف تلك القصة وعلق "حسنـــاً فعل عبد الناصر، لكني كنت أتمنى ألا يفصل بين الناديين هذا الـــ"track"، ربما كان يمكنني حينها أن أراكِ وأنتِ طفلة".

فرحت جدًّا في تلك اللحظة، شعرت لأول مرة أن الفوارق بيننا لم تعد موجودة بعد أن أظهرت مخاوفي منها، وأنها ليست سوى فوارق من صنعي، بحجم سورٍ نادي الجزيرة، وبطول الـــ"تراك" الذي يفصل بين الناديين، كان طويلاً لمن يراه من بعيد، لا شيء لمن يسير فيه ويعرفه.

بمجرد أن دخلنا إلى النادى، لم يتوقف قلبي عن النبض، شعرت أن هناك طريقـًا عليّ سلوكه. كنت قد أحضرت في حقيبتي طاقمين ، أحدهما للعب التنس يمكنني ارتداء حجاب فوقه، والآخر الذي اشتراه لي زياد.

قبل أن أغادر المنزل وضعت الطاقمين في حقيبتي، لأني كنت متحيرة في الاختيار بينهما، وضعت الاثنين وأجلت الاختيار بينهما كما أؤجل كل شيء.

لكن الوقت، في تلك المرة، لم يكن مفتوحًا أو ممتدًا إلى ما لانهاية، لكنه حان في اللحظة التي تركني فيها زياد ليغير ثيابه في الحمام الخاص بالرجال، وطلب مني أن أستبدل ثيابي أنا الأخرى.

دخلت الحمام، ووقفت خلف الباب أتأمل الطاقمين، ولا أعرف كيف أختار بينهما، قررت أن أرتدي ملابس الحجاب، لكني شعرت برغبة في تجربة تلك الجيبة القصيرة لأرى نفسي بداخلها، لأنه لم تأتني الشجاعة لفعل ذلك في المنزل، قلت لنفسي" أرتديها لأرى نفسي فيها، وأخلعها مرة أخرى، ولن يتضايق زياد من تلك الدقائق التي سأتأخر فيها عليه إذا ما جربتها".

استبدلت بثيابي ملابس التنس، نزعت الحجاب، وفككت شعري، تركته يسترسل خلفي، وقفت خلف الباب قليلاً في انتظار رحيل الفتاتين اللتين كانتا في الخارج، كنت أخجل من أن يراني أحد هكذا، شعرت أن أي أحد سيراني بتلك الثياب سيعرف أني محجبة، وأني أرتديها لأشبع رغبة بداخلي، وأني أشعر بالحرمان من بعض الأشياء، حتى ولو كان يراني للمرة الأولى ، كان شعورًا من داخلي .

حين رحلتا، فتحت الباب لأرى نفسي في مرآة الحمام الكبيرة. ظللت واقفة أمامها لفترة، لم أصدق أنني أرتدي تلك الجيبة القصيرة .

لم أرغب في خلع هذه الثياب، أردت التقاط صورة لنفسي بها، لكن حين أخرجت الهاتف من حقيبتي، دخلت ثلاث فتيات، بالطبع شعرت بحرج من تصوير نفسي أمامهن، جاءني هذا الشعور بأنهن حتمًا يعرفن أنني أرتدي تلك الثياب لأصور نفسي، حتى أستمتع بالنظر إلى الصورة من حين لآخر لأتذكر أنني أنثى، لكني حين نظرت إليهن وجدتهن منشغلات بتعديل مكياجهن وتسريحة شعرهن، وثيابهن، لم يلتفتن إليّ .

دخلت فتاة مع والدتها، كانت الفتاة ترتدي ثياب التنس، كان جسدها أكثر ضخامة مني، وكان شكلها يوحي بأنها تعدت العشرين، لم تلتفت إليّ تلك الفتاة أيضًا، ولا التفتت إليّ والدتها. شعرت باطمئنان حين رأيت فتاة غيري ترتدي تلك الثياب، لكني في الوقت نفسه شعرت بالضيق لأن تلك الفتاة تتمكن من ارتداء تلك الثياب أمام والدتها بحرية، بينما أقف أنا أمام المرآة لألتقط صورة لنفسي بتلك الثياب، وأخفي الهاتف حين يدخل أحد عليّ وكأنني أرتكب جريمة.

نظرت إلى باب الحمام، حينها شعرت برغبة شديدة في تخطيه بتلك الثياب، وبينما كانت مئات الأشياء تحثني على التراجع، كانت تلك الرغبة تدفعني للتقدم.

تذكرت أن حقيبتي وثيابي الأخرى في الحمام، نظرت إليهما، لكني لم أذهب لحملهما، بل تقدمت نحو الباب بخطوات بطيئة، حتى خرجت من الباب، حين فعلت ذلك، شعرت بالرغبة في أخذ خطوات أخرى نحو الخارج.

لم يكن هناك الكثير من الأشخاص في الخارج، الغريب أنني لم أشعر بالذنب حين رآني أحد عمال النظافة في النادي والذي نظر إليّ كجزء من طريقه ورحل.

شجعني هذا الموقف على التقدم أكثر ناحية المكان الذي تسقط عليه أشعة الشمس، كان الجو باردًا، رغبت في الشعور ببعض الدفء،

وبعض الحياة، حين وصلت إلى هذا المكان عبر أمامي رجال ونساء دون أن أشعر أن هناك شيئًا غريبًا، كل ما شعرت به هو السعادة لأنني حققت رغبة قديمة، وحلمًا صغيرًا.

كانت تكفيني تلك اللحظات من الوقوف تحت الشمس، لأعود مرة أخرى إلى الحمام، أستبدل بها الثياب الأخرى، لم أفكر حينها بهذا التناقض الشاسع بين الأمرين، فقط فكرت في أن أفعل ذلك بصورة تلقائية، وفكرت في أن أعود إلى حياتي مرة أخرى بصورة تلقائية أيضًا.

حين التفت وجدت زياد في مواجهتي، شعرت حينها بالارتباك، أدركت فجأة أنني فعلت هذا فعلاً، وأن الأمر ليس مجرد مشهد داخل أحد الأحلام، ولكنه شيء حقيقي، تنهدت، أسرعت دقات قلبي، أحسست حينها بهذا الشعور الذي يأتيني إلى داخل حلمي الذي أحلمه دائمًا من أنني أسير عارية وسط أناس يرون جسدي، أردت أن أقول الكثير من الأشياء، أن أبرر ما فعلته، لم أجد كلامًا، كان زياد هو الآخر يقف أمامي في دهشة، ينظر إليّ نظرات غريبة، حتى قال أخيرًا: أنتِ جميلة جدًّا.

زادتني جملته ارتباكًا، وعلى قدر ما أسعدتني على قدر ما ضايقتني حين فكرت بها، شعرت وكأنه يقول لي "لم تكوني جميلة بالحجاب، لكنك الآن جميلة بدونه"، ورغم أنني كنت أكره الحجاب، إلا أنني كنت متعصبة تجاه أي نقد إليه، وكأنه نقد يخصني، إنها حقًا العادة!

سألته في ضيق: هل تراني جميلة لأنني خلعت الحجاب؟

هز رأسه نفيًا: أراكِ جميلة لأنكِ ترين نفسك كذلك.

إجابته أزالت عني سوء الظن ناحيته، حتى أنني تذكرت في تلك اللحظة أنه قال لي من قبل أنني جميلة، حين كنت معه في السيارة،

تذكرت أنه قال لي ذلك وكنت أرتدي الحجاب وقتها، أدركت أن الأمر ليس له علاقة بالحجاب.

ابتسمت، كنت أشعر بالخجل، نظرت إلى اتجاه بعيد عن عين زياد، وقلت: أشعر بالبرد.

وجدت تلك الجملة مناسبة للهروب من الطريق الذي بدأته، وجدتها حجة قوية لأستبدل بهذه الثياب أخرى بعد أن حققت رغبتي، لكنه قطع على طريق الهرب: حين نبدأ في اللعب ستشعرين بالدفء.

تذكرت أن حقيبتي بالداخل، استأذنت منه لإحضارها، كنت أفكر في تبديل الثياب بمجرد دخولي إلى الحمام، لكنني حين نظرت إلى نفسي في المرآة، ورأيت من جديد جسدي يرتدي حلمًا... خجلت أن أخلعه.

حين خرجت مرة أخرى إليه، ابتسم لي ابتسامة فهمتها، كان يراهن بينه وبين نفسه على إن كنت سأظل بتلك الثياب أم أنني سأستبدلها، لكنه لم يعلق بشيء حين اقتربت منه، تمشينا ناحية ملاعب التنس، كنت أشعر ببرودة، لكني لم أبال، كنت أكثر قدرة على مواجهة أي شيء.

نسيت أن أحضر معي "الكاب" لألملم به شعري، كنت أخاف أن أواجه نفسي بأنه يمكنني أن أفعلها وأرتدي تلك الملابس، كنت أقنع نفسي بأنني سأرتدي الثياب الأخرى والحجاب ولن أكون في حاجة إلى "الكاب"، فوجئت بزياد يخرج من حقيبته التي يضع بها مضربه" كاب" ويستوقفني ويلبسه لي، وهو يدخل شعري من فتحته ويخرجه من الناحية الأخرى، شعرت بزغزغة أصابعه حين لامست رقبتي عن مصادفة في البداية وعمد بعدها، تبادلنا نظرات لم يرها أحد من تحت "الكابات" وددت لو أنها كانت تخفي شفاهنا مثلما أخفت عيوننا.

قبل أن نلعب قلت لزياد متوقعة "لم ألعب منذ مدة تزيد على عامين، هل تحتمل لعبي السيئ؟"

– سأحاول وأمري لله.

زممت شفتي متذمرة: أترى؟ لن تحتملني!

- بالطبع سأحتملك، أنا واثق من أنك تلعبين جيدًا، ولكنك أدمنت الخوف.

شعرت أنه على حق، وبدأت اللعب بحماس، في خلال أول عشر دقائق من اللعب كنت ألقي بالكرة إلى أماكن خارج الملعب، شعرت بالخجل من زياد، فكلما كان يقذف لي الكرة قريبة منى، كنت أقذفها أنا بعيدة عنه، لكني في لحظة ما ركزت كل طاقتي، ولم يصبح لي سوى هدف واحد، أن أعود للتركيز من جديد، حينها بدأت ألتقط الكرة بلياقة أكثر، وأقذفها بصورة صحيحة وبحماس يتزايد كلما مر الوقت، حتى أنني اندهشت لأنني صرت لا أوقع سوى كرتين أو ثلاث خلال وقت طويل من اللعب، هو نفسه كان يشجعني وهو غير مصدق "bravo".

كان بداخلي حماس كبير، شيئًا فشيئًا بدأت أدرك أنني لا أقف على أرض لملعب تنس فقط، ولكنها تمثل أيضًا أرضًا قديمة لأحلامي، صوت ضربات الكرة حين تصطدم بالمضرب كانت تزيد حماستي لشيء ما، كل مرة كنت أزيد فيها حماستي لضرب الكرة بقوة أكبر حتى أسمع صوتـــًا أعلي لضرباتها.

كان هذا الصوت حاسمًا جدًّا، مثل الحسم في الانتقال من مرحلة لأخرى، الحسم في اتخاذ قرارًا ما، كان صوت الكرة يتعالى في الخارج، وصوت الحسم يتعالى من داخلي.

مضت ساعة ونحن نلعب، حتى أشار زياد بيده لي مرة أخرى، وهو يقترب من الشبكة التي تفصل بيننا، اتجهت أنا أيضًا ناحيته، حتى وصلت إليه، أخبرني أن ساعة كافية لأنني لم ألعب منذ عامين، ولا يجب أن أرهق جسدي أكثر من ذلك. اعترضت وألححت عليه لنكمل اللعب، وكأنني كنت أخشى ألا نأتي مرة أخرى إلى هذا المكان. ولكنه

قال لي إنها لن تكون المرة الأخيرة، وإننا سنأتي كثيراً فيما بعد. وافقته، وتذكرت شيئاً كان عليّ حسمه نهائياً.

ذهبنا لنستبدل ثيابنا، ارتديت ثيابي التي كنت أرتديها قبل ثياب التنس، حين خرجت كانت في عيني زياد نظرة فهمتها، رغم أنه لم يقل شيئًا. لكني قلت له: ربما استطعت أن أكون صادقة مع نفسي، ومع الله، لكني لم أستعد بعد لأكون صادقة مع الآخرين، وهناك أمور أخرى تشغلني حاليًّا.

- أتفهم الأمر.

سعدت لأنه لم يشعرني بتناقضي أكثر من ذلك، تذكرت شيئًا، فقلت له: هل يمكننا أن نذهب إلى المعادى؟

نظر إليّ زياد في دهشة: رتبت أموري على أن نقضي اليوم معًا، بعد أن أخبرتِني أنكِ ستأخذين إجازة من عملك.

- أنا بالفعل أخذت إجازة، لكن هناك شيئًا نسيته هناك، ويجب أن أحضره، وسنذهب بعدها إلى أي مكان تختاره.

نظر زياد إلى ساعته وكأنه أراد أن يطمئن إلى أن اليوم لا يزال في أوله، أبدي موافقته، واتجهنا معًا إلى خارج النادي.

***

تركت زياد عند باب الشركة واتجهت بخطوات سريعة نحو مدخل العمارة، لم أدخل المصعد، فضلت الصعود على السلالم. كنت أردد في أثناء صعودي تلك الجملة التي قالها لي زياد "لا يهم أن يحقق الإنسان نجاحًا كبيرًا في أي شيء، طالما أنه لم يحقق هذا النجاح في حلمه الذي كان يتمنى الوصول إليه، والذي يظل - رغم نجاحه في كل الأشياء- يطارده بالخيبة داخل نفسه. لأنه لم يحقق الشيء الوحيد الذي كان من المفترض أن يسعى نحوه".

حمستني تلك الجملة لأصعد بخطى ثابتة نحو الدور الموجود به الشركة، وازداد حماسي وأنا أردد كلماته الأخرى "الحلم يتحقق حين نسير في اتجاهه، ولا نكتفي بمجرد تأمله من بعيد" حتى وصلت إلى الدور الثالث، حيث مقر الشركة، عبرت المدخل، في تلك اللحظة بدأت أتأمل رجل الأمن، ابتسمت له، ورأيته بصورة مختلفة، دخلت إلى الشركة، وأخذت أحدق في كل ركن فيها، اتجهت مباشرة إلى حجرة المدير المجاورة لحجرة التشييك، قرعت بابه ودخلت، انتظرت أن ينتهي من مكالمة الهاتف التي معه، ثم أخبرته بأنني سأترك العمل.

أخذ يسألني عن الأسباب بتلك الكلمات المعتادة عندما يترك أحدهم العمل بدون مقدمات: هل ضايقكِ أحد!؟ ألا يعجبكِ العمل معنا ؟ لا تتعجلي في القرار... إلى آخر تلك الجمل.

شكرته على اهتمامه بي، ودعته بحب حقيقي لأني قضيت معهم فترة من عمري، وسمح وجودي في الشركة أن أعرف زياد، كنت أشكره بصدق على كل ما قدمه لي ويعرفه ولا يعرفه.

خرجت من عنده ودخلت إلى حجرة الـ"تشييك" عند الفتيات،كن ينظرن إلى بنظرات مختلفة، سألتني هدى في دهشة: ألم تأخذي إجازة اليوم!

هززت رأسي بالإيجاب ولم أقل شيئًا، بينما قالت أخرى: بكِ شيء مختلف اليوم، تبدين جميلة .

ابتسمت وأدركت كم هي حقيقية تلك الجملة التي قالتها لي مريم ذات يوم "ينظر لنا الآخرون على أننا أناس عاديون، حين نقتل في أنفسنا قدرتها على الاختلاف".

كنت قتلت في نفسي القدرة على الاختلاف منذ فترة طويلة، لكني كنت أدرك في تلك اللحظة بالتحديد، أن إحياء تلك القدرة من جديد، على صعوبته، أجمل إحساس من الممكن أن يشعر به المرء.

أخبرت الفتيات أنني سأترك العمل، اندهشن جميعا من هذا القرار الذي لم تسبقه أية مقدمات، لكن نظرات دهشتهن تلك أكدت لي أنني أحسنت باتخاذ قراري، لأنني سرت في الطريق المعاكس للتوقعات.

ودعتهن واحدة واحدة، وودعت الحجرة التي تعرفت بداخلها على صوت زياد للمرة الأولى، اتجهت ناحية الباب، ودعت رجل الأمن، ثم نزلت على السلالم، كنت أشعر مع كل درجة من السلم أنني ألقي بشيء من فوق كتفي. كنت قد عرفت البداية، بل أنني كنت بدأت بالفعل، ولم تكن هناك أية قوة قادرة على إرجاعي ولو خطوة واحدة إلى الخلف.

ركبت السيارة، أسندت ظهري إلى باب المقعد، نظرت إلى عيني زياد مباشرة، سألني عن الشيء المختلف، فأخبرته أنني تركت العمل.

ابتسم زياد في سعادة وكأنه لم يتوقع أن أتخذ قرارًا كهذا، لم يقل أي شيء، انطلق بالسيارة بسرعة جنونية، حتى توقف عند أحد البيوت في المعادى، كدت أسأله عن سبب توقفه، لكنني لم أقل أي شيء.

تتبعت خطوات زياد ناحية مدخل العمارة، لمحت لافتة مكتوب عليها اسم إحدى دور الأيتام، صعدنا إلى الدور الأول، قرع زياد باب إحدى الشقق الذي كان معلقـًا أعلاه نفس لافتة دار الأيتام التي رأيتها في الأسفل.

فتحت لنا إحدى السيدات، ابتسمت لزياد، ورحبت به. دخل زياد إلى الشقة ودخلت معه، سعدت لرؤية العديد من الأطفال وهم يلعبون.

شعرت بحب شديد نحوهم، كنت أحلم طوال الوقت أن أخصص وقتـًا أذهب فيه إلى دور أيتام، حتى أوجه جزءًا من الطاقة بداخلي إلى هؤلاء الأطفال، لكنني كنت أؤجل هذا الحلم أيضًا، لم أكن أعرف متى سأتخذ قرارًا بشأنه، كنت أترك الأمر وفقـًا للظروف.

لاحظت أن زياد اتجه ليلعب مع الأطفال، ولكن كان هناك طفل لا يتعدى عامين يتعلق بزياد بصورة زائدة، وكان زياد أيضًا يوليه اهتماما

أكثر من باقي الأطفال، رأيت في عينيه سعادة لم أرها من قبل، كان يلعب مع الطفل وكأنه ابن له، وكان الطفل يبادله الشوق، وكأنه والد حقيقي له، فرحت بتلك السعادة التي كانا يشعران بها، اقتربت منه لأشاركه اللعب مع الطفل، شعرت أن سعادته زادت حين فعلت ذلك، قدم الطفل إليّ: هذا يوسف.

ابتسمت وأخذت الطفل منه لأحمله، وأحسست بفرحة زياد لأني فعلت ذلك.

قضينا ساعتين نلعب مع الأطفال، مكنتني تلك الساعات من إنعاش حلمي القديم بتبني أطفالاً بدلاً من إنجابهم، كان هذا الحلم مختفٍ وسط ركام الروتين والواقع والفرص الضائعة، لكن اللعب مع هؤلاء الأطفال أيقظ الحلم بداخلي من جديد.

لم يكن هذا الحلم وحده هو الذي استيقظ بداخلي باللعب معهم، لكنني تمكنت وقتها من حسم أمرًا آخر بعد أن رأيت بنفسي طاقة الحب التي يحملها زياد تجاه الأطفال وتجاه الحياة .

ليس هناك وقت محدد يحدث فيه الحب، فالحب موجود بداخلنا، واللحظة التي نعلن فيها أننا نحب، هي اللحظة التي نقرر فيها فقط إظهار ما نخفيه.

لذلك لم أتردد كثيرًا، بعد أن خرجنا من باب الملجأ لأنطقها: أحبك.

نظر إليّ زياد في دهشة: هل قلتِ ذلك؟

هززت رأسي إيجابًا وأنا أبتسم، انتظرت منه أن يقولها، لكني لمحت بعينيه للمرة الأولى شعورًا بالخوف. "ماذا بك؟ هل أخطأت في شيء؟" سألته...

- لا، لم تخطئي في أي شيء، بل أنا الذي أخطأت.

لم أفهم مقصده، كنا في طريقنا إلى الخارج، ركبنا السيارة، كنت أشعر بإحباط شديد وقتها، أحسست فجأة بالندم على قولها، كنت أتوقع

رد فعل آخر من جانبه، بدأت أفكر أنني أخطأت وتسرعت، تسرعت في كل شيء، في الحجاب وفي العمل، وفي الحب، تسرعت لأني خسرت حياتي العملية من أجل حلم، وها هو جزء من هذا الحلم ينتهي قبل أن يبدأ .

- أنا أيضا أحبكِ.

قطع الصمت المفجع بيننا، تنهدت حينها وكأنني وجدت تلك القشة التي تنقذني من أفكاري شديدة السواد، لكني لم أفهم لماذا لم يقلها من البداية، وماذا تعني كلمته بأنه أخطأ.

أوقف زياد السيارة فجأة واستجمع هدوءه من جديد: أريد أن أخبركِ شيئًا، انفصلت عن زوجتي السابقة لأني...

قاطعته حينها: لا أريد معرفة شيئًا عن ذلك، لا أهتم بهذا الأمر.

- لا، هذه المرة الأمر مختلف، كل مرة كنت أوشك على إخبارك به، كنتِ تغيرين الموضوع ظنًّا منكِ أن الأمر شخصي، ولكن الآن الموضوع يخصكِ.

- يخصني أنا، لماذا؟

- لأني لا أنجب.

دارت بي الدنيا حينها، بدأت الأشياء تتضح لي أكثر، كان زياد يحاول كثيرًا معي لإخباري بهذا الأمر في أثناء كلامنا، لكن حين كان الموضوع يقترب من زواجه السابق، كنت أشعر بحقه في أن يحتفظ بخصوصية هذا الأمر لنفسه. وليس لهذا السبب فقط ، كنت أغير الموضوع أيضًا خوفًا من أن يحمل كلامه شيئًا يضايقني، كنت أتوقع دائمًا أن زوجته جميلة ومن عائلة غنية، وحين يأتي بذكر زواجه أشعر بغيرة حين أضع نفسي في مقارنة مع خيالاتي، إذا ما تخيلته وهو يحتضنها، يقبلها، يعاملها بهذا القدر من الحنان الذي يعاملني به، ينام

معها، تلك كانت أسوء خيالاتي، حتى أن تلك الأخيلة كانت بمثابة شبح يمنعني من النوم ليلاً.

لذلك كنت أغير الموضوع وأصده حين يأتي بذكر زواجه، شعرت بضيق لأنني كنت أفعل ذلك معه، ربما كان في حاجة لأن يتكلم معي عن أحزانه، ربما أراد أن يبوح لي بسر يرهقه الاحتفاظ به، وأنا كنت أمنعه لأنني كنت أكثر جبنـاً من احتمال سماع قصة زواجه السابقة، وتخيل أنه كان على علاقة بامرأة غيري. لم أرد سماع تلك القصة أبدًا، شعرت أنني كنت أنانية جدًّا لأنني حملته همومي وضعفي وجبني وعجزي، بينما لم أحمل معه أنا ضعفه وعجزه، كدت أبكي في تلك اللحظة لأني لمحت في عينيه ضعفـاً لم أره منذ أن عرفته، لكني تماسكت لأن دموعي في هذا الوقت بالتحديد كانت ستزيد جرحه، وتوصل إليه رسالة معناها أني نادمة على معرفته، وأنني لن أحتمل عجزه .

- أحبك.

كانت الكلمة الوحيدة التي أستطيع أن أعوضه بها عن أنانيتي التي رفضت احتماله طوال تلك الفترة، وكانت أنسب كلمة أعبر بها عن رغبتي فيه رغم عجزه، كما أكمل معي الطريق سابقـاً رغم عجزي.

ابتسم الطفل في داخله في سعادة حقيقية، قال وكأنه يريد أن يتأكد مما قلته له:

- أريد أن أكفل يوسف، هذا هو حلمي الذي أردت أن أملأ به فصل حياتي، والذي لم أكن أعرف كيف أتخذ قرارًا بشأنه.

مرة أخرى اتضحت لي الأمور التي لم أدركها في وقتها، تذكرت تلك المكالمة الأولى بيننا، تذكرت كلمات جبران التي توقف عندها في كتاب النبي "أطفالكم ...."، تذكرت أغنية فيروز لتلك الكلمات، كانت تلك هي الإشارة.

هو أخبرني وقتها أنه كان ينتظر إشارة ما لأنه كان يشعر بالضيق، يمكنني فهم سر الضيق الذي كان يشعر به وقتها. كان يقرأ عن الأطفال، وحينها أراد أية إشارة تأتيه ليعرف كيف ينفذ حلمه، وجاءته حينها من نغمة هاتف، هو تتبع إشارته إلى النهاية، تحمل ذبذباتها غير المفهومة وتراجعها عنه في بعض الأحيان، تحمل إلى النهاية لأنه كان مؤمنـاً بها، رغم أنه لم يكن يعرف ما الذي أمثله أنا كجزء من تلك الإشارة، لكنه لم يهتم لذلك، وقف إلى جواري حتى استطعت أن أحسم أموري وأتخذ قراراتي، وحينها كشفت الإشارة عن نفسها بالكامل.

أخبرته أنني لا أريد يوسف وحده، بل أريد فتاتين معه، إحداهما تمزق لي الأوراق التي تعبت في تأليفها وكتابتها، والأخرى تعطلك عن العمل لأنها تريد أن تنام بين أحضانك، ويوسف يسبب لنا المشاكل لأنه يتشاجر مع أبناء الجيران على الفتاة التي يحبها.

ضحك زياد ومال برأسه على المقعد وأغمض عينيه قليلاً، قبل أن يعود إلى جلسته الأولى مرة أخرى: هل قلت لكِ إني أحبك.

ابتسمت وهززت رأسي إيجابًا: ولكن ليس هناك مانع من أن تقولها مرة أخرى.

ابتسم زياد حينها، نظر إلى المقعد الخلفي لسيارته، كانت هناك علبة صغيرة بداخل كيس، لم أكن أعرف ما بها، أمسكها وفتحها، ضحكت حينها ونظرت إلى الناحية الأخرى في خجل، حين أدركت أنه اشترى لي طلاء أظافر... لم أتوقع هذا.

وضع مناديل على فخذيّ، وطلب مني أن أفرد أصابعي فوقهما، فعلت كما طلب، فبدأ يضع لي طلاء الأظافر. شعرت بسعادة حقيقية لأنه فعل ذلك، لم أكن أتخيل أن يقبل رجل أن يشاركني في أمر كهذا، لم أتخيل أن رجلاً يأخذ أحلامي الصغيرة التي أخجل منها بين أحضانه، ويدللها إلى هذا الحد، ويشعرها بحقها في الوجود.

كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي ترسم فيها أظافري بعناية، بدون أن يتعدى الطلاء أظافري ليلون أصابعي. كان اللون الذي اختاره زياد رائعًا، إحدى درجات اللون الوردي الجميلة جدًّا.

حين انتهى أمسك يدي برفق، وظل ينفخ في الطلاء، جففت أنفاسه سيولته، شعرت في ذلك الوقت أنني طفلته وحبيبته وابنته وزوجته وكل شيء.

***

ذهبنا بعدها لنتناول طعام الغداء في أحد المطاعم، قلت له بدون خجل أنني أريد تجربة شيئًا جديدًا غير طعامي التقليدي، وأنني لا أعرف هذا الطعام الموجود في القائمة.

اختار لي زياد مثلما اختار لنفسه" الفيتوتشيني مع الفراخ بالجبن"، سعدت لأنني أجرب شيئًا جديدًا، وسعدت أكثر لأنني امتلكت الشجاعة لأعترف له بأنني لا أعرف الطعام الموجود في تلك القائمة الكبيرة جدًّا، وأريده أن يختار لي بنفسه .

حين جاء النادل بالطعام، تأملت المكان من حولي، لاحظت أن هناك فتاتين كانتا تجلسان بجوارنا، كانتا تنظران إلى زياد من حين لآخر بنظرات إعجاب، كانتا جميلتين، كنت أعرف أنهما من الممكن أن يكونا في ذلك الوقت يتبادلان حديثًا حولنا ويقولان أنني لست جميلة بالقدر الكافي لرجل في وسامة زياد.

تذكرت حينها ما كنا نفعله أنا وصديقاتي حين نتناول طعامًا في أحد المطاعم ونلاحظ وجود فتاة مع شاب وسيم، كنا حينها نتحسر على وسامة هذا الشاب، ونقلل من شأن الفتاة التي معه، ونقول أنه أعمى لأنه فضلها علينا، رغم أنه ليس بيننا وبين هذا الشاب أي سابق تعارف.

لاحظ زياد نظراتي من حين لآخر إلى الطاولة الأخرى، ولاحظ نظرات الفتيات ناحيتنا، فوجئت به يقطع بالشوكة والسكين قطعة فراخ

ويقربها من شفتيّ، ويطلب مني أن آكلها منه. كانت سعادتي في تلك اللحظة لا توصف، شعرت أنني جميلة جدًّا، استبدلت بمشاعر الغيرة التي شعرتها منذ قليل بسبب نظرات الفتاتين، شعورًا بالقوة. كنت أشعر أنني قوية جدًّا في تلك اللحظة.

حين تحب المرأة رجلاً حقيقيًا، فإنها تتخلص من مشاعر الغيرة،لا لأن النساء لا يتهافتن عليه، ولكن لأن أجملهن حين تفعل ذلك، فإنه يزيد اهتمامه بحبيبته، فتتمنى لو تتهافت عليه الجميلات كل يوم حتى تشعر دائمًا بأنها طفلته المدللة التي لا يصرفه عنها أي امرأة مهما كان جمالها.

***

جاءنا الليل ونحن في طريقنا إلى خارج المطعم، كنت أعرف أن الوقت صار متأخرًا لكني رغبت أن أتمشى معه في شوارع المعادي بدون سيارة، ركن سيارته في أحد الشوارع وتمشينا، لم أكن أعرف الفارق بين أرقام الشوارع، حاول زياد أكثر من مرة أن يجعلني أحفظ أرقامها، لكني كنت أدخل الشوارع بعضها في بعض.

كنت سعيدة لأنني لأول مرة أسير معه بدون السيارة، معه زالت غربتي من منطقة المعادي وشوارعها، شعرت بحميمية الأمكنة من حميميته، كنا نسير وهو يمسك بيدي كعشاق الأفلام القديمة، يريني أحياء المعادي وشوارعها ويصمم على أن أحفظ الشوارع، الغريب أننا كنا في وادي دجلة، لم يحاول حتى أن يريني منزله أو يشير إليه من بعيد، وكأنه خشي أن يسيء إلى جمالية اللحظة بملحوظة غير مقصودة.

أخذنا نتحدث عن الأغاني التي نحبها، والقصائد التي تحولت إلى أغان، أخبرته أنني أحب قصيدة "حنين إلى الضوء" لمحمود درويش، وأتمنى أن تتحول إلى أغنية. قال لي إنها تحولت إلى أغنية بالفعل،

يغنيها "كمال خليل" المغني الفلسطيني، والذي له فرقة تسمي "بلدنا" تغني أغاني وطنية، وأنه يحب تلك الفرقة ويحتفظ بكل أغانيها.

صمت قليلاً وكأنه تذكر شيئًا، ثم أخبرني أن "حنين إلى الضوء" موجودة في إحدى الأسطوانات في سيارته.

****

حين عدنا إلى السيارة، بحث في الأسطوانات حتى أدار إحداها على الأغنية ، كان صوت العود الذي يغني عليه "كمال خليل" ساحرًا مع كلمات "محمود درويش"، طلبت منه أن يعيد الأغنية مرة واثنتين وثلاث، بينما غُصت أنا بجسدي في مقعد السيارة أستمتع بالأغنية، أثارت بي الرغبة في الكتابة، كنت أردد كلمات الأغنية في سري وأنا مغمضة العينين " ماذا يثير الناس لو سرنا على ضوء النهار.. وحملت عنكِ حقيبة اليد والمظلة، وأخذت ثغرك عند زاوية الجدار... وقطفت قبلة...".

تمنيت في تلك اللحظة أن أفعل مع زياد كل ما في الأغنية، ظللت مغمضة العينين حتى لا تفضح نظراتي تلك الرغبات ، لكني شعرت بأنفاسه الساخنة، تقترب من شفتيّ، تنفست هواءه الدافئ، لم أكن أعرف حينها إن كنت داخل حلم، أم أنني كنت في لحظة حقيقية، لم أرغب في فتح عيني حتى لا ينتهي الحلم إذا فعلت، ظللت مغمضة حتى احتضنت شفتيه شفتيّ، شعرت برجفة حينها وبخوف، فتحت عيني فوجدت الأمر حقيقيًا، لم يكن حلمًا، كانت الأنفاس الساخنة حقيقية، والشفاه التي قبلتني في مواجهة لشفتيّ.

"لم أستطع مقاومة روحك" قال...

ظل الخوف في عيني ثابتًا، طلب مني أن أغمض عينيّ، ففعلت.

أخذ يدي ووضعها على مكان قلبه، ترك يدي هكذا حتى شعرت بنبضات قلبه.

"هنا يكمن حبي" قال زياد...

لم أفتح عينيّ، أردت أن أظل هكذا، ظل محتفظـــًا بيدي في يده، أنزلها ببطء شديد، حتى وصل إلى سحاب بنطلونه، فزعت حين أدركت أن يدي تلامس عضوه، كان منتصبًا، فتحت عينيّ.

"اغمضي عينيكِ، لن أفعل شيئًا يسيء إلى هذه اللحظة" اطمأننت لأنه قال "هذه اللحظة"، كان يعرف قيمة تلك اللحظة بالنسبة إليّ.

أغمضت عيني من جديد، فقال "هنا تكمن شهوتي".

شعرت بالارتباك يعود إليّ من جديد، لكنه خفف ارتباكي بقوله: فقط أجيبي بنعم أو لا، وأنتِ مغمضة العينين، هل شعرتِ بتلك المسافة التي تفصل بين مكمن حبي ومكمن شهوتي.

أبقيت على عيني مغمضتين، وهززت رأسي بالإيجاب.

- ذلك هو الطريق الذي يركض فيه كل البشر منذ بدء الخليقة، ولكن قليلاً منهم الذين يعرفون أن هذا الطريق لا تكمن متعته في آخره، ليست المتعة أن نركض ونصل إلى أهدافنا في النهاية بروح منهكة وجسد مشتت، المتعة في هذا الطريق فيمن يتخذ السير فيه غاية ولا يتعامل معه على أنه وسيلة يجب الإسراع فيها، ليست الغاية أن ينفجر البركان، وتتشتت أجزاؤه، ولكن الغاية أن نحافظ على التحامنا ونحن نسير في الطريق بثقة أن كلاً منا لا يهمه الوصول إلى النهاية، بقدر ما يهمه البقاء ملتحمًا لأطول فترة تمنحها لنا طاقة العشق اللانهائية بداخلنا.

تعلمت حينها أول شيء حقيقي في حياتي، تعلمت العشق الروحي.

كان عقلي مشوشًا بما تعلمناه طوال حياتنا في المدرسة، حين أخبرونا أن هناك حبًّا عذريًّا ليس له علاقة بالجنس، يتناوله الشعراء القدماء فيما يسمي بالغزل العفيف، ظننت أن العشق الروحي هو هذا الحب العذري، ولم أكن أتخيل أبدًا أن ينشأ حب عذري بين رجل وامرأة وقعا في شرك الرغبة.

أسأل نفسي الآن أي تشويش هذا الذي مزجت به أفكاري طوال السنين الماضية، كيف أدخلوا في رؤوسنا أن هناك فارقـًا بين الروح والجسد، كيف أصدق هذا الآن بعد تلك اللحظة مع زياد؟

قبل زياد باطن يدي بعدها وانطلق بالسيارة ليسمح للهواء بالدخول، ويسمح لخوفي بالخروج.

أخبرني أنه سيعود للعمل، كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي قالها زياد، قبل أن ندع الصمت يعبر عن سعادتنا، التي من الممكن أن تقلل الكلمات من شأنها.

لم أعلق على كلامه سوى بابتسامة، ونظرة عين تبادلناها أكدت لي ما شعرت به خلف كلماته، اكتملت سعادتي، لأنه وجد ما كان في حاجة إليه، وجد التغيير الذي كان ينتظره، وملأ الفاصل في حياته.

***

بعد أن تركت زياد، شعرت بطاقة تنبعث من كل جزء في جسدي، رغبت في الرقص، في الصلاة، في الغناء، وفي الصمت، في السير ببطء فوق الأرصفة، وفي الركض بجنون بين السيارات، رغبت في كل شيء وفي لا شيء، كل الأفعال التي رغبت فيها كانت ستأتيني بمتعة لحظية، إلا فعلاً واحدًا، الفعل الوحيد الذي لم يكن بإمكاني القيام به لو لم أسترد روحي .

شعرت برغبة شديدة في الكتابة، كانت الكلمات هي المولود الوحيد الذي يمكنني إهداؤه إلى رجل أعاد روحي إلى الحياة.

أغلقت باب حجرتي عليّ، وتركت النافذة مفتوحة لأتواصل مع الطبيعة عبر هوائها، فتحت تلك الصفحة التي كنت كتبتها منذ عام كبداية للرواية، شعرت برغبة شديدة في تمزيقها، رغم أن كلماتها لم تكن سيئة، لكنها كانت وسيلة، كنت أكتب فيما مضى لأشعر بحريتي...الآن اكتب لأني حرة.

كانت لدي الشجاعة لأمزق تلك الورقة، وأبدأ من جديد.

****

*- عندما تبلغ العلاقة الغرامية ذروتها لا يكون بها أي متسع آخر للعالم المحيط، يكتفي المحبان بعضهما ببعض، ولا تكون لهما حاجة في أي مما حولهما، ولا تتوقف سعادتهما على شيء، حتى ولو كان هذا الشيء هو الطفل الذي اشتركا في إنجابه*****

- نعم، أنت محق، لم تعد سعادتي تتوقف على شيء آخر سوى وجود زياد في حياتي، حتى أحلامي صارت جزءًا من علاقاتنا، لم أكن أتخيل في وقت سابق أنه يمكنني الزواج برجل لا ينجب، كان لدي حلم بأن أكفل أطفالاً، لكني في الوقت ذاته، لم أكن أتخيل أن يُفرض على فرضًا ألاّ أنجب.

لكني بعد أن أحببت زياد، تخلصت من تلك الأمور المتناقضة غير المفهومة التي تتسع أنفسنا للكثير منها، فما فائدة أن أتزوج من رجل قادر على الإنجاب إذا كنت من البداية أريد أن أكون أمًّا لأطفال صاروا بلا أمهات، ألم يكن هذا حلم من أحلامي الذي لم أثق في وجود رجل يقبله؟ الآن يمكنني تحقيق هذا الحلم بدون أن يتهمني أحدهم بالجنون.

أنا لم أعد في حاجة إلى غير زياد، حتى أنت لم أعد في حاجة إلى التكلم معك فيما يضايقني، لأني لم يعد لدي ما أكبته لأني أخشاه، لم أعد أخاف شيئًا لأني صرت حرة، صرت روحا حقيقيًا لأني أحب وأدرك معنى الحب.

الحب هو أن تجد في شخص ما ماضيك الذي لن يعود إليك، وحاضرك الذي لا تدرك أهميته، ومستقبلك الذي تخشى غيبيته .

الحب هو الذي منحني الحماس لأتخذ قرار البدء.

أنا الآن متعبة جدًّا لأني كتبت لأكثر من ثلاث ساعات، وإذا استمررت في الكتابة هكذا بجسد متعب سأسيء للكلمات، ولن أخرج

شيئًا يستحق سوى التمزيق، سأنام الآن لأستيقظ بروح جديدة، فلم يعد لدي عمل ينهك روحي، وصرت متفرغة لأصنع حلمي بدون تعجل، ودون تأجيل .

سأنام الآن... حسنًا، ربما لم أعد في حاجة إليك لأحكي لك ما يضايقني، لكني سأحتاج إليك لأروي لك سعادتي ... لتصبح علـــى خير.

***

الفصل الرابع عشر

وجدت مدخل تلك الباخرة أخيرًا، لم أكن جئت إلى تلك الجهة من الزمالك قبل اليوم، لكني تعمدت المجيء وحدي رغم أن زياد عرض عليّ أن ينتظرني في المكان الذي أحدده بعد أن ينهي عمله ونذهب معًا إليها، لكني أردت الذهاب إلى هناك وحدي، لأنتظره بداخلها، كنت أعرف أنه لن ينتهي من عمله قبل الخامسة، لكني ذهبت في الرابعة والنصف، حتى أنهي الشعور بالرهبة من دخول الأمكنة الجديدة وحدي، وألقي به إلى النيل.

دخلت إلى المطعم الذي اتفقنا أنا وزياد على الالتقاء به، اخترت الطاولة المجاورة للنيل، كانَ المنظر لا يقاوم، ولكن رغم أني كسرت خوفي من دخول الأمكنة الجديدة، وكان من المفترض أن أستمتع بهذا المنظر للنيل، إلا أنني لم أشعر بأية متعة، كان بداخلي خوف آخر، خوف يشبه انتظار نتيجة الامتحان، لأن زياد رفض أن يخبرني برأيه في الرواية عبر الهاتف، أصرّ على أن يكون هذا وجهًا لوجه.

كنت أنتظر مجيئه بلهفة، وفي الوقت نفسه أخشى سماع رأيه. لم أكن أتوقع رد فعله، فرغم أنه طوال المدة التي تفرغت فيها للكتابة كان يطمئنني ويدعمني دائمًا، لأنه كان من المستحيل بالنسبة إليّ أن أجلس أكثر من شهرين في المنزل بدون أن أشعر ولو للحظة بالخوف من الفشل الذي يعني الكثير من الأشياء.

كان يعني أنني تنازلت عن عملي الذي لم يكن يجعلني في حاجة إلى أي أموال من أجل أوهام، ويعني أيضًا أن يكون كلام والدتي بشأن القراءة والكتابة حقيقيًا، كانت كلما دخلت علي ورأتني أمسك بكتاب أو بقلم، تخبرني أن تلك الأمور لن تفيدني، وأنه يجب على البحث عن وظيفة بمرتب ثابت، كانت تظن أنني تركت العمل في الشركة من أجل

العودة إلى الصحافة، لأن كتابًا وورقة وقلمًا لم يكن يعني لها شيئًا سوى عملي في الصحافة.

وأكثر ما كان يخيفني من الفشل هو زياد "أن تعشق إنسانـًا إلى درجة أن تخشى من إحباطه إذا ما خذلته وفشلت...هذا هو التحدي الأكبر"

أرسلت إليه تلك الرسالة في مرة حين شعرت بالإحباط الشديد، وبفقدان الرغبة في إكمال الرواية، جاءتني منه تلك الرسالة "الخوف يهزم الإيمان" زاد إحباطي حينها، كنت أنتظر شيئًا يدعمني لا شيئًا يزيد مخاوفي، ولكن لم تمر دقيقة واحدة وأرسل إليّ تلك الأخرى "والحب يهزم الخوف".

تذكرت حينها تلك الطاقة الموجودة بداخلي، طاقة روحي التي تحب، وطاقة الحب التي تمنح روحي الحياة، أكملت حينها الكتابة بدون خوف.

لا أتذكر كيف قضيت شهرين أو أكثر داخل المنزل في عزلة لأنهي الرواية، لكنني متأكدة أنه لولا وجود زياد ولولا كلماته لي ، لما كنت تحملت تلك العزلة التي لم أكن أرى زياد فيها سوى يوم واحد في الأسبوع.

***

تسارعت دقات قلبي، حين لمحت زياد قادمًا نحوي، ووددت لو أتركه وأذهب بدون أن أعرف رأيه، كنت متجمدة في مكاني من الخوف، وصل إلى الطاولة التي كنت أجلس إليها، مد يده بالسلام، كانت يده دافئة جدًّا، مقارنة بيدي التي كانت قطعة ثلجية.

علق على ذلك بقوله"هل هذا بسبب البرد، أم نتيجة الخوف؟"

هززت كتفيّ: لا أعلم.

أمسك يدي الأخرى وبدأ يحرك يديّ داخل يديه، بدأت أشعر بالدفء، لكني كنت لا أزال أشعر بالخوف لصمته، كانت نظرات عينيه تزيدني خوفًا لأنها لم تكن تحمل أي رأى، كانت محايدة وكأنه لم يكن يتذكر تلك الرواية ولم يقرأها من الأساس.

سحبت يديّ من يديه، ضممتهما إلى صدري، وبدأت أهز رجليّ، وأنا أنظر بعيدًا ناحية النيل، كنت أشعر بخيبة أمل.

قام حينها من مكانه وجاء ليجلس في المقعد المجاور لي، وضع يده على فخذي بهدوء: توقفي عن هذا.

- لا أستطيع.

- تستطيعين، إذا كانت لديكِ من الثقة بنفسكِ نصف ما تمتلكينه من موهبة في الكتابة، لضمنت لكِ أن تحصلي على نوبل.

توقف توتري حين سمعت كلماته، نظرت إلى عينيه أستجديه أن يقول رأيه، قال لي أن لديه تعليقين عليها، اعتدلت في جلستي في اهتمام، فقال: الأمر الأول، لن أخبرك برأيي الآن، سأخبرك حين تنشرينها.

" لماذا"؟ سألته في دهشة...

- لأنني أعرفكِ جيدًا، إذا أخبرتك برأيي ستكتفين بسعادة إنجازك لها ولن تنشري شيئًا، لن أقول لك رأيًا حتى تتشجعين على نشرها، حينها لن أقول لك رأيي فقط، لكن سأترجمها لك أيضًا.

فرحت جدًّا وسألته في سعادة عن الأمر الآخر، فقال وهو يبتسم "هل مازالت لديكِ مشكلة مع الـــ"French kiss" نظرت إليه في دهشة، تذكرت قصة قبلةَ اللسان التي ذكرتها في الرواية، استطرد قائلاً "هذه مشكلة بالنسبة لي أيضًا".

ضحكت حينها وخبطت على كتفه برفق، شعرت حينها أن كل أحلامي تحققت، شعرت أنني حققت ذاتي، وفي الوقت نفسه أمتلك حبًّا،

بعد أن أوهمني من حولي جميعًا، بأنني يجب أن أتنازل عن تحقيق ذاتي، إذا ما أردت الحب والزواج، أو أتنازل عن الحب والزواج إذا ما فكرت في تحقيق ذاتي.

اتفقنا على تفاصيل مجيئه لمقابلة أهلي ونحن نتناول طعامنا.

***

الفصل الخامس عشر

- لماذا حدث الطلاق مع زوجتك السابقة؟ سأل والدي زياد...

- لأنني لا أنجب.

أجاب زياد بعد فترة صمت...

صدمتني إجابته رغم أني كنت أعلم بالأمر مثلما صدمت والديّ وأخي الذين لم يكونوا على علم بالموضوع.

لم يكن هذا هو الاتفاق بيننا، أنا طلبت من زياد أن يؤجل أي كلام في هذا الأمر، بل طلبت منه في الحقيقة ألا يعترف بهذا الأمر، ويختلق أي مبرر لحدوث الطلاق بينه وبين زوجته.

كنت أعرف أن طلبي هذا يجرحه، رأيت جرحه من نظرات عينيه إليّ حين طلبت الأمر، شعرت بحزنه من صمته طوال الطريق بعدها، لكن لم يكن هناك حل آخر سوى إخفاء الأمر على أسرتي حتى نتزوج، وبعدها لن يستطيع أحد أن يفرض عليّ شيئًا. كنت أفكر بتلك الطريقة.

ساد الصمت على الوجوه لفترة كافية لجرح زياد، تدارك والدي الأمر، وقال الكلمة التي تقال في مثل تلك الظروف: ربنا يقدم ما فيه الخير.

كان من الطبيعي جدًّا أن يكون هذا إيذانا بنهاية اللقاء، دخلت إلى حجرتي بدون أن أقول شيئًا، لم أبكِ لأنني لم أستوعب الأمر.

دخلت والدتي إلى حجرتي، سألتني: هل كنتِ تعرفين بهذا الأمر؟

حينها طفا الجبن على السطح "لا" أجبتها وكأني أنفي تهمة.

- حسنــًا، الأمر انتهى إذن.

كدت أسألها "لماذا؟" لكني كنت في الحقيقة لا أبالي لإجابتها، كنت أعرف إجابة أخرى "لأنني جبانة".

تذكرت تلك الجملة التي قالها لي زياد في يوم ما "إن قول لا أو قول نعم يتوقف على قدرتنا على تحمل مسئولية أي منهما".

الغريب أني شعرت بضيق من زياد بدلاً من أن أشعر بضيق من نفسي لجبنها، حتى إن أول جملة قلتها لزياد حين رأيته: لماذا فعلت ذلك؟ قلتها بضيق، وكأنه ارتكب جريمة حين قال الحقيقة.

صمت طويلا وسألني: متى ترغبين في نشر الرواية؟

استفزني سؤاله، ظننت وقتها أنه ليس له أية علاقة بسؤالي، وأنه مجرد هروب من الإجابة عليه. بمزيد من الحماقة واجهت جرحه: لا تهمني الرواية الآن، ما يهمني هو أنت؟

ابتسم ساخرًا، وأعاد السؤال مرة أخرى: متى ستنشرين روايتك؟

استفزتني تلك الابتسامة، نفخت في ضيق: لا أعلم.

- إذا أردتِ نشرها سأساعدك في الأمر.

زاد ضيقي أكثر، كانت نبرة صوته توحي بأنه ينهي الكلام بيننا، وكأنه يخبرني أنه لن يقدم لي سوى ذلك، أما غير هذا فلا. شعرت أنه ينهي كل ما بيننا، أردت استفزازه حتى يعود مرة أخرى زياد الذي أعرفه، فقلت: إذا نشرتها فسيكون باسم آخر غير اسمي.

كانت تلك الجملة فيما مضى كافية لإشعال غضبه، كان يقول لي وقتها: كيف تخافين وأنا بجانبكِ، هل تظنين أن أحدًا ما يمكن أن يمسك بسوء وأنا موجود إلى جواركِ.

كنت أنتظر منه في تلك اللحظة جملة كتلك، ولكنه نظر إليّ بسخرية: إذا كنتِ لا تمتلكين الشجاعة الكافية لمواجهة الآخرين بما تكتبينه، فمن الأفضل أن تتوقفي عن الكتابة، ومن الأفضل أن تتوقفي عن إظهار شجاعة لا تمتلكينها، ومن الأفضل أيضًا أن تتوقفي عن تقديم وعودًا لا تستطيعين تنفيذها...

قال ذلك ثم رحل، تم الأمر بسرعة لم أتوقعها، كنت مصدومة لأني لم أستطع استيعاب الأمر، ظننت أنه ذهب إلى مكان ما وسيعود مرة أخرى، أوهمت نفسي بأنني داخل أحد المشاهد في فيلم ما، وأنها ليست النهاية، لكني لم أستطع إيهام نفسي أكثر من ذلك، انتظرته لكنه لم يعد إلى المطعم من جديد.

خرجت إلى الشارع لأتمشى به، شعرت برغبة في البكاء، رغبت في معرفة إجابة عن سؤالي "لماذا فعل زياد ذلك؟" لكني لم أجد إجابة، كدت أجن، شعرت بقطرات مياه تسقط على يدي، نظرت إلى السماء فوجدتها تمطر.

كدت أوقف تاكسي وأعود إلى المنزل، لكني حين نظرت إلى أعلي وتأملت قليلاً،عرفت أن تلك القطرات كانت رسالة لأنظر إلى أعلى، وقفت إلى السور أمام النيل لأتأمل السماوات، بقيت على تلك الحالة فترة طويلة أفكر، حتى جاءتني الإجابة، وحينها أجهشت بالبكاء...

عرفت في تلك اللحظة أن السؤال الصحيح الذي كان يجب أن يسأله زياد لي هو "لماذا فعلت أنا ذلك؟" لماذا جرحته وطلبت منه منذ البداية ألا يعترف بعقمه؟ كان طلبي ذاته جرحًا له، ربما لم يكن متعمدًا قول هذا أمام والديّ، ربما كان رغم جرحي له على استعداد للكذب من أجلي، لكنه في لحظة ما لم يستطع، أراد أن يرى حبي له، أراد أن يتأكد من كوني على استعداد لمواجهة العالم كله من أجله، كما كان هو على استعداد أن يفعل حين احتاج إليه.

لكني خذلته، نعم خذلته، وقف هو بجواري حين كنت ضعيفة وجبانة وعاجزة عن النطق بما أرغب، اعتنى بأحلامي الصغيرة واحتضنها، منحني القوة لأكون أنا بعد أن أعجزني الضعف عن أن أكون نفسي.

ظننت أنني تغلبت على جميع مخاوفي، وحتمًا هو أيضًا ظن ذلك، حين حققت رغبة قديمة لجسدي، وحين تركت العمل من أجل حلم، وحين اعترفت له بحبي، ظن أنني صرت قوية، وظننت أنا الأمر نفسه، لكن مع أول مواجهة حقيقية مع الواقع، اكتشفت أنني مجرد فتاة تمسك بالقلم والورقة طوال الوقت لتخفي بهما عجزها عن فعل شيئًا حقيقيًا .

فهمت حينها لماذا سألني عن الرواية، رغم أن سؤالي كان على علاقتنا. فهمت في تلك اللحظة ما عجزت عن فهمه حين كنت مع زياد، لأنني كنت أنانية وقتها، ولم أتمكن من الشعور بتلك الجروح التي سببتها له، والتي كنت أسير فوقها بكلمات حمقاء.

سألني عن الرواية لأنها كانت الشيء الذي يشبه علاقتنا، إذا كانت لدي الشجاعة الكافية لأنشر الرواية باسمي الحقيقي، كنت بالطبع سيكون لدي الشجاعة لأعترف لأهلي بأني أحب هذا الرجل ولا أبالي لعجزه الذي لم يكن سببًا فيه.

أدركت بعد فوات الأوان أنه لم يخطئ حين اعترف بعجزه، لكني كنت أنا المخطئة حين خجلت، أو بمعنى أدق حين خفت من الاعتراف صراحة بقبولي هذا العجز، لأن هذا يعني اعترافي بعشق هذا الرجل، لأنه ما من امرأة تقبل ذلك في رجل إلا إذا كانت تعشقه.

خفت لأني جبانة، مثلما كنت جبانة أيضًا في تحديد مصير روايتي. كان محقـًا، فإذا لم يكن لدي الشجاعة الكافية لأنشرها باسمي الحقيقي فمن الأفضل أن أمزقها.

أشعر برغبة في تمزيقها، بل أشعر برغبة في قتل نفسي، فما فائدة أن أعيش بعد أن أضعت الرجل الوحيد الذي أعاد الحياة إليّ، وبعد أن جرحته بصورة لا تحتمل؟ لا أعرف حقـًا ماذا سأفعل في حياتي القادمة.

هل أضع الرواية تحت فراشي لأخفيها كما أخفيت قبلها كثيرًا من عجزي؟ هل سأعود لعمل لا أحبه ولا يشبهني مرة أخرى؟ هل سأعود إلى الاستمناء بعد أن توقفت عنه منذ أن عشقت زياد؟

فقط حين تعرف ما هو الحب، فلا يمكنك بعدها أن تستسلم لرغبة عابرة، أو نزوة تثير في روحك التي قدسها الحب اشمئزازًا، لا أستطيع العودة إلى هذا الأمر من جديد، لكني في الوقت ذاته أعرف أنني لن أشعر بالمتعة مع رجل غيره، أدرك الآن معنى الجملة التي قالتها لي مريم "الأصعب من الشعور بالشهوة،أن يمتلك المرء شهوة تجاه شخص بعينه، ولا يستطيع إخمادها مع أحد غيره".

أفهم الآن معنى تلك الجملة جيدًا، ولا أعرف كيف سأتزوج برجل آخر غير زياد، كيف سأقبل أن يقبلني رِجل غيره، حتى إذا قبلت ذلك فلن أشعر بطعم القبلة، كان زياد صادقـًا "القبلة ليست التقاء بين شفتين ولكنها التقاء بين روحين، فإن عجزت الأرواح عن الالتقاء، فسدت القبلة".

لا أعرف كيف أتصرف في أي شيء؟ حتى أنت لا أعرف ما الذي سأفعله معك؟ ظننت أنني صرت أكثر شجاعة من التعبير عن رغباتي أمام طيف مات صاحبه منذ أكثر من خمسين عامًا.

أتذكر تلك المرة الأولى التي قرأت لك فيها كتاب "الأنا والهو" واكتشفت بعدها أن كل إنسان بداخله رغبة لا شعورية مكبوتة، وكلما ضغط المرء على نفسه لكبتها، كلما صار هذا الشخص أكثر عرضة لأن يكون عصابيًا "مريض نفسي"؟

خفت حين قرأت ذلك، شعرت أنني معرضة للإصابة بكل الأمراض النفسية بسبب إخفاء الكثير من الأشياء وإزاحتها إلى لا شعوري، فكرت أن أذهب إلى طبيب نفسي، لكني وجدت أن تلك الفكرة سيئة جدًا، لأنني لم يكن بإمكاني إخبار والدتي بذلك، لأن الطبيب النفسي

عندها كان مجرد طبيب من أجل المجانين، لم يكن بإمكاني أن أذهب دون علمها لأنها كانت تعلم حجم راتبي بعدد جروبات العمل.

شعرت برغبة شديدة في الكلام، في الاعتراف بكل شيء أرغب فيه، فكرت ماذا لو تخيلت أنني أتحدث إلىٍ فرويد، أضحكني الأمر في البداية، لكني قلت لنفسي أنني لن أخسر شيئًا، إذا جربت الأمر على أنه لعبة.

عدلت المخدة فوق الفراش، في وضع يسمح لي بأن أكون نصف نائمة، كنت أعمل حينها بتعليماتك التي قرأتها في كتابك (تفسير الأحلام) "خير حالة للسرد بلا انتقاء، هي حالة الاستعداد للنوم، لأنه قبل النوم مباشرة تنثال الأفكار في غير حذر".

استرخيت تمامًا بعد أن أغلقت باب حجرتي وأطفأت النور، واستبدلت بضوئه ضوء الأباجورة الخفيف، بدأت حينها اللعبة بدون أن أعرف أي شيء سأحكيه، لكني لم أرتب لشيء، كنت أحكيٍ ما يأتي على ذهني وقتها، أحيانا كنت أشعر من داخلي، أن هناك شيئًا ما لا أريد تذكره، كنت أستدعي حضورك حينها، وأتخيل أنك تجلس أمامي، تحذرني من الإخفاء، وتصدمني بمعرفتك عن نفسي أمورًا لم أكن أعرفها عنها.

لم أتخيل أن تتحول تلك اللعبة إلى شيء اعتيادي أمارسه بصورة شبه يومية قبل النوم، ولم أعرف أن هذا الأمر مفيد إلى الحد الذي جعلني بالفعل أخرج أشياء لم أتوقع ظهورها على سطح الوعي لدي بتلك الصورة، لم أكن أتخيل أنٍ تلك الأمور التي ظننت أنني نسيتها تشكل لي في بعض الأحيان ضغطـًا على أعصابي بدون أن أعرف سببًا، لكني حين تكلمت وحين تركت الذاكرة تفصح عما بداخلها، بدأت أفهم الكثير من الأمور التي لم تكن تشغل تفكيري لأنني لم أكن أعرف أنها تشغل تفكيري، وتشغل لا شعوري.

كنت أعرف أنني لو اكتفيت بالكلام مع نفسي فقط، لما كنت سأتذكر كل تلك الأمور التي رويتها لك. هذا كان طقسي الذي أستعد به كلما احتجت إليه: إطفاء النور، النوم على الفراش بتلك الطريقة، إضاءة خفيفة، والأهم من ذلك كله تخيل وجودك أمامي، لأن تخيل هذا كان يمنعني من الكذب، كنت أستدعي كلامك من الكتب التي تركتها، وأشعر أن كثيرًا منه يشبهني.

سميت هذا الطقس "على فراش فرويد" ، كنت كلما أتضايق من أمر ما في العمل، أؤجل شعوري بالضيق حتى أعود إلى المنزل. كنت أخبر نفسي أن تنتظر حتى أكون على فراش فرويد، صارت الأمور تسير بتلك الطريقة، وصار هذا الشيء هو الأمر الوحيد الذي لم أتمكن من مصارحة زياد به، لم أكن أستطيع إخباره بأني أتحدث كل يوم مع فرويد قبل النوم، وأنني سميت هذا الطقس "على فراش فرويد"، كان الأمر جنونـــًا لا يصدقه أحد ... لكني صدقته.

الآن لا أعرف ماذا أفعل، وأنت بالطبع لم يعد بإمكانك تقديم مزيدًا من النصح لى، فالأمر لم يعد له علاقة برغبات مكبوتة أرغب في البوح بها، لكنه صار قرارًا على اتخاذه.

****

الفصل السادس عشر

وصلت إلى المعرض متأخرة، لأني لم أستطع المجيء إلى الزمالك دون أن أمر بتلك الباخرة التي جلسنا فيها أنا وزياد معًا تلك المرة التي لم أكن أستطيع فيها تحمل سعادتي بعدما ظننت أن كل أحلامي بدأت تتحقق .

لم تكن المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك، فمنذ أيام، بعد أن أنهيت عملي في الشركة، شعرت بحنين لذلك اليوم الذي عدت فيه مع زياد إلى ماضيَّ، وعشت معه أجمل حاضر، وحلمت معه بالمستقبل، تذكرت يوسف طفلنا، حاولت تذكر اسم الدار التي كان بها، وأخذت "تاكسي" وأنا لا أعلم الشارع الذي به هذه الدار، سألت كثيرين قبل أن أصل إلى هناك.

فرحت حين وصلت الدار ورأيت يوسف، فوجوده طمأنني أنه لم يذهب مع زياد وامرأة أخرى غيري، ومنحني أملاً في عودة علاقتي مع زياد الذي حاولت كثيرًا الاتصال به، ولم يجبني.

تمنيت حين دخلت إلى الدار أن أجده يلعب مع يوسف، ربما تغفر روحه الطفولية حينها لي جَرحي له، تمنيت أن أجده لألعب معهما، وأعيش تفاصيل ذلك اليوم من جديد، في نفس المكان وفي نفس الموعد، فالعاشقون وحدهم، هم الذين يتذكرون موعد لقائهم الأول بالثانية، ويتمنون لقاء مثله في موعد يشبهه دون مراعاة لتقلب أمزجة القدر.

ربما لهذا لم أستطع الذهاب إلى الزمالك دون أن أمر أمام تلك الباخرة، وقفت قليلاً بجوارها، أتذكر تفاصيل لقائنا، حتى أعرف إن كان الأمر حقيقيًا أم لا.

فبعد افتراق العاشقين، يتجنب بعضهم الأمكنة التي كانت تجمعهم مع أحبائهم حتى لا تثير ذكريات فيها أحزانهم، والبعض الآخر يتعمد

السير فيها حتى يستعيد الذكريات ويشبع شهوة الحزن بداخله، أما أنا فأجد نفسي أسير نحوها مضطرة لا لأحزن ولا لأبكى، وإنما لأصدق أنه مر بحياتي يومًا، فلن يستطيع خيالي مهما بلغت شطحاته أن يرسم صورة للمكان والأحاسيس وكل الأشياء مجتمعة ويضعه بداخلها وفي النهاية يصبح شيئًا غير حقيقي، فأذهب إليها وأسير فيها فقط لأتأكد بنفسي من وجود تلك الأمكنة أو وجوده.

نظرت إلى ساعتي، كانت الثامنة، شعرت أنني تأخرت على المعرض، فذهبت تجاهه.

لم أكن أتصور أن الحزن الذي مرت به مريم الفترة الماضية، من الممكن أن يساعدها على تحقيق حلمها في أن يكون لها معرض للوحاتها قبل أن تتم السادسة والعشرين.

كنت فرحة حقًا من أجلها خصوصًا بعد أن رأيت السعادة في عينيها وهي واقفة تستقبل الناس، كأنها تعلن لكل من حولها أنها قوية جدًا لأنها لم تتكسر رغم كل الضربات الموجعة، كانت من حين إلى آخر تنظر إلى اللافتة المكتوب عليها اسمها "مريم صلاح العشري"، كان هذا هو أهم أحلامها أن يكتب اسم والدها بأحد المعارض، كانت تعيش حياتها من أجل أن تحقق حلمًا عجز والدها أن يحققه.

بعد أن عاتبتني مريم على تأخري، طلبت مني أن أدخل لأشاهد اللوحات التي كنت أشاهدها للمرة الأولى، لأنه في الفترة الأخيرة كان كل منا منشغلاً في حياته، دخلت إلى المعرض وأنا أشعر بروح قوية جدًا في المكان، شعرت بالحنين وبالحزن، رغم أن اللوحات لم تكن جميعها حزينة، بل كانت هناك لوحات تمنح الكثير من الأمل.

اللوحة التي جذبتني وجعلتني أقف أمامها متسمرة، تلك التي كانت تجلس فيها فتاة القرفصاء، وقدميها مكبلة بجذور الأرض أسفلها، كانت

السماء غائمة فوقها بصورة كئيبة، وكأن السماء ترفضها بعد أن تشبثت بالأرض ورضيت بقيودها.

كثيرًا ما طلبت من مريم أن تشرح لي بعض لوحاتها، لكنها كانت ترفض وتقول لي: "إن الفن لا يشرح ولا يفسر، ولكنه يحس" لم أكن في حاجة إلى تفسير تلك اللوحة، كنت أحسها، شعرت أنها تشبهني، فلم أستطع الحراك من أمامها.

"هل تعجبكِ تلك اللوحة إلى هذه الدرجة"؟

قطع الصوت تفكيري، فنظرت خلفي لأرى صاحبه، لم أصدق نفسي، كان هو "خالد يسرى".

سعدت لأن رؤيته ذكرتني بذلك اليوم الذي قابلته فيه أول مرة مع زياد، سلمت عليه دون أن أندهش لأنه تذكر اسمي، وتذكر ملامحي، كان زياد محقـًا حين أخبرني أن هذا الرجل يتأمل الأشخاص، حتى يحفر لهم في ذاكرته صورتهم وهيأتهم، وطريقتهم في المشي والكلام، والحديث، وتناول الطعام...

- ماذا بكِ؟ سألني من دون مقدمات...

- لا شيء، أنا بخير.

- عيناكِ لا تقولان هذا، حين تقابلنا تلك المرة، رأيت في عينيكِ سعادة وحماسًا، الآن لا أرى سوى الحزن.

اندهشت من كونه يقول لي ذلك، لكني تذكرت أن الإنسان لا يستطيع أن يخفي حزنه مهما ارتدى من ابتسامات وضحكات، فالعين دائمًا تفضح ما في الداخل لأن روح الإنسان تظهر فيها.

أجبته: تلك اللوحة أثارت الحزن بداخلي.

نظر قليلاً إلى اللوحة ولم يعلق عليها. لكنه قال: سمعت أن لديكِ رواية، وأنا متحمس لقرائتها. نظرت له في دهشة. كدت أسأله" من

أخبرك بذلك؟ وماذا قال لك عني؟ وكيف حاله؟.. وما التوقيت الذي تحدثتما فيه بشأني؟.. هل كان قبل أن نفترق أم بعدها؟

لكنني لم أسأله بالطبع، واكتفيت بقولي: سوف أحضرها لك قريباً جداً.

- أنا سعيد لرؤيتك مرة أخرى، تلك مصادفة لم أتوقعها، لأنني كنت لا أنوي المجيء إلى المعرض اليوم بسبب بعض الظروف، ولكن مريم موهوبة وتستحق أن نقف جميعًا إلى جوارها.

كنت أعرف أنه قال ذلك ليوصل إليّ رسالة معينة، لو كنت في موقف آخر لكنت شعرت بالغيرة لأن أحدًا ما حقق ما عجزت عن القيام به، لكني لم أشعر بذلك في تلك اللحظة لسببين، الأول أني كنت أشعر بسعادة حقيقية لما فعلته مريم، والثاني لأني أدركت أن تلك المصادفة التي جمعتني بـــ "خالد" في هذا المكان، لم تكن مجرد شيء عابر.

تبادلنا أرقامَ الهواتف، وطلب مني أن أتصل به إذا احتجت أي شيء، سلم على بعدها وتركني دون أن يسألني على زياد وكأنه يعرف ما حدث بيننا، ولم أسأله أنا عنه خجلاً، وذهب ليسلم على مريم، لم أكن أعرف أنه يعرف مريم، لكني على أية حال لم أندهش، فأغلب من في الوسط الثقافي يعرفون بعضهم بعضًا.

اقتربت مني مريم بعدها وسألتني إن كان المعرض أعجبني، أخبرتها بأنه أعجبني جدًّا، فسألتني "متى تنشرين روايتك لأفرح لك؟"

صمت، فقالت لي: رأيتك تقفين مع "خالد يسري"، ألا تعرفين أنه يشرف على دار نشر تنشر كثيرًا من إبداعات الشباب؟

- أعرف.

- وماذا إذن؟

- أنتِ تعرفين أن المشكلة ليست في ذلك؟

- أعرف أن المشكلة فيكِ أنتِ، إلى متى ستضيعين الفرص؟

- أنتِ تعرفين ظروفي.

- ليست هناك أية ظروف تجعل الإنسان يصل إلى تلك الحالة التي وصلتِ إليها، إذا كنتِ أضعتِ زياد بسبب الخوف، وأضعتِ حلمك بسبب الخوفَ أيضًا، فما الشَيء الذيَ ستعيشين حياتك من أجله.

شعرت بالضيق من كلامها، نظرت إلى ساعة هاتفي وقلت لها إن على الرحيل لأني تأخرت.

- أمازلتِ تهربين من مواجهة نفسك، اسمعي يا نورا، لو لمِ أكن واجهت نفسي فيما مضى بأني أخطأت، لما استطعت أن أفعل شيئًا في حياتي سوى الندم، لا أريدك أن تصلي في يوم إلى مرحلة لا يجدي فيها الندم، افعلي أي شيء ولا تقفي هكذا.

قالت ذلك وتوقفت عن الكلام، كانت تبتسم وتنظر ناحية الباب، نظرت خلفي، فوجدت شريف قادمًا في اتجاهنا، سلم على مريم وعليّ، غمزت إليها أنني أريدها، وقفت معها بعيدا عن شريف.

- ألمح في عينيكِ ابتسامة غريبة، هل تكتمان خبرًا سعيدًا عنى؟

هزت رأسها إيجابًا: كنت على وشك أن أخبرك بالأمر، سيتقدم لخطبتي قريبًا.

فوجئت بالأمر حينها، سألتها إن كانت جادة فيما تقوله، هزت رأسها إيجابا: أخبرته بكل شيء، وصار بإمكاني أن أحبه دون خداع.

صدمت حينها: هل أنتِ مجنونة،كيف تفعلين ذلك؟

- صدقيني الأمر يسير بشكل جيد، ولو لم أفعل ذلك لما كنت سامحت نفسي طوال عمري.

سألتها في دهشة: وهل قبل شريف أمرًا كهذا؟

هزت رأسها مرة أخرى: كما ترين .

شعرت أن سؤالي كان ساذجًا، فلو لم يكن يقبل هذا، لما كانت هناك خطبة، أو أي شيء آخر، شعرت للحظات بالاندهاش، لكنني حين فكرت

في الأمر جيدًا، وجدت أن الأمر ليس به ما يدعو لأيٍ اندهاش، لأنني لا يمكنني أن أتوقع من الجميع بأن يتصرفوا وفقــا لطريقة تفكيري الخاصة.

أعترف لك أن هذا الأمر حرك بداخلي كثيرًا من المشاعر، لا، لم أشعر بالغيرة لأن مريم حققت حلمها، واستعادت روحها من جديد. لكني شعرت بالأمل، فإذا كان هناك رجل يسامح امرأة على خطئها قبله، فحتمًا هناك احتمال أن يسامح رجل امرأة على جرحها له.

شعرت في تلك اللحظة بالضيق لأني أضعت الكثير من الوقت في لاشيء، كنت فقط أحاول الاتصال بزياد دون إجابة من جانبه، لكني لم أفعل شيئًا حقيقيًا، كنت أبكي فقط على الذكريات بيننا وأتفقد الأمكنة التي كانت تجمعنا، لكني لم أفعل شيئًا يثبت له أنني أحبه وعلى استعداد لفعل أي شيء من أجله.

عاتبت نفسي حينها، لأني كنت أشبه تلك الشخصيات التي تأتي في الأفلام والتي تفعل دائمًا ما يضايقني كمشاهدة، تخرج من الحفل قبل انتهائه ولا تسمح لي بأن أكمل الحفل من خلال عينيها، تخسر حبيبها لأنها رأته في تلك اللحظة مع فتاة أخرى، فتتركه وتتزوج غيره وبعدها تكتشف أن تلك الفتاة كانت أخته، ترتكب كل الحماقات لأنها لم تترك لنفسها فرصة ألا تفعل، لم أكن أريد أن أكون تلك الفتاة المملة المستفزة في حركتها البطيئة في الحياة، أو التي لا تتحرك من الأساس .

لم أكن أرغب أن أكون شبيهة تلك الفتاة في الواقع، رغبت أن أكون شبيهة للفتيات اللاتي يفعلن شيئًا يمنحني الأمل والحماس لفعل شيء، رغبت في أن أمنح غيري الأمل .

فحياتنا ورقة، وأحلامنا قلم، وإرادتنا تتمثل في تلك الكلمات التي يتركها القلم على الورقة، ليهتدي بها الآخرون في حياتهم ويصدقون أحلامهم.

تذكرت حينها أنني قابلت خالد، وأنه ذكر لي أن تلك المقابلة كانت مصادفة، لكني كنت أعرف أنها لم تكن مصادفة، أدركت ذلك واستجمعت قوتي حينها لأتقبل الرسالة .

***

سرت في شوارع وسط البلد ببطء، كنت أقدم خطوة وأرجع خطوة، لكني رغم ذلك وصلت بسرعة إلى المقهى الذي كان "خالد يسري" ينتظرني به. في حين أنني كنت أنتظر معرفة رأيه، بعد أن منحته الرواية الأسبوع الماضي، وظللت طوال الأسبوع أنتظر مكالمة منه يخبرني فيها برأيه،لكنه حين اتصل بي رفض أن يخبرني رأيه عبر الهاتف، وحدد موعدًا بيننا في المقهى، ذكرني ذلك بما فعله زياد معي حين منحته الرواية، جعلني ذلك متفائلة بعض الشيء.

- هل أعجبتك حقــا؟

- لو لم تكن أعجبتني لما كنت اتصلت بكِ.

فرحت لأنه قال ذلك، لكني سعدت أكثر لسؤاله بعدها: بأي اسم ستنشرينها؟

كنت أشعر أن هذا السؤال ليس صادراً منه، وكأن هناك شخص آخر حاضراً بغيابه، يريد التأكد من أنني لن أرجع في قراري ثانية.

- باسمي الحقيقي " نورا كامل"...

أجبته ونظرت إلى السماء لعلها ترسل له بالرد سريعًا.

نهلة كرم

تمت ٢٠١٣/١/١٤

الساعة ٩,٥٠ دقيقة مساءً

ملحوظة:

*** تلك العلامة بجوار أية جملة وردت بالرواية تعني أن الكلام جــاء على لسان فرويد.

أحدث إصدارات
« دار الثقافة الجديدة »

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف/ المترجم	الصنف	السعر
١	مرض اليسارية الطفولي	لينيـــــن ترجمة: دار التقدم، موسكو	سياسة	٢٠,٠٠
٢	العقل والسياسة	د. فكري أندراوس	سياسة	٢٠
٣	متاهة الاسكافي	عبد المنعم رمضان	سيرة ذاتية	٢٠
٤	إجهاض الديمقراطية الحصاد المر للعلاقات المصرية - الأمريكية في أربعين عامًا	جايسون براونلي ترجمة : أحمد زكي عثمان	سياسة	٤٥,٠٠
٥	حكم العواجيز اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتي	فلاديمير ميدفيديف ترجمة: د.نبيل رشوان	سياسة	٣٠,٠٠
٦	مأزق الاقتصاد المصري وكيفية الخروج منه	عبد الخالق فاروق	اقتصاد	٣٠,٠٠
٧	الثورة المغدورة (قصة كومونة باريس في شرائط مصورة)	برنار فيسك ترجمة وتقديم: راوية صادق	سياسة	٣٠,٠٠
٨	العمامة والقبعة (الطبعة الثانية)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٥,٠٠
٩	الحرب الأهلية في فرنسا مع مقدمة لفردريك إنجلز وبفهرست للأعلام	كارل ماركس	سياسة	٢٥,٠٠

١٠	الإمبراطور الأخير قصة آخر إمبراطور للصين من مذكراته	إعداد: فتحي خليل	سيرة ذاتية	٢٠,٠٠
١١	أمريكانلي (الطبعة الثالثة)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٥,٠٠
١٢	لينين الدولة والثورة	تدقيق وتقديم: سعد الطويل	سياسة	٢٠
١٣	رشدي سعيد ١٩٢٠-٢٠١٣ قراءة معاصرة لبعض أعماله	د. فكري أندراوس	دراسة	٢٠,٠٠
١٤	مدخل إلى المنطق الصوري	د. سهام النويهي	فلسفة	٢٠,٠٠
١٥	ثورات وتمردات المصريين منذ الاحتلال العثماني حتى عام ١٩٥٢	عبد العزيز جمال الدين	معارف	٤٠,٠٠
١٦	ثورات المصريين حتى المقريزي	عبد العزيز جمال الدين	معارف	٤٠,٠٠
١٧	يوحنا النقيوس (أول من كتب عن دخول العرب مصر) تاريخ مصر والعالم القديم	عبد العزيز جمال الدين	معارف	٤٠,٠٠
١٨	خمسون عاماً من الغوص في مصر	د. البهي عيسوي	تاريخ	٣٠,٠٠
١٩	اللجنـــــــة (الطبعة العاشرة)	صنع الله إبراهيم	رواية	١٥,٠٠
٢٠	(حدتو) وثائق من باريس وسجن الواحات حول ثورة ٢٣ يوليو وعن الإخوان المسلمين	تحرير وتقديم د. أحمد القصير	سياسة	٢٠,٠٠
٢١	حكايات إنسان في سلام مع نفسه	علي نجيب	مقالات	٢٠,٠٠
٢٢	وردة (الطبعة الرابعة)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠

٢٣	الصندوق الأسود - قصة حسين سالم	كارم يحيى	سياسة	٢٠,٠٠
٢٤	يوميات الدولة الإسلامية في الســـــودان	إعداد عبد الماجد عليش تقديم: د. حيدر إبراهيم علي	سياسة	١٥,٠٠
٢٥	تغريبـــــة (الجزء الثاني) من رواية مهاجر غير شرعي	جمال عمر	رواية	١٥,٠٠
٢٦	نظرتان على تونس (من الديكتاتورية إلى الديموقراطية)	كارم يحيى	سياسة	٢٥,٠٠
٢٧	م الدار للنار	فؤاد حجازي	سيرة ذاتية	٢٠,٠٠
٢٨	طعامك علاجك	تأليف: فكري اندراوس/د. أليسون أور- اندراوس	علوم	٢٠,٠٠
٢٩	دليل الاشتراكية العلمية لشباب الثورة المصرية	بهيج نصار	سياسة	٥,٠٠
٣٠	رمال ناعمة	درية الكرداني	رواية	٢٥,٠٠
٣١	ذات (الطبعة الخامسة)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠
٣٢	المسلمون والأقباط في التاريخ ط٣	فكري أندراوس تقديم المستشار/ محمود الخضيري	دراسة	٣٠,٠٠
٣٣	حرفوشيات (ديوان شعر)	د. فؤاد طيرة	شعر	١٥,٠٠
٣٤	الجلـــــــــيد	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠

٣٥	أحمد حسنين ودوره في السياسة المصرية ١٩٤٠-١٩٤٦	د. ماجدة محمد حمد	دراسة	٣٠,٠٠
٣٦	شــــــــــرف	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠
٣٧	أيقونة الجسد	جورج البهجوري	رواية	٢٠,٠٠
٣٨	الرئيس البديل	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
٣٩	مهاجر غير شرعي	جمال عمر	رواية	٢٠,٠٠
٤٠	جمهوركية آل مبارك	محمد طعيمة	سياسة	٢٥,٠٠
٤١	حدتو ذاكرة المقاومة في بورسعيد ١٩٥٦	د أحمد القصير	سياسة	١٠,٠٠
٤٢	أفريقية عربية – ١١ مختارات العلوم الاجتماعية	مجموعة من الكتاب	سياسة	١٥,٠٠
٤٣	حوار مع اطروحات حزب التجمع (والبحث عن برنامج يعالج قضايا واقع جديد)	بهيج نصار	سياسة	٥,٠٠
٤٤	جماعات الإسلام السياسي واليسار المصري	بهيج نصار	سياسة	٥,٠٠
٤٥	حركة التاريخ قضايا ومفاهيم	فوزي الإخناوي	تاريخ	١٥,٠٠
٤٦	الثقافات المحلية والعولمة	د إيمان يوسف البسطويسي	سياسة	٢٥,٠٠
٤٧	استراتيجية للثورة المصرية	بهيج نصار	سياسة	٢٠,٠٠
٤٨	أحوال الصين (دراسات نقدية)	مجموعة من العلماء الصينيين	سياسة	٢٠,٠٠
٤٩	سياسية القوة البريطانية في مصر ١٩٢٤-١٩٤٢	د ماجدة محمد حمود	تاريخ	١٥,٠٠
٥٠	التفكير الناقد	د سهام الهويني	فلسفة	٢٠,٠٠
٥١	حدتو ذاكرة وطن ط ٢	د أحمد القصير	سياسة	٢٥,٠٠

٥٢	أفريقية عربية – مختارات العلوم الاجتماعية ١٠	مجموعة من الكتاب	سياسة	١٥,٠٠
٥٣	الناس بين الكهنة والمؤسسات	حسني فرجاني سلامة	اجتماع	٢٠,٠٠
٥٤	التجربة الأنثوية (طبعة ثانية)	صنع الله إبراهيم	قصص	٢٥,٠٠
٥٥	المثقفون	حمزة قناوي	أدب	١٥,٠٠
٥٦	أزمة مصر الحقيقية	عيداروس القصير	سياسة	١٠,٠٠
٥٧	سِفر الحياة (رؤي وتأملات)	فكري باسيلي	أدب	١٠,٠٠
٥٨	سِفر الحياة (وكان شَتاءً دافئًا) شعر	فكري باسيلي	أدب	١٠,٠٠
٥٩	العراق بين صراعات في الداخل والخارج	حسين عبد الرازق	سياسة	٢٥,٠٠
٦٠	الأيام الأخيرة	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
٦١	ذكرى عاهراتي الحزانى	جابرييل جارثيا ماركيز ترجمة:د أحمد يونس	رواية	٢٠,٠٠
٦٢	اشتراكية القرن	سمير أمين	سياسة	٣٠,٠٠
٦٣	استراحة الشيخ نبيل	عبد الستار حتيتة	رواية	٢٠,٠٠
٦٤	العمال وتحديات القرن الواحد والعشرين	إشراف: سمير أمين	سياسة	١٥,٠٠
٦٥	الطريق نحو عولمة بديلة	بهيج نصار	سياسة	٥,٠٠
٦٦	المرسى	نجوى شعبان	رواية	١٥,٠٠
٦٧	حوارات ساخنة بين اليسار العربي والأوروبي	سمير أمين وآخرون	سياسة	٢٠,٠٠
٦٨	مدخل إلى دراسة "رأسمالية الريع"	علي نجيب	اقتصاد	١٠,٠٠
٦٩	كتابات في الاقتصاد والمجتمع – مصر	علي نجيب	اقتصاد	٢٠,٠٠

(توزيع) إصدارات دار المستقبل العربي				
١	القانون الفرنسي	صنع الله إبراهيم	رواية	٢٥,٠٠
٢	الثورة العرابية	صلاح عيسى		١٥,٠٠
٣	قبة الإمام الحسين	د. نعمات أحمد فؤاد		١٢,٠٠
٤	الاشتعال السريع	نبيل السلمي		٢٥,٠٠
٥	الشيخوخة وقصص أخرى	د. لطيفة الزيات		٨,٠٠
٦	على جناح التبريزي	الفريد فرج		٦,٠٠
٧	الفن الفارسي	د. ثروت عكاشة		٦٥,٠٠
٨	وعليكم السلام	محمود عوض		٢٥,٠٠
٩	مذكراتي في سجن النساء	د. نوال السعداوي		١٢,٠٠
١٠	صحراء	لوكليزيو – ترجمة: أحمد كمال يونس		١٥,٠٠
١١	ميت بوتيك	فؤاد حداد		٢٠,٠٠
١٢	حرب أكتوبر – دراسات ودروس	الفريق أول محمد فوزي		٢٠,٠٠
١٣	معارك المياه	د.محمود سمير أحمد		١٢,٠٠
١٤	الكتابات الكاملة	يحي الطاهر عبد الله		٣٠,٠٠
١٥	أربعون عاماً من النقد التطبيقي	محمود أمين العالم		٣٠,٠٠

أ

كنت أفعل شيئاً رغماً عني، أرتدي حجاباً لا أشعر به ولا أريده، فأنظر بغيرة إلى الفتيات اللاتي يتمتعن بحرية تصفيف شعورهن كما يشأن، يتركونه حرا، أو يصنعون ضفيرة تشبع رغبة لديهن في العودة إلى الطفولة ولو للحظات، كم كنت أود أن أخلع حجابي كلما رأيت فتاة بشعرها، كم كنت أود لو أكون مكانها.

رواية جريئة لموهبة ناضجة لا تهاب مقارعة كافة المحظورات في سبيل الصدق.

صنع الله إبراهيم



دار الثقافة الجديدة